# حضارة وادى النيل

## جزء أول


تأليف

دكتور محمد على

مراجعة

د/ منى سعد المشكلط




**بطاقة فهرسة**



**مكتبة جزيرة الورد**

اسم الكتاب : حضارة وادى النيل (جزء أول)

المؤلف : دكتور/ محمد على

رقم الإيداع : ٢٤٦٥/ ٢٠١٥

الطبعة الأولى ٢٠١٥

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

# المقدمة

بداية أشكر المولى عز وجل على توفيقه لي حتى تم الانتهاء من اعداد الجزء الأخير من هذا الكتاب الذي بين أيديكم ، وذلك بعد اخراج الجزء الأول الذي تم فيه طرح صورة متكاملة عن الأسرات الفرعونية من خلال سرد تاريخي يوضح بعض أسرار حضارة وادي النيل ، وذلك بداية من نشأة الحضارة حتى نهاية الأسرة السابعة عشرة وهي فترة حكم الهكسوس لمصر .

وسوف أقوم من خلال هذا الجزء بتناول ماتبقى من أسرات فرعونية منذ قيام الدولة الحديثة في الأسرة الثامنة عشر حتى انتهاء الحضارة الفرعونية في الأسرة الثلاثين .

وبهذا أكون قد استعرضت في هذا الكتاب بجزئيه الاثنين صورة تفصيلية عن حضارة وادي النيل وملوك الأسرات الفرعونية مع عرض شامل لانجازاتهم واخفاقاتهم ، وفترات الصحوة والكبوة في التاريخ الفرعوني ، حتى تكون تلك الدراسة مرجعية متكاملة لأي باحث في التاريخ الفرعوني وعهد الأسرات .

كما أود ثانية من خلال تلك المقدمة أن أشكر كل من ساعدني في اخراج هذا الكتاب للنور . وأن أهديه إلى روح أبي الحبيب وأمي الغالية وكل أفراد أسرتي وأبناء قبيلتي وإلى شهداء ليبيا الأبرار وكل شهداء الوطن العربي .

د. محمد على



# الفصل الأول

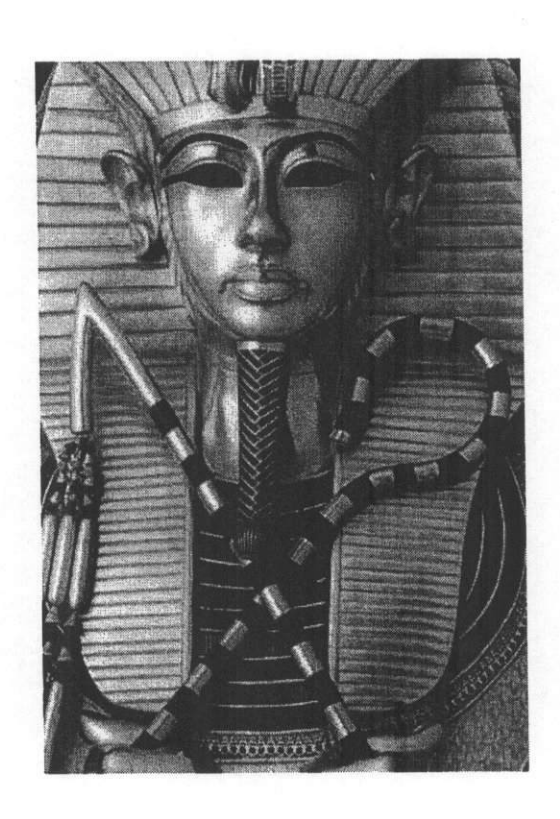
# الدولة الحديثة

**القسم الأول – بناء الإمبراطورية**

- الأسرة الثامنة عشر (١٥٧٠ – ١٣٢٠ ق.م.)

**القسم الثاني – أيام السلم**

- الأسرة الثامنة عشرة (١٣٢٠ – ١٣٠٤ ق.م.)
- الأسرة التاسعة عشر (١٣٠٤ – ١١٩٥ ق.م.)
- الأسرة العشرون (١١٩٥ – ١٠٨٠ ق.م.)



توت عنخ أمون

# الدولـــة الحديثـــة

## القسـم الأول - بنـاة الإمبـراطـورية

### الأسرة الثامنة عشرة

### ( ١٥٧٠ - ١٣٢٠ ق.م. )

**أحمس الأول :**

كـان أحمس الأول من أظهر ملوك مصر ، وكـان بطلا من أبطال إستقلالها وفارسها فى طرد الهكسوس ، وهو بالرغم من أنه أخو الملك كامس وإبن سقننرع فإن مانيتون وضعه كما سبق القول على رأس عائلة جديدة . ولو أمعنا النظر قليلا لوجدنا أنه لم تكن هناك مندوحة من ذلك ، لأنه بالرغم من أنه لم يحدث تغيير فى البيت المالك إلا أن مصر بدأت عصراً جديداً وهو عصر جدير بأن يكون فاتحة لعهد جديد وهو الأسرة الثامنة عشرة .

ويميل بعض المؤرخين المحدثين (١) إلى إعتبار هذا الملك وإبنه أمنحوتب الأول من ملوك الأسرة السابعة عشرة ، ويبدأ الأسرة الثامنة عشرة بالملك تحوتمس الأول ، ولكن هذا الرأى لا يجد من أكثر العلماء قبولا ، ولو قبلنا منطق الأستاذ شارف نفسه وهو أن أحمس الأول ليس إلا أخا لكامس وإبنا لسقننرع ويجب أن يتبع الأسرة التى يتبعانها ، فإن تحوتمس الأول أيضاً من العائلة نفسها ، ولهذا يجب أن يكون من الأسرة السابعة عشرة أيضا (٢) ، هو وأولاده وجميع من أعقبوه حتى إنتقال الملك إلى بيت آخر .

ومهما يكن من أمر فإن تقسيم مانيتون للأسرات المصرية وإعتبار قدماء

المصريين أنفسهم أن أحمس قد بدأ عصرا جديدا فى تاريخهم ، وذلك التغيير الكبير فى الحياة المصرية بعد أن طردت الهكسوس وطهرت أرضها من المستعمر وبدأت صفحة جديدة فى تاريخها يجعل بدء الأسرة الثامنة عشرة يبطل الإستقلال أمرا أقرب إلى المنطق وإلى الحق .

وإذا تتبعنا تاريخ الملك أحمس لوجدنا أنه بعد أن تم طرد الهكسوس وهزيمتهم فى فلسطين إلتفت نحو الجنوب فقام بحملة إلى تلك البلاد لإعادة الأمن إليها ، ولكن أثناء تغيبه هناك أراد بعض المصريين ( وربما كانوا من سلالة الهكسوس أى ممن كانوا موالين لهم ) القيام بثورة فعاد وقضى عليهم ولم نسمع بعد ذلك بأية محاولة أخرى . وامتد حكم هذا الملك إلى أربعة وعشرين عاما قضاها فى إصلاح البلاد وتوطيد النظام وتعمير المعابد ، وبخاصة فى طيبة وأبيدوس .

وقبل أن أترك عصر هذا الملك أرى من اللازم على الإشارة إلى بضع نقط تتصل به . فبالرغم من أن هذه العائلة طيبية الأصل وأن آمون هو الإله المحلى لطيبة فإن « القمر » كان يلعب دورا كبيراً فى حياة هذه العائلة ، فإن معنى كلمة أحمس هى « القمر (إعح ) ولد » وكذلك إسم أخيه كامس فإن « كا » وتكتب بشكل الثور كانت وثيقة الصلة بالقمر وعبادته [1] ، واسم أمه « إعح حوتب » أى القمر مطمئن وتكتب بالأفرنجية فى الغالب . (Ah - hotep) . كما أن إسم تحوتمس نفسه يحتوى أيضا على إسم الإله تحوت الذى لم يكن إلا إله القمر نفسه [2] .

ومما يستلفت النظر فى تاريخ هذه الحقبة من تاريخ مصر ذلك النفوذ الكبير الذى كان لسيدات هذه الأسرة ، وهو نفوذ نحسه فيما كان لهن من نعوت وأوصاف وما كان يقوم به الملوك لتخليد ذكراهن . وأظهر نساء هذه الأسرة ثلاث لعبن دوراً كبيراً فى حرب الإستقلال وبعث روح المقاومة فى العائلة ، أولاهن الملكة « تتى – شرى » جدة الملك أحمس التى ظل وفيا لذكراها إلى آخر سنى حياته ، وأقام لها فى أبيدوس أثرا كبيراً ليكون مدفنا مؤقتا لها ، ووضع فيه لوحة أبقى عليها الزمن لتقص علينا قصة وفائه لذكراها . أما ثانية هذه السيدات فهى الملكة « إعح حوتب » التى يظهر أنها لعبت دوراً رئيسياً فى الحرب وكان لها أثناء حياة إبنها المقام الأول . فإنه كتب عنها فى لوحة الكرنك [3] :

« امدحوا سيدة البلاد ، وسيدة جزر البحر الأبيض ، فاسمها محترم فى جميع البلاد الأجنبية وهى التى تضع الخطــط للنــاس . زوج الملك وأخــت الملك عاشت ( متمتعة ) بالحياة والسلامة والصحة . وهى أخت ملك وأم ملك ، هى العظيمة القديرة التى تهتم وتضطلع بشئون مصر . وهى التى جمعت جيشها وحمت الناس ، وأعادت الهاربين ولمت شتات المهاجرين وهدأت ما حل بالصعيد من خوف ، وأخضعت من كان فيه عصاة ، الزوجة الملكية « إعح حوتپ » لها الحياة » .

وقد أراد بعض المؤرخين ، وبخاصة المؤرخ الألمانى الكبير إدوارد ماير ، (١) أن يرى فى ألقاب هذه الملكة ما يسمح له بأن يقول إنها ربما كانت أصلا من كريت وأنها تزوجت من ملكها ، لأن كريت كانت مركز حضارة جزر البحر الأبيض المتوسط . وأراد أن يرى فى نقوش حليها التى عثر عليها فى قبرها ما يؤيد كلامه إذ أن بعض هذه الحلى ، وعلى الأخص خنجرها ، بالرغم من أنها مصرية الصناعة إلا أن أثر الفن الإيچى ظاهر فى شكلها وزخارفها (٢) .

وليس من المستبعد أن يكون سكان جزر البحر الأبيض المتوسط تحالفوا مع بيت طيبة ، وقدموا شيئاً من المعونة فى حصار الهكسوس وأن نتيجة هذا التحالف كانت زيادة التجارة بين أهل كريت وأهل مصر . وليس من المستبعد أيضاً أن تكون الملكة «إعح حوتپ» لعبت دوراً مباشراً وهاما فى هذا الأمر كما نستشفه من ألفاظ لوحة ابنها أحمس .

أما ثالثة السيدات العظيمات فهى أحمس نفرتارى ، التى تزوجت من أخيها كامس ثم من أخيها أحمس وظل نفوذها كبيراً فى أيام إبنها أمنحوتپ الأول . وما زلنا نجهل حتى اليوم السبب الذى جعل المصريين منذ أواخر الأسرة ١٨ وفى خلال الأسرات ١٩ ، ٢٠ حتى الأسرة ٢١ ينظرون إليها نظرة عبادة واحترام ، وأقاموا لها معبداً فى طيبة وجعلوا منها ومن إبنها أمنحوتپ الأول إلهين حاميين للجبانــة ، وكانوا يرسمونها على جدران كثير من مقابرها . أما الملك أحمس الأول فقد ألهه

المصريون أيضاً ، ولكن كان لعبادته شأن فى أبيدوس أكبر من شأنها فى طيبة [١] .

وأبقى الزمن على كثير من مومياوات ومقابر وآثار بعض موظفى هذا الملك ولهذا أصبح من الميسور لنا معرفة الكثير عن حالة البلاد الإجتماعية فى أيامه أما مؤمياؤه هو فقد سلمت من العبث وهى الآن فى المتحف المصرى .

وقد فحص إليوت سميث هذه المومياء ، [٢] ونعرف من بحثه أنه قد قدر له عمرالأربعين عند موته أى أنه تولى الملك وهو فى الثامنة عشرة ، وكان طوله ١٦٣,٥ سم . وليس يدهشنا أن كون أحمس قد مات فى عمر مبكر فإن أمه عاشت عشر سنوات بعد وفاته .

## أمنحوتب الأول : ( ١٥٤٦ - ١٥٢٦ ق.م. )

ومات أحمس الأول قرير العين وخلفه على العرش إبنه أمنحوتب الأول وكان يافعاً ، فقامت أمه « أحمس نفرتارى » بعبء كبير فى معونته كما فعلت الملكة « إعح حوتب » مع أبيه أحمس من قبل .

وورث هذا الملك الصغير صفات أبيه وجده ، وما لبث أن خرج على رأس جيشه ليرى أطراف ملكه فى شمالى السودان ، وفى سورية وفى ليبيا ، كما نعرف ذلك من تاريخ حياة القائدين « أحمس بن إبانا » و « أحمس بن بننخبت » . ولم يكن هناك ما يدعو لأن يستمر الملك الشاب فى حروبه ، فإن مصر وما جاورها من البلاد ظلت هادئة ، وظل أمنحوتب فى سياسته الإنشائية يعمر المعابد ويزيد فى رخاء البلاد طيلة الأعوام الواحد والعشرين التى قضاها على العرش ، وقد بقى من أيامه بعض آثاره فى الكرنك ، وبخاصة هيكل من المرمر أعيد تركيب أحجاره فى السنوات الأخيرة.

أما قبر أمنحوتب فليس لدينا شك فى أنه كان فى دراع أبو النجا كما جاء فى بردى أبوت ، وأن عمقه كان أكثر من ستين متراً [٣] ، وسواء أكان قبر الملك أمنحوتب

الأول هو الذى كشفه كارنارڤون فى عام ١٩١٤ (١) أو لم يكن ، فإن هذا الملك كان أول الفراعنة الذين فصلوا بين قبرهم وبين المعبد الجنازى ، لأن جميع الملوك السابقين كانوا إما يدفنون داخل أهرامهم أو كانوا يدفنون فى مقابر تعلوها أهرام مثل مقابر الطارف .

وكان أمنحوتب رفيقا برعيته طيلة السنوات الواحد والعشرين التى قضاها على العرش ، ولأمر ما ظل عمال الجبانة فى طيبة قرونا عدة بعد وفاته يعبدونه ويقدمون له القرابين ، بل كان هناك تقليد خاص وهو أن كهنة معبده فى تلك الجبانة كانوا من العمال أنفسهم (٢) ، ولم يكن هناك مركز واحد لعبادته بل عبد فى أماكن متفرقة وفى أشكال عدة .

ومما هو جدير بالذكر ، وله صلة بعهد هذا الملك ، أنه يوجد على ظهر بردية إيبرس ( Ebers ) الطبية بيان بعدد من الأعياد مع تاريخ الاحتفال بها ، ومن دراسة علماء الفلك لهذه البردية أمكن تحديد السنة التاسعة من حكمه بأنها وقعت فى عام ١٥٣٦ قبل الميلاد . ومات أمنحوتب الأول دون أن يترك ولدا ذكراً من بعده ليخلفه على العرش فسبب ذلك شيئا من الاضطراب فى الوراثة ، وانتهى الأمر بتولى الملك تحوتمس الأول عرش البلاد . ولم يكن تحوتمس إبنا لأمنحوتب الأول ولكنه كان أميرا من أمراء البيت المالك وتزوج من الأميرة صاحبة الحق فى الوراثة للملك وكانت تسمى أحمس ، وهى إبنة أمنحوتب فأصبح له الحق فى ولاية العرش دون إعتراض .

كان تحوتمس أول فراعنة مصر المحاربين ، وهو الذى خطا الخطوة الأولى فى تشييد صرح الإمبراطورية المصرية ، وقبل أن نتحدث عنه أو عن أعماله يحسن بنا أن نقف قليلا لنلقى نظرة عابرة على بلاد الشرق الأدنى القديم لنعرف ما كانت عليه عندما تولى تحوتمس الأول عرش وادى النيل .

**نظرة عامة فى حالة بلاد الشرق الأدنى فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد:**

وضع أحمس اللبنة الأولى فى أساس الإمبراطورية المصرية وتلاه إبنه أمنحوتب الأول فحافظ على بناء أبيه . فلما جاء تحوتمس الأول كانت مصر مطمئنة وأمورها الداخلية مستقرة ، وكانت حدودها قد امتدت جنوباً حتى الشلال الرابع . أما عن صلتها بمن جاورها من البلاد فإن نفوذها السياسى المباشر لم يمتد إلا إلى الجزء الجنوبى من فلسطين وبعض بلاد الساحل الفينيقى ، أما ما بقى بعد ذلك من إمارات فى شمالى فلسطين أو فى سورية فكان بين صديق لمصر وبين مستقل عن أى نفوذ أجنبى ، أو تربط حكامه رابطة من الصداقة أو الولاء بدولة من الدول التى كانت تعيش وقتذاك فى بلاد الرافدين ، أو دولة خيتا فى آسيا الصغرى ، التى أخذت تظهر فى دنيا السياسة فى ذلك العهد .

أشرت عند الحديث عن الهكسوس إلى أثر هجرات الكاسيين والحريين من جبال القوقاز أو غيرها من ناحية الشمال الشرقى ، فلم يمض غير بضعة قرون حتى تمكنت بعض قبائل من هذين الشعبين من توطيد أقدامها فى الهلال الخصيب ، فقامت دويلات صغيرة متعددة فى بعض مدن سورية ولكن لم تقم مملكة كبيرة إلا فى شمال بلاد النهرين وهى مملكة ميتانى ، التى كان يقوم إلى الجنوب منها مملكة أشور ، وفى الجزء الجنوبى على مقربة من الخليج الفارسى كانت تقوم مملكة بابل ، ولم تكن هناك مندوحة من قيام التنافس بين هذه الممالك وبخاصة المملكتين الأخيرتين .

وكان من أثر هذه الهجرات الهندو – أوروبية قيام مملكة فى الأناضول وهى مملكة خيتا ، التى لم يأت عليها القرن السادس عشر ق.م. حتى كانت مملكة لها اتحادها وقوتها ، ولم تكتف بالسيطرة على آسيا الصغرى فقط بل تطلعت بعيونها نحو الجنوب ، وأصبحت هى والمملكة الأخرى ذات الأصل القوقازى الآرى وهى مملكة ميتانى عاملا قويا فى سياسة دويلات سورية . وليس من المعقول أن تظل جزر بحر إيجة وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط بعيدة عن هذا التطاحن فقد كانت الصلة بين هذه الجزر وبلاد الأناضول وسورية وبخاصة الشاطىء الفينيقى ومصر متصلة ، وكان سكانها وعلى الأخص أهل كريت وقبرص ذوى حضارة قديمة وكانت سفنهم التجارية تزور شواطىء مصر وسورية ، وكانت موانئ بلادها تزخر بسفن مصر وفينيقيا . ولكن إلى جانب هذه الصلة التجارية والثقافية بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط كانت هناك صلة أخرى يكاد يكون لها لون سياسى خاص . فنحن نعرف من النصوص المصرية منذ الدولة القديمة صلة مصر بهذه الجزر ، حاوو .

نبوت » ، ونعرف أن هذه الصلة إزدادت فى الدولة الوسطى فإذا ما انقشعت غمامة حكم الهكسوس بدا لأعيننا شيء جديد وهو زيادة هذه الصلة بمصر مما يجعلنا نقف متسائلين عن سببها . وإنى أميل إلى تفسير هذه الصلة بأنه ليس من المستبعد أن تكون كريت وبعض هذه الجزر وقعت . مثل مصر ، فريسة لحكم الهكسوس ، وأنه عندما بدأت مصر نضالها ضد الغاصبين لحريتها قامت كريت أيضا بنضالها فتوحدت الغاية وتآلفت القلوب . وربما كان للجيوش المصرية فضل مباشر على تطهير الجزيرة من فلول الهكسوس مما جعل أهل كريت يعترفون بفضل مصر وأصبح للملكة « إعح حوتب» الحق فى أن تسمى نفسها ملكة إذ ربما يكون أهل كريت أنفسهم قد خلعوه عليها كلقب من ألقاب الشرف والتكريم اعترافا بما قدمه أهل طيبة لهم من معونة .

أما بلاد شمال أفريقيا فليس لدينا عنها معلومات كثيرة ، ولكن ليس لدينا أيضاً ما يدل على أنه كان لمصر نفوذ سياسى خاص هناك فى ذلك العهد ، ولو أن سكان البلاد التى على الحدود المصرية كانوا من البدو الذين لم تكن لهم دول ذات خطر سياسى على وادى النيل .

وبالرغم من تفرق كلمة هذه الأمم وقيام الدول المختلفة فيها ، فإن التجارة كانت تأخذ طرقها برا وبحرا بين البنجاب فى الشرق ومصر فى الغرب ، وكانت بلاد الفرات بحكم مركزها الجغرافى هى القنطرة الأولى للتجارة وسورية هى القنطرة الثانية ، ولم تكن هناك مندوحة من تطلع كل من دول ما بين النهرين وخيتا ومصر إلى السيطرة أو على الأقل ضمان الولاء من ولايات سورية وفلسطين .

كانت هذه المصاعب تتراءى لمصر ، ولكن كان هناك دون شك عامل آخر له قيمته ووزنه . لقد تبع الملك أحمس الأول فلول الهكسوس إلى جنوبى فلسطين وهزمهم فى شاروهن فإلى أى المناطق إتجهوا وكيف انتهى بهم المطاف ؟ ويجدر بنا عند التفكير فى هذا الأمر ألا ننسى صلة الهكسوس الوثيقة بسورية وفلسطين ، فإنهم جاءوا من الشرق وكان فى تلك البلاد دويلات ممن اتصلوا بالهكسوس وأصحاب الأمر فيهم ذابوا دفعة واحدة من الأرض أو أنهم تبخروا ولم تبق منهم باقية . وليس بالأمر البعيد أن تلك البقية ومن إتصلوا بهم بصلة الجنس أو القربى أو ممن كانوا لا يؤمنون بصداقة المصريين ويميلون إلى الدول التى تنافسهم أصبحوا ، على الأرجح ، مع مرور الزمن خطراً على الولايات الصديقة لمصر ، بل ربما أيضاً خطراً على مصر نفسها (١).

وسواء أكان هذا الفرض صحيحا أو غير صحيح فإن اعتلاء الملك تحوتمس الأول لعرش البلاد كان إيذانا بعصر جديد وهو بدء تسيير الجيوش المصرية على نطاق واسع إلى خارج الحدود وتكوين الإمبراطورية المصرية التى بلغت أوجها فى عهد الملك تحوتمس الثالث أعظم ملوك مصر المحاربين .

## تحوتمس الأول ( ١٥٢٥ - ١٤٩٥ ق.م. ) :

لم يكن تحوتمس الأول عند إعتلائه العرش شابا يافعا أو فى زهرة شبابه ولكنه كان قد جاوز الأربعين وأصبح مكتمل الرجولة ، وكانت تملأ نفسه ذكريات طفولته عندما كانت البلاد مشتعلة الحماس بعد طرد الهكسوس .

جلس تحوتمس الأول على العرش عام ١٥٢٥ ق.م. ولم تكد تنتهى مراسيم تتويجه ويطمئن على سير الأمور فى البلاد حتى ذهب إلى الجنوب ليتفقد نتائج حملتى أحمس وأمنحوتب هناك ، وقد توغل حتى وصل إلى آخر دنقلة وأصبحت مدينة نبتا عند جبل برقل داخلة ضمن حدوده ، وقد ظل هذا الحد أى الشلال الرابع لمدة خمسمائة عام تقريبا دون تغيير ، بل أخذ النفوذ المصرى يتوغل كثيراً نحو الجنوب حتى وصل إلى قبيل الخرطوم . ولكى ينظم أمور هذه المملكة الجنوبية جعل المنطقة إبتداء من مدينة الكاب شمالى إدفو حتى آخر حدوده فى السودان وحدة واحدة يحكمها موظف أطلقوا عليه ، الإبن الملكى لكوش ، ومنذ هذا اليوم أخذت بلاد النوبة وشمالى السودان تصطبغان بالصبغة المصرية البحتة وبدأت الثقافة المحلية الوراثية فى تلك البلاد تختفى تدريجيا حتى كادت تتلاشى مع مرور الزمن .

وبعد أن انتهى تحوتمس من إصلاح حال حدوده الجنوبية إلتفت نحو أسيا فذهب إليها فى السنة الثانية من حكمه ، وسار حتى وصل إلى نهر الفرات الذى أسماه معاصروه ، ذو المياه المعكوسة ، إشارة إلى أنه يجرى من الشمال إلى الجنوب بعكس نهر النيل ، وقضى هناك بعض الوقت فى اصطياد الفيلة وأرسل منها بعض عشرات إلى معبد أمون فى طيبة .

وبدأ تحوتمس الأول بتشييد المبانى الفخمة فى معبد الكرنك ليجعله جديراً بأن يكون المعبد الرئيسى لعاصمة الإمبراطورية التى أخذ ينظم أمورها فأزال المعبد المتواضع الذى كان قائما منذ أيام الأسرة الثانية عشرة ، وبنى مكانه معبدا كبيراً أمامه مسلتان من الجرانيت مازالت إحداهما قائمة فى مكانها حتى الآن ، أما الأخرى فقد وقعت على الأرض أيام القرن الثامن عشر ومازالت بعض أجزائها ملقاة هناك. كما أقام أيضاً بهوا كبيراً فيه أعمدة مربعة على واجهتها تماثيل على شكل الإله أوزيريس ، عثر على بعضها تحت أرضية المعبد فى عام ١٩٤٢ .

ونحن نعرف الكثير عن أعمال أمنحوتب وتحوتمس مما كتبه مهندسهما « إنيني » فى لوحته التى نقش واجهتها فى مقبرته فى علوة الشيخ عبد القرنة ، فهو يذكر لنا قصة مبانيه التى أقامها فى الكرنك ، ويذكر لنا أيضاً قصة تكليف الملك تحوتمس له ليبحث عن مكان فى الجبل الغربى أمام الأقصر ليكون مقرا صالحا لقبره . كان هذا الملك هو أول من قرر الإقلاع عن التقليد القديم وهو الدفن فى هرم أو مقبرة يعلوها هرم ، وفضل أن يدفن فى مكان خفى بعيد عن العيون وأن يكون معبده الجنازى على حافة الزراعة . وكان هذا الوادى الذى إكتشفه « إنيني » ، وقطع فى أحد أركانه قبر تحوتمس الأول هو « وادى الملوك » الذى أصبح منذ ذلك اليوم مكان دفن ملوك الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين .

وقضى هذا الملك ثلاثين عاما فى حكم البلاد ، وترك مصر فى خير حالة ، فقد بسط نفوذه القوى فى الجنوب والشمال وبدأ فى تعمير البلاد بعد أن بدأت تتدفق على طيبة خيرات الأمم المختلفة إذ نعرف من مقابر الأفراد الذين عاشوا فى أيام تحوتمس الأول كيف بدأت مصر تدخل فى عهد جديد من الرخاء .

**تحوتمس الثانى ( ١٤٩٥ - ١٤٩٠ ) :**

كان زواج الملك تحوتمس الأول من الأميرة « أحمس » ذات الحق الأول فى الوراثة هو السبب الذى جعل منه ملكا شرعيا فى أنظار الشعب ، ولكن شاءت الظروف ألا تلد له الملكة أحمس ولدا ذكرا ، بينما ولد له ذكور من زوجات أخريات . وكان أهم أولاده الذين بقى إسمهم ظاهرا فى التاريخ إبنته حتشبسوت بنت الملكة أحمس ، وكانت قوية الشكيمة ورثت الصفات القوية فى نساء هذه العائلة كما ورثت حب المجادلة من أبيها ، ثم أكبر أبنائه الذين عاشوا وكان يسمى « تحوتمس » مثل أبيه وقد ولد له من زوجة إسمها « موت نفرت » وتزوج تحوتمس هذا من أخته حتشبسوت وبدأ حكمه كغيره من الملوك .

ولكن منذ البداية دب الخلاف بين الاثنين . فإن تحوتمس الثانى كان ضعيف الصحة غير طموح بينما كانت حتشبسوت فتاة طامحة تملأ رأسها فكرة الاستئثار بالملك ، ولهذا إضطربت الأمور وانقسم موظفو القصر ، وربما موظفو الدولة أيضاً ، إلى حزبين وبدأت المؤامرات الداخلية تفعل فعلها فى البلاد . وكان من أثر هذا الخلاف أن قامت ثورة فى شمالى السودان ، وقسم بعض أمراء البلاد الأصليين بلاد كوش بينهم فأرسل الملك جيشا هزم الثوار وأعاد الأمور إلى ما كانت عليه ، وكان الملك تحوتمس فى أسوان عندما عاد جيشه منتصراً من الجنوب ، ومن المحتمل أن

تكون ثورة أخرى قامت فى سورية ، ومن المحتمل أيضاً أن تكون بعض القبائل البدوية فى شرقى مصر إنتهزت هذه الفرصة وأخذت تقطع الطرق على القوافل فأدبها جيش فرعون . وبالرغم من ذلك كله فقد أظهر هذا الملك شيئاً من الإهتمام بالبناء فقد عثر على آثار له فى طيبة ، وعند الشلال الثانى ، كما جاء ذكر إسمه فى نقوش كثيرة وبخاصة فى مقابر الموظفين الذين عاشوا فى أيامه .

ومدة حكم هذا الملك فيها شيء من الخلاف؛ لأن مانيتون ذكر أنه حكم عشرين عاما وذكر بعض رجال الآثار ( دارسى ) أنه رأى أثراً فى المتحف المصرى مؤرخا فى العام الثامن عشر ، ولكن هذا الأثر مفقود الآن ولا نعرف مكانا له حتى يمكن التأكد من هذا التاريخ ، لأن ظواهر الأمور وما وصل إلى يدنا من آثار تجعل هذا الحكم الطويل أمراً مستحيلاً ، ولا يمكن أن يكون قد زاد حكمه عن خمس سنوات . وبموت الملك تحوتمس الثانى بدأت فترة صراع شديدة ، صراع قوى جبار بين حتشبسوت والملك تحوتمس الثالث الذى كان من خيرة ملوك مصر ، إن لم يكن أعظمهم جميعاً.

## النزاع بين حتشبسوت وتحوتمس الثالث:

نعرف من لوحة « إنينى » المهندس المعمارى الذى عاصر أكثر من ملك من ملوك هذه الأسرة أنه بعد موت تحوتمس الثانى تولى تحوتمس الثالث الملك ، ولكنا نقرأ فى النص ذاته أن أخته ( أى أخت تحوتمس الثانى ) كانت هى التى تدبر أمور البلاد وأن مصر « كانت مطأطئة الرأس وهى تعمل لها وكانت هى صاحبة الأمر ؛ لأنها البذرة الممتازة التى خرجت من الآلهة » .

وكان أكثر الأثريين إهتماماً بهذه الفترة من تاريخ مصر هو « برستد » وقد نشر آراءه فى كتابه عن تاريخ المصريين القدماء ولكن جاء بعد ذلك العالم الألمانى « كورت زيته » [١] فكتب عن هذا الموضوع وعارض آراء برستد ، وظلت آراء زيته مصدراً تاريخيا مهما لهذه الفترة من تاريخ مصر حتى طلع « إدچرتون » [٢] ببحث له وعدل فى بعض آراء زيته وأصبح ترتيبه هو المقبول ما يقرب من عشرين عاما أى

إلى أعوام قليلة مضت . وتتلخص آراء إدچرتون فيما يأتى :

١ – أراد تحوتمس الثانى أثناء حياته أن يعلن لابنه تحوتمس الثالث حتى تولى العرش من بعده، فدبر لذلك موضوع اختياره بوساطة الإله أمون رع فى أحد أيام الأعياد عندما كان تحوتمس هذا يعيش فى المعبد كأحد كهنته .

٢ – بعد وفاة تحوتمس الثانى ، تزوج تحوتمس الثالث من حتشبسوت الملكة الشرعية وصاحبة الحق فى الوراثة ليكون جلوسه على العرش شرعياً ، ومنذ اللحظة الأولى لم تكن زوجة فقط بل كانت شريكة فى الملك .

٣ – كانت حتشپسوت امرأة طموحة كما أسلفنا ، وكانت صاحبة الرأى طيلة أيام تحوتمس الثانى فأصبحت لها السلطة الكاملة فى بدء حكم تحوتمس الثالث الذى كان أصغر سنا ودونها فى المرتبة الاجتماعية ؛ لأن أمه لم تكن إلا زوجة ثانوية.

ولكن آراء إدچرتون أصبحت بدورها فى حاجة إلى تعديل والمأخوذ به الآن حسب آخر الأبحاث هو (١) .

١ – تحوتمس الثالث إبن لتحوتمس الثانى وليس إلا أخا له .

٢ – تزوج تحوتمس الثاث من أميرة اسمها حتشبسوت صارت زوجته الأولى ، وهى ليست حتشبسوت الكبرى وإنما هى إبنة لها .

وإن فى اعتبار تحوتمس الثالث إبنا لتحوتمس الثانى ليس إلا رجوعا إلى رأى زيته أما عن زواجه بإبنة حتشبسوت التى سميت بإسم أمها فهو أمر ثانوى والحجة عليه ضعيفة ولا تغير فى صلب الموضوع شيئا ذا أهمية . فقد كانت حتشبسوت الكبرى صاحبة الأمر فى البلاد منذ أواخر أيام أبيها تحوتمس الأول حتى موتها ، وربما اضطرتها التقاليد إلى الزواج من إبن زوجها وإبن أخيها عندما مات أبوه وأشركته فى العرش ، ثم تزوج بعد موتها من إبنتها ، مريت رع حتشبسوت ، .

ومنذ البداية أخذت حتشبسوت مقاليد الأمور كلها فى يدها وجعلت من إبن أخيها الصغير الجالس على العرش شبه خيال أمام الناس ، وكانت تكتب اسمه مع اسمها فى البداية ولكن لم تمض سنوات حتى أصبح لها الأمر المطلق ولم يعد لتحوتمس الثالث أى ذكر فى الحكم . كما بدأت حتشبسوت ترسم نفسها فى المعابد وهى ترتدى زى الرجال وتستخدم ضمير المذكر فى النصوص . وكان هذا كله لكى

توهم الناس أن التقاليد المتبعة لم يدخل عليها أى تغيير بوجود امرأة على العرش .

واصطفت حتشبسوت بعض الموظفين ، وكان أكثرهم حظوة لديها المهندس سنموت الذى قام ببناء معبد الدير البحرى لها ، وكان يشرف على تربية ابنتها الأميرة ، نفرو – رع ، التى أعلنتها خليفة لها فى الملك ، ولكنها ماتت وهى صغيرة .

ونرى على جدران معبد الدير البحرى وفى مبانى معبد الكرنك قصة حياة هذه المرأة الجبارة ، فقد إدعت أنها ليست من صلب أبيها وإنما هى إبنة للإله أمون رع الذى اختار أمها الملكة أحمس لتكون أماً لإبنة له تحكم مصر . ورسمت مناظر هذه القصة على أحد الجدران فى المعبد ، وقصت على جدار آخر قصة طويلة تتلخص فى أن أباها تحوتمس الأول بايعها بالملك فى حياته عندما كانت فتاة شابة ، وأن الكهنة ، وكبار رجال الدولة وافقوا على ذلك ، أى أن كل من تحوتمس الثانى والثالث كانا مغتصبين لحقها . ومن أجمل وأهم نقوش هذا المعبد العظيم ذى الموقع الممتاز مناظر الرحلة البحرية التى أرسلتها إلى بلاد بونت لتجلب البخور وغيره من خيرات البلاد إلى مصر ولتنقل بعض أشجاره لزرعها فى حديقة معبدها . ولنقوش الدير البحرى أهمية كبرى لدراسة موضوع بلاد بونت التى بدأت تظهر فى كتابات المصريين منذ أيام الأسرة الخامسة ، وكان لها مركز خاص فى ديانتهم ، ومكانها حول بوغاز باب المندب على الناحيتين أى تشمل الصومال وجنوبى بلاد العرب كما ذكرنا من قبل ، أما أعمال حتشبسوت فى الكرنك فكثيرة وأهمها المسلتان العظيمتان والصالة التى كانت خلفهما ، ومعبد من الجرانيت عثر على أكثر أحجاره فى صرح الملك أمنحوتب الثالث بعد أن هدمه تحوتمس الثالث . ولم تقم حتشبسوت بأى حملات حربية اللهم إلا فى الجنوب (١) . واعتنت ببناء ما كان مخرباً من اثار البلاد وبخاصة ما هدمه الهكسوس ، كما نقرأ على واجهة هيكلها المسمى اصطبل عنتر فى بنى حسن .

ولا جدال فى أنها كانت سيدة قديرة حكمت مصر بحزم ، ولكن موقفها من زوجها ثم من ابن زوجها جعل من الشاب الصغير عدواً لها فلما اشتد ساعده ، ووجد من الأعوان من يساعده على تحقيق أمنيته ضرب ضربته واستعاد حقه . ولسنا نعرف حتى الآن كيف انتهت حياة حتشبسوت ، ولكنا لا يخامرنا أى شك فى أنها كانت نهاية محزنة فإنه لم يعثر على جثتها فى مقبرة من مقبرتيها فى طيبة ، ولا فى خبيئة الدير البحرى ، كما نعلم أيضاً أن تحوتمس الثالث أزال اسمها من كل أثر .

وحطم مقابر أصفيائها وأسمائهم ، وعلى الأخص سنموت الذى بنى لنفسه قبراً فى علوة الشيخ عبد القرنة ثم قبراً آخر على مقربة من الدير البحرى ، ولكن حتشبسوت غضبت عليه قبل موتها . وصب تحوتمس الثالث جام غضبه على كل ما أقامته فحطم تماثيلها وكان العمال يوقدون النار حول تلك التماثيل ويصبون عليها الماء فتتناثر أجزاؤها إلى آلاف القطع الصغيرة ، ثم رموها كلها فى محجر قديم أمام الدير البحرى حيث عثرت عليها بعثة متحف المتروبوليتان وأمكن جمع قطع هذه التماثيل وترميمها، ويوجد بعض هذه التماثيل الآن فى متحف القاهرة والبعض الآخر فى متحف المتروبوليتان بنيويورك .

وهكذا انتهى حكم حتشبسوت بتلك الفاجعة بعد أن حكمت وحدها ثمانية عشر عاماً . فقد مات تحوتمس الثانى فى عام ١٤٩٠ وحكم تحوتمس الثالث بالإشتراك مع حتشبسوت مدى أربع سنوات ، ثم قبضت حتشبسوت على السلطة فى عام ١٤٨٦ واستمرت حتى عام ١٤٦٨ ، ولكن تحوتمس الثالث لم يعترف بهذا وظل بعد القضاء عليها يؤرخ أيام حكمه منذ كان صبياً بعد وفاة أبيه فى عام ١٤٩٠ . وطالت سنوات جلوسه على العرش ، حتى مات بعد أن حكم ٥٤ سنة فى عام ١٤٣٦ .

ولسنا نعرف إذا كان وجود امرأة على عرش مصر كان السبب فى انتفاض الجنوب وبدء الثورة فى سورية على حكم مصر ، أو أن ما عساه أن يكون قد قام من حرب أهلية وانقسام البلاد كان هو السبب فى ذلك . على أى حال فإن الموقف فى كل من السودان وسورية وجد فى الملك الشاب خير كفء له ولم يكد تحوتمس ينفرد بالحكم حتى سار بنفسه لتوطيد ملكه .

**تحوتمس الثالث : ( ١٤٩٠ - ١٤٣٦ ) (١)**

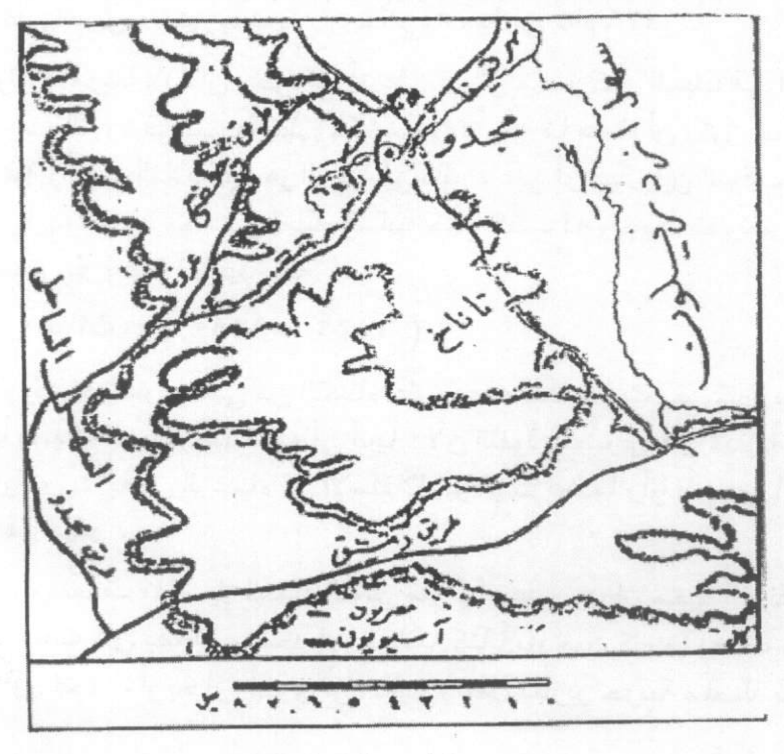
لم يكد تحوتمس ينتهى من القضاء على عمته حتشبسوت ومن كان يواليها ، حتى بدأ يجهز نفسه لتوطيد ملكه فى آسيا ؛ لأن النفوذ المصرى كان قد بدأ يتدهور فى سورية ، وبدأ بعض الزعماء فى الاستقلال بولايتهم عندما رأوا بأعينهم الانقسام الداخلى فى مصر .

ونحن نعرف تفاصيل الحملة الأولى مما جاء على جدران معبد الكرنك؛ لأن تحوتمس الثالث كان يصطحب معه فى حملاته كتاباً يؤرخون كل ما يحدث ، ونرى فى ذلك أول اتجاه ، أو بعبارة أخرى أول تقليد ، لعمل تقارير حربية مفصلة نستطيع

أن نقارنها بتقارير المعارك الحربية الحديثة ، وكان الأصل مكتوباً على ملفات البردى ونقلوا بعض مقتطفات منها على جدران الكرنك .

ونقرأ فى أخبار هذه الحملة أنها كانت فى العام الثانى والعشرين من حكمه أى فى السنة الأولى من إنفراده بالحكم ، وأنه غادر حصن ثارو ( على مقربة من القنطرة) فى طريقه إلى فلسطين فوصل إلى غزة بعد تسعة أيام ، وهذا سير سريع لجيش يقطع الصحراء ولم تكن لديه وسائل النقل الميكانيكية ، إذ أن هذه المسافة تزيد على ٢٨٠ كيلو متراً . ولم يضع تحوتمس وقته؛ لأنه كان يعلم أن الذين شقوا عصا الطاعة جمعوا جموعهم عند مدينة مجدو ( تل المتسلم – على الحافة الجنوبية لسهل جزريل الذى ذكرته التوراة تحت اسم Esdraelon - jezreel وهو مرج ابن عامر فى الناحية الشرقية الشمالية من جبال الكرمل ) وكان هذا الإتحاد تحت رئاسة أمير قادش، فلما تقدمت الجموع إلى مجدو اعتبر تحوتمس الثالث أن هذا إعتداء عليه وعلى حدوده ولهذا هب للدفاع عنها .

ترك الجيش غزة ووصل بعد ذلك بسلام إلى بلد يقال له ، يحم Yehem ، بعد مسيرة أحد عشر يوماً لم يلق فيها الجيش أى جموعهم فى مجدو ، وكانت هذه الجموع




مجدو ، والطرق الموصلة إليها.

مؤلفة من رجال ثلاثمائة وثلاثين زعيماً من زعماء سورية وفلسطين . وكان أمام تحوتمس ثلاث طرق إثنان منها يدوران حول سفح جبال الكرمل والثالث طريق مباشر صعب المرتقى ولكنه يوصل رأساً إلى مجدو . عقد القائد الشاب مجلسه الحربى فكانت نصيحة قواده له أنه ليس من الحكمة أن يخاطر بسلامة الجيش وحذروه من إتخاذ طريق الجبال الذى يبدأ من مكان يسمى « عرونا » وقالوا له بأنه لا يأمن أحد على سلامة الجيش فى ممر ضيق لا يتسع إلا لمسير عربة واحدة ، ولكن تحوتمس صمم على رأيه، وقال إنه لابد من مفاجأة العدو من هذا الطريق وأصدر أمره إلى الجيش ليستعد للتحرك فى فجر اليوم التالى حيث وصلوا فى آخر اليوم إلى مدخل الممر . وفى صباح اليوم التالى أقسم تحوتمس أن يكون فى طليعة جيشه وأن يسير على قدميه ، فلما إنتهى من إجتيازه أراد الزحف مباشرة إلى مجدو ، ولكن ضباطه ألحوا فى الرجاء أن ينتظر هناك حتى يتم تجمع الجيش ، وقد تم ذلك بعد سبع ساعات. وعسكر المصريون عند مدخل « وادى قينا Kina » وفى فجر اليوم التالى هجم الجيش المصرى على شكل نصف دائرة على مجدو ، ولم يلبث المدافعون عنها أن ولوا عند بدء الهجوم تاركين معسكرهم بما فيه وكان كل همهم أن يدخلوا المدينة المحصنة ، ولكن الذين كانوا داخلها أغلقوا الأبواب وأخذوا يساعدون رجالهم بجذبهم إلى أعلى الأسوار وذلك بعمل حبال من ملابسهم . ويذكر لنا النص المصرى بأنه لولا أن الجنود المصريين شغلوا أنفسهم بنهب المعسكر لأمكنهم الإستيلاء على المدينة ، وقد كلفتهم هذه الغلطة أنهم ظلوا سبعة شهور فى حصارها حتى استسلمت استسلاماً تاماً ، وقدم جميع من كان فيها من الزعماء ولاءهم وخضوعهم . ولكن زعيم قادش كان قد فر بعد المعركة. وبعد الاستيلاء على مجدو إتجه تحوتمس شمالاً مستولياً على البلاد كلها بغير عناء ولم يذكر إلا أسماء ثلاثة من المدن ربما حاولت ألا تفعل ما فعلته الأخرى فاضطر لتأديبها (١) .

وإذا نظرنا إلى بيان الغنائم التى وقعت فى أيدى المصريين لهالنا ثراء تلك البلاد . فكثيراً ما جاء ذكر العربات الحربية المصفحة بالذهب والفضة وكذلك الأوانى الذهبية والأسلحة ، وقد ذكر تحوتمس أيضاً سبعة قضبان من نوع ثمين من الخشب إسمه « مرو » كانت مصفحة بالفضة لتحمل سرادقات بعض الأمراء .

كانت حملته على « مجدو » فاتحة لحملات أخرى بلغ عددها ست عشرة




معركة مجدو

حملة، كان يقوم بها عند إقبال الصيف ويرجع إلى مصر فى أوائل الشتاء فيقضى وقته فى إصلاح حالة البلاد أو الإشراف على تنفيذ ما كان يأمر به من معابد أو مبان . وقد رأى تحوتمس فى حملاته التى تلت الحملة الأولى ضرورة إعداد بعض الموانئ السورية لتكون قواعداً للأسطول المصرى ، إذ أنه فى الحملات الخمس الأولى كان يتقدم ويستولى فى كل حملة على بعض بقاع جديدة ولكن كان دون وصوله إلى بلاد الفرات عقبة كؤود وهى الاستيلاء على مدينة « قادش » الحصينة التى كانت مركز المقاومة للنفوذ المصرى ، والتى كان يتزعمها ويتزعم غيرها من المدن أميرها الذى كان على رأس المتحالفين فى أولى حملات تحوتمس . فلما انتهى تحوتمس من إعداد كل شيء وضمن تعاون الأسطول مع الجيش البرى سواء فى النقل أو فى التموين هاجم قادش واستولى عليها فى حملته السادسة التى كانت فى العام الحادى والثلاثين من حكمه . وفى حملته الثامنة وصل إلى الفرات واستولى على مدينة قرقميش ، وقد أقام

على ضفة الفرات إلى جانب لوحة جده لوحة أخرى ، وقد فقدت كلاهما ولم يعثر عليهما حتى الآن .

ونعرف من سياق قصة حربه أنه كان قد أعد لعبور الفرات سفناً حملت أجزاؤها على عربات . صنعت هذه السفن فى « جبيل » ونقلت إلى « قرقميش » وأدى استخدامها إلى فتح أقاليم الفرات أمام الجيش المصرى . وبدأت مملكة « ميتانى » تحس بحاجتها إلى صداقة مصر فقدمت ولاءها وهداياها ، وكذلك فعلت مملكة أخرى آرية وهى مملكة « خيتا » فى آسيا الصغرى التى بدأت منذ أيام تحوتمس الثالث تظهر فى صفحات التاريخ ، وكان أول هذا الظهور هو تقديمها الهدايا الثمينة مع رسول خاص لطلب صداقة ملك مصر . وكذلك فعلت ممالك أشور وبابل وأصبحت مصر منذ هذه الحملة صاحبة النفوذ فى غربى آسيا ، كما أصبحت جميع ثغور فلسطين وسورية، وجزر البحر الأبيض المتوسط داخلة تحت نفوذ مصر بفضل أسطولها القوى.

واستمرت حملات تحوتمس بعد ذلك إلى أن كانت الحملة السادسة عشرة فى العام الثانى والأربعين من حكمه ، وكانت مدينة قادش أعلنت العصيان مرة أخرى يؤازرها ملك ميتانى ، وإنضمت إليها مدينة « تونيپ » التى كانت غير بعيدة من مدينة « حماة » الحالية . وبسقوط مدينة « قادش » وتحطيمها للمرة الثانية قضى على كل أثر لمعارضة النفوذ المصرى فى تلك الأصقاع .

قضى تحوتمس الثالث بعد هذه الحملة إثنى عشر عاماً على العرش لم يحدث خلالها ما يجعله يسير إلى آسيا . فإن البلاد كلها دانت له ، وكانت ترسل هداياها وما قرره عليها من جزية كل عام إلى طيبة ، وكان الحكام المصريون فى جميع هذه البلاد ينفذون أمر الجالس على عرش طيبة الذى امتدت رقعة ملكه من الفرات فى الشمال إلى « نپتا » فى الجنوب أى كان طول إمبراطوريته نحو ٣٢٠٠ كيلو متر .

**شخصية تحوتمس الثالث :**

اشتهر اسم تحوتمس الثالث كقائد حربى من الطراز الأول . رأيناه يضع الخطط وينفذها ويلجأ إلى أساليب جديدة فى فن القتال ، كما رأيناه أيضاً يتحلى بشجاعة نادرة ، ولم يكن يتطلب من أحد جنوده أن يفعل أمراً لا يستطيع هو بنفسه أن يفعله ، ويكفى موقفه يوم عقد مجلسه الحربى فى « يحم » ويوم تقدم الجيش على قدميه فى ممر « عرونا » لنعرف أنه كان جندياً ممتاز الصفات فى كل شىء .

ولكنا نعرف من الوثائق الأخرى أن ميزاته الحربية لم تكن إلا إحدى نواحى عظمته . فقد حكم إمبراطوريته الواسعة بالحزم واللين وكان يعرف كل ما يحدث فى

أرجائها ، كما قال عنه وزيره «رخ – مى – رع » كالصقر يرى كل شىء .

أدرك تحوتمس الثالث أنه لن يستطيع الإبقاء على إمبراطوريته إذا لم تقم على أساس المودة . ولهذا لم ينتقم من الأمراء الذين حاربوه بل قربهم وثبتهم فى وظائفهم، وقبل منهم الولاء بعد أن أقسموا له يمين الطاعة . ولكنه رأى أن يأخذ معه بعض أبنائهم ليتعلموا فى مصر مع أبنائه ومع أبناء كبار الرجال ، ليشبوا مؤمنين بصداقة مصر لهم ولبلادهم ولكى يرتبطوا منذ طفولتهم وشبابهم بروابط الصداقة مع الأمراء المصريين ومع أبناء كبار الموظفين .

وكانت رحلات تحوتمس الثالث إلى بلاد سورية غير مطبوعة بالطابع الحربى فقط بل إنها كانت مطبوعة أيضاً بطابع آخر . فقد أصدر تحوتمس أمره إلى رجاله بأن يدخلوا إلى مصر كل ما يجدونه صالحاً من حيوان أو فواكه أو زراعات ، ونرى صوراً لكثير من الطيور والحيوانات والنباتات على جدران إحدى القاعات التى بناها فى معبد الكرنك ، صوروا على جدرانها كل ما أمر بإحضاره إلى مصر ، ونعرف أنه كان ضمن ما أدخلوه إلى مصر فى ذلك الحين الدجاج والرمان .

وليس من المستغرب بعد ذلك أن نرى أن بعض مظاهر الفن والحضارة السورية والعراقية بدأت تظهر فى البلاد ، وبدأ كثير من الأسيويين يستقرون فى وادى النيل ، وكان لهم الحرية التامة فى أن يعيشوا كما كانوا يعيشون فى بلادهم ويعبدوا آلهتهم الأسيوية ما يحلو لهم . وكان تحوتمس الثالث يقدر شجاعة رجاله فيغدق على من يميز نفسه على أقرانه جميع أنواع الترقيات والهدايا . فنرى مثلاً فى تاريخ حياة أحد ضباطه « أمون – إم – حب » الذى دونه على جدران مقبرته فى طيبة كيف كان الملك يكافئه فى كل مرة يظهر فيها الشجاعة مثل اليوم الذى أنقذ فيه حياة الملك عندما هاجمه أحد الفيلة أثناء صيدها فى سهول الفرات ، ويوم أسعفه ذكاؤه فهجم على الفرس التى أطلقها زعيم قادش فى الحملة السادسة عشرة لتحدث الإضطراب بين الصفوف فى العربات التى كان يجرها الذكور من الخيل ، ولكن « أمون إم حب » هجم على الفرس وقتلها .

وليس هناك ما هو أوقع فى النفس مما فعله لتخليد ذكرى الملك سنوسرت الثالث فى بلاد النوبة والسودان ، فإن سنوسرت الثالث اهتم كثيراً بهذه المنطقة وحصنها ووضع لوحات عند حدودها ، وأصلح كثيراً فى إدارتها ، فلما نزل تحوتمس إلى تلك البلاد ورأى بعينيه أعمال جده الذى حكم قبله بأكثر من أربعمائة سنة لم يسعه إلا أن يأمر بتأليهه وتشييد المعابد بإسمه ، وأمر بأن يرسمه الفنانون وهو يقدم القرابين له بإعتباره إلهاً حامياً للنوبة .

أما نظرة هذا الفرعون إلى الحكم وكيف يجب أن يعامل الناس فإننا نقرؤها على جدران مقبرة الوزير « رخ مى رع » ، وهى وصايا هذا الملك لوزيره يوم أسند إليه منصب الوزارة ورسم له الطريق الذى يجب أن يسير عليه ، وهى وصايا لم تكن دستوراً صالحـــاً للماضى فقط ، بل صالحة لكل زمان ومكان وفيها تحليل نفسى للشعب ، والصلة التى يجب أن تكون بين الحاكم والمحكوم .

**كبار رجال ذلك العهد :**

كانت أكثر أعوام تحوتمس الثالث سنوات حرب فلهذا كنا نتوقع أن يصبح لقواده العسكريين الذين كانوا دائماً حوله فى حروبه المركز الأول فى البلاد ، وأن تصبح لهم الكلمة الأولى فيها . ولكنا إذا درسنا جيداً حياة رجاله الذين خلفوا آثاراً وراءهم نرى أن بعد نظر هذا الحاكم جعله يضعهم فى مكان لا يعدونه حتى لا يفلت الزمام من يده . ونحن نعرف كثيراً من أسماء ضباطه الذين أبلوا بلاءاً حسناً فى الحروب والذين حظوا بإنعامه وعطفه ، ولكن لا نرى واحداً منهم وصل إلى مركز رئيسى كبير بل أن إدارة البلاد المالية والقضائية والدينية بقيت بعيدة عن رجال الجيش ليتفرغوا لبناء الإمبراطورية ويحافظوا عليها .

كانت طيبة فى أيام تحوتمس الثالث عاصمة العالم القديم ، وكانت تتدفق عليها خيرات إفريقيا وآسيا وجزر البحر الأبيض ، وكان يفد إليها كل عام رسل جميع البلاد يحملون خير ما استطاعت بلادهم تقديمه من ذهب وفضة ، ومعادن أخرى وأحجار كريمة ، ومصنوعات مختلفة . وكان موظفو الخزانة هم المسئولون عن تسلم هذه الهدايا وأنواع الجزية ، كما كان الوزير يستقبلهم بحكم منصبه ليقدمهم إلى فرعون . وكثيراً ما سجل كبار موظفى ذلك العهد هذه المناظر على جدران مقابرهم فأصبحت مقابر طيبة سجلاً جامعاً لحضارات بلاد الشرق القديم فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد ، إذ سجل الفنانون المصريون ما رأوه فرسموا وفود هذه البلاد بملابسهم الوطنية ، وما كانوا يحملونه من مصنوعات بلادهم ومحاصيلها . وقد زال أثر تلك الحضارات من كثير من بلاد آسيا وجزر البحر الأبيض والسودان ، وأصبحنا نعتمد على مقابر طيبة وحدها كالمصدر الأول لدراسة حضارات تلك البلاد والشعوب . وأهم المقابر فى طيبة لدراسة الحالة الاجتماعية فى مصر فى ذلك العهد ودراسة حضارات الشعوب الأخرى هى مقابر الوزراء أمثال « أوسر » و « رخ مى رع » ، وبعض كبار الكهنة مثل مقبرة « منخپر رع سنب »[1] الذى كان الكاهن الأكبر لأمون

وبعض كبار رجال الدولة أمثال « بويمرع » [1] و « أمنمحات بن تحوتمس » [2] .

و « أنتف » [3] و « إمونزح » [4] وبعض القواد أمثال « أمون إم حب » [5] و«أمون مس » [6] ولكن أهم الشخصيات جميعاً كانت شخصية الوزير « رخ مى رع » ونقوش مقبرته أهم مصدر لدراسة الحياة الإجتماعية فى ذلك العصر [7] .

## السنوات الأخيرة من حياة تحوتمس الثالث :

كانت خيرات العالم القديم تتدفق على خزائن فرعون ، وسرعان ما دبت فى مصر وفى جميع بلاد الشرق حياة جديدة ، كما أخذ شأن « طيبة » يزداد من يوم إلى يوم . ولم يدخر تحوتمس الثالث جهداً فى تزيينها لتصبح جديرة بأن تكون عاصمة العالم المعروف ، فبنى فيها المعابد والهياكل وأقام المسلات ولم يقتصر نشاطه على الكرنك أو الأقصر أو جبانة طيبة بل نرى هذا النشاط شاملاً لجميع أرجاء الوادى . ففى جبل برقل فى دنقلة أقام المعابد وكذلك على طول النيل فى بلاد النوبة ، وفى جميع البلاد الهامة فى الصعيد وفى الدلتا ، كما نعرف أيضاً أن المعابد المصرية بنيت فى كثير من بلاد آسيا وأصبح الإله أمون – رع معبوداً فى كافة أنحاء الإمبراطورية.

ولم يذهب تحوتمس الثالث إلى آسيا بعد الحملة السادسة عشرة التى ظل بعدها على العرش إثنى عشر عاماً ، ولم يكن ذلك راجعاً إلى فتور همته أو ضعف صحته لتقدمه فى السن ، وإنما كان مرجعه إلى استتباب الأمن والنظام فى كل مكان ، إذ نعرف مثلاً أنه لم يتردد فى القيام بحملة إلى السودان فى العام الخمسين من حكمه ، وقد قضى هناك أكثر من سبعة شهور ، فلو كان ممن يحبون الدعة أو الراحة لما سافر

بنفسه لإخماد فتنة قامت هناك . لقد ذهب بنفسه ولم يكل ذلك إلى فرد آخر من قواده بالرغم من أنه كان قد قارب السبعين من عمره .

ومن المحتمل أن يكون تحوتمس الثالث قد بدأ حياته الزوجية غير الموفقة مع حتشبسوت كما ذكرنا ، ولكنه تزوج أيضاً من أميرة أخرى إسمها « سات – إعح » فلما كبرت « مريت – رع – حتشبسوت » إبنة الملكة حتشبسوت وأصبحت فى سن الزواج إتخذها زوجة ؛ لأنها كانت الوريثة الشرعية ، وأنجب منها إبنه « أمنحوتب » الذى خلفه على العرش . ومات تحوتمس الثالث بعد أن ملأ سمع الدنيا وبصرها وكان إبنه أمنحوتب قد جاوز عامه الثامن عشر ، وكان مشهوراً بالفروسية والشجاعة وممارسته أنواعاً عدة من الرياضة البدنية ، وكان رجاله الذين ولد أكثرهم فى عهده ، ساهرين على أحوال الإمبراطورية ، فلا عجب إذا كان قد مات وهو مطمئن على مستقبل إمبراطوريته .

مات تحوتمس بعد حكم دام أربعة وخمسين عاماً فى اليوم الثلاثين من الشهر الثالث من فصل الشتاء وكما ذكر القائد « أمون – إم – حب » فى مقبرته « صعد إلى السماء واتحد مع الإله رع واندمجت أعضاؤه الطاهرة مع الذى خلقها . فلما جاء اليوم الثانى وأشرقت الشمس وأضاءت السماء ، جلس على عرش أبيه الملك « عاخبرو – رع » ( أمنحوتب الثانى ) وإتخذ لنفسه الألقاب الملكية » . ودفنت مصر فى مقبرته فى وادى الملوك ملكاً من أعظم الملوك الذين حكموا فى الأرض ثم إلتفت حول إبنه الشاب وهى واثقة أنه خير من يحمل العبء ويستمر فى تحقيق رسالة أبيه .

**أمنحوتب الثانى : ( ١٤٣٦ – ١٤١١ ق.م.)**

تفتحت عينا الأمير أمنحوتب ليرى مصر وبلاد الشرق القديم تحنى رأسها لأبيه، فلما شب عن دور الطفولة لم يكن ليسمع إلا دقات طبول الحرب . ولا شك أنه متع ناظريه وأذنيه وهو يرى والده العظيم يقود جنوده عاماً بعد عام ليعود بعد شهور قليلة وقد حمل جنوده ما قدمته البلاد الأسيوية من جزية أو من هدايا ، وليرى أيضاً الأمراء العصاة يمشون مكبلين بالأغلال فى مواكب النصر .

كانت مصر فى ماضى أيامها تعيش آمنة فى بلادها لا تهتم إلا بأمورها وتأمين طرق تجارتها مع غيرها من البلاد ، وإذا كانت قد إهتمت بتوطيد أقدامها فى مكان خارج حدودها فإنها لم تهتم إلا بالجنوب كما حدث فى الأسرة الثانية عشرة . ولكن تعرضها للمذلة أثناء غزو الهكسوس جعلها تفكر فى الانتقام لكرامتها ، وأرادت

أن تبعد الخطر عن حدودها الشرقية وتستأصل كل مكامن الشر حتى تطمئن على نفسها ، وكان أول من نفذ هذه السياسة على نطاق واسع هو تحوتمس الأول .

ولكن حتشبسوت كانت على غير رأى أبيها فلم تهتم على الإطلاق بآسيا بل أرادت أن تحيى السياسة القديمة وهى الإقتصار على العلاقات التجارية وبخاصة مع الجنوب ، فأرسلت حملتها الشهيرة إلى بلاد بونت ، واهتمت بإصلاح حال البلاد وترميم ما تهدم من معابدها وبخاصة أثناء حكم الهكسوس ، وأقامت المبانى الفخمة فى طيبة وضنت بموارد البلاد أن تذهب فى حروب فى آسيا لم تكن تؤمن بها أو بنتائجها .

ولكن هذا الإتجاه السلمى نحو إحياء التجارة ، والإتجاه نحو الجنوب والاهتمام بالإتصال بإفريقيا بدلا من الإتصال بآسيا ، بدأ يحدث رد فعل جديد ، وأخذت بعض الولايات الأسيوية تتخلص من النفوذ المصرى ، ورأى بعض المصريين ومنهم الكهنة ، الذين كانوا يشجعون الحرب للإستفادة من المغانم ، أن الخطر بدأ يظهر مرة أخرى ، ثم جاءت الضربة التى ضربها الحزب المناوىء لحتشبسوت وتولى تحوتمس الثالث عرش البلاد .

فلما جاء اليوم الذى تولى فيه أمنحوتب الثانى عرش أبيه لم يتردد فى إتباع خطواته ولم يظهر ميلاً نحو الدعة أو المسالمة ، بل أسرع ليظهر بطولته ، وهكذا ماتت سياسة السلم وترك آسيا وشأنها بموت حتشبسوت ، ولم يقدر لها أن تظهر من جديد ، ولو فى صورة أخرى ولأسباب أخرى ، إلا فى أواخر أيام الأسرة الثامنة عشرة فى عهد إخناتون .

ولندع الآن الحديث عن ذلك ونعاود سرد قصتنا عندما بدأ منحوتب الثانى حكمه وهو فى ميعة الشباب ، فوضع التاج المزدوج فوق رأسه وقبلته البلاد ملكاً مؤلها ، تدين له إمبراطورية من أكبر الإمبراطوريات التى عرفها العالم القديم .

كانت الأيام كلها أيام فتوح وحرب وكان حديث الشعب كله هو ما يرويه الجنود العائدون من القتال من قصص وأخبار ، وكلهم يريد أن يضفى على نفسه هالة من البطولة ، صادقة كانت أو كاذبة . وكان الشعب يحب ذلك كله إذ كان يرى أثر هذه الحروب فى الرخاء الذى أخذ يغمر البلاد ، وفى النهضة التى شملت كل مرافقها . وأدرك تحوتمس الثالث أنه لا بقاء لهذا الملك الواسع العريض إلا إذا خلفه على العرش ملك قوى الشكيمة محب للحرب ولهذا أسلم ابنه منذ صغره إلى أحد ضباطه ليشرف على تربيته التربية العسكرية اللازمة . ونحن نرى الأمير الصغير الذى لم يكن قد بلغ

الحلم مرسوماً فى قبر مربيه فى طيبة وقد أخذ يتلقى عنه درساً فى الرماية [1] . ويستمع إلى معلمه وهو يقول :

« شد القوس حتى أذنك مستعملاً كل ما فى ذراعيك من قوة وثبت السهم .. يا أمير أمنحوتپ » .

وأنشأ تحوتمس الثالث مدرسة فى قصره فى طيبة ليتعلم فيها ولى عهده . ومعه كثيرون من أبناء ضباطه وكبار رجال البلاد وأبناء أمراء آسيا الذين يقاربونه فى السن ، ليشبوا جميعاً وقد إرتبطوا برباط الصداقة معه لكى يخدموه فى مستقبل أيامه خدمة الصديق للصديق وهى خير وأجدى من خدمة العبد للسيد .

ولسنا نشك فى أن تحوتمس الثالث ، وكان قد أصبح شيخاً متقدماً فى السن ، كان راضى النفس وهو يرى ولى عهده يشب صحيح الجسم مغرما إلى أبعد حد بجميع أنواع الرياضة من رمى بالسهام ، إلى براعة فائقة فى التجديف ، وفى الجرى، ونعرف من لوحته التى عثر عليها فى عام ١٩٣٦ بجوار « أبو الهول » فى الجيزة وتصف حبه للرياضة والفروسية أنه عندما أبلغوا أباه غرامه بالجياد وأظهروا للملك شفقتهم على الأمير من شراستها سر الملك سروراً كبيراً من ذلك ، لأن الإله وضع فى قلبه حب الفروسية وأنساه شهوة الجسد، لأن الإله قد أراد أن يكون حامياً لمصر [2] .

وعاش تحوتمس الثالث حتى أتم إبنه العام الثامن عشر من حياته ، فلما تربع على العرش وجد حوله رجال أبيه الذين ساعدوه فى إنشاء وإدارة الإمبراطورية كما وجد الخزائن ملآى ، والبلاد آمنة ، ولكن لم يلبث حتى وصل إلى سمعه أن بعض الولايات السورية الشمالية إنتهزت فرصة موت تحوتمس الثالث وأرادت التخلص من الحكم المصرى فعز ذلك على الملك الشاب وعده استخفافا به . واندفع نحو سورية على رأس جيشه بكل ما فى الشباب اليافع من إندفاع ، فهزم كل من لم يقدم له الولاء، وكان انتقامه شديداً وأتى بما لم يأت به أحد من أجداده من قبل ، إذ مال إلى التنكيل بأعدائه ، وأحضر معه سبعة من أمراء المدن السورية إلى طيبة وقتل ستة

منهم أمام الإله أمون فى طيبة ، أما السابع فقد أرسله إلى « نبتا » ليشنق هناك أمام أمون سيد جبل برقل .

وكان لهذا العمل أثره ، فسرعان ما عرفت آسيا أن الجالس على عرش مصر قادر على الإحتفاظ بهيبته ، ولهذا أخذت جميع المدن ترسل هداياها وتبعث بخيرات بلادها وكان فى مقدمة هذه البلاد مملكة ميتانى نفسها التى شجعت العصيان ، ومدينة قادش التى لعبت دوراً رئيسياً فيه .

كانت هذه الحملة أولى حملاته على آسيا ، وقد أتبعها بحملة أخرى فى السنة التاسعة . ولكنها كانت حملة تفتيشية أكثر منها حملة حربية ؛ لأن الثورة التى قيل عنها إنها قامت فى فلسطين لم تكن إلا فتنة صغيرة محلية فى إحدى المدن . ويقص أمنحوتب الثانى أخبار هاتين الحملتين على لوحتيه الشهيرتين وإحداهما فى الكرنك منذ وقت طويل ، وعثر على الثانية فى عام ١٩٤١ فى منف (١) ، إذ أمر الملك بإذاعة إنتصاراته على هاتين اللوحتين فى أكبر معابد مصر وهما معبد بتاح فى منف ومعبد أمون رع فى طيبة (٢) ، وقص فيهما الكثير من حوادث بطولته الشخصية وجرأته وقوته البدنية . وآثاره غير القليلة ، فقد زاد كثيراً فى معبد الكرنك وفى منف ، وكذلك فى كثير من بلاد النوبة والسودان ، ومن بين هذه الآثار تمثال راكع وفى يديه إناءان كان فى معبد له فى جهة النجعة على مقربة من شندى على مسافة تقل عن سبعين ميلا شمالى الخرطوم : أن أن أمنحوتب زاد فى الإتجاه نحو الجنوب ومن المحتمل أن يكون قد وصل النفوذ المصرى إلى أبعد من ذلك ، ولكن ليس لدينا حتى الآن آثاراً من هذه الأسرة عثر عليها جنوبى الخرطوم .

وقد أحاط أمنحوتب الثانى نفسه برجال جدد بل يكاد يكون من المؤكد أنه لم يرض عن كثيرين ممن كانوا فى خدمة أبيه ، وقرب إليه شباناً وبخاصة ممن كانوا رفقاءه فى طفولته . وفى جبانة طيبة نرى مقابر هؤلاء الموظفين ومن أهمها مقبرة « قن أمون » الذى كان يتمتع بنفوذ كبير ، ورسمت على جدرانها الهدايا التى كانت

قدمت للملك فى عيد السنة الجديدة ، ومقبرة « وسرحات » ومقبرة « باسر » وغيرها، وكذلك مقبرة « أمون إم أبت » الذى حل محل الوزير « رخ مى رع » ، وجدران هذه المقابر مغطاة بمناظر تكمل مناظر مقابر عهد تحوتمس الثالث فى دراسة الحياة الإجتماعية لبلاد آسيا وغيرها ، إذ ظل تمثيل تقديم الهدايا والجزية كما كان فى عهد أبيه وزاد عليها الميل لتصوير مناظر الصناعات المختلفة والحفلات المنزلية بما فيه من بذخ وتوفير السرور .

وهناك شيء من الخلاف بين الأثريين فيمن كانت زوجته الملكية وأكبر الظن أنها كانت أخته من أبيه الملكة « تاعا » التى أصبحت فيما بعد أما للملك تحوتمس الرابع الذى خلفه على العرش .

وكان للفرعون أمنحوتب الثانى خمسة أولاد من الذكور ، أسلمهم إلى مرب اسمه « حقر نحح » رسمهم جالسين على ركبتيه من قبره فى طيبة ولكن أسماءهم – ما عدا إسم الأمير تحوتمس – قد محيت عمداً فيما بعد بسبب الخلاف الذى دب فى العائلة بعد موت والدهم ، بعد أن قضى خمسة وعشرين عاماً فى الملك ودفن فى قبره الذى أعده فى وادى الملوك .

**تحوتمس الرابع : ( ١٤١١ – ١٣٩٧ ق.م. )**

لم يكن تحوتمس الرابع ولى العهد الذى كان يجب أن يؤول إليه العرش بعد وفاة أبيه بل كان من بين إخوته من الذكور من هو أقرب إلى الملك منه ، وإنما تولى العرش عقب نزاع بينه وبين غيره من إخوته ، وإذا كانت آثار هذا الملك لا تتحدث صراحة عن ذلك فإن اللوحة الشهيرة باسم « لوحة الحلم » ، وهى التى أقامها بين ذراعى « أبو الهول » فى الجيزة ، تحمل فى ثناياها أنه لم يكن هو الأمير صاحب الحق فى الملك . فإن تحوتمس الرابع أقام هذه اللوحة فى العام الأول من حكمه ويقص علينا فيها أنه كان يصطاد يوماً من الأيام فى صحراء الأهرام عندما كان أميراً، وجلس فى ظل تمثال « حور أم أخت » ( تمثال أبو الهول ) وغلبه النعاس فرأى بوضوح أباه الإله يبشره بأنه سيصبح ملكاً فى المستقبل وسيضع التاج على جبينه ، ويطلب منه إذا تحقق ذلك أن يرفع الرمال التى تجمعت حوله؛ لأنها تكاد تخنقه ولا يستطيع التنفس. ويقول تحوتمس إن هذه النبوءة الإلهية تحققت وأنه أمر برفع الرمال.

ولو أمعنا النظر فى هذه القصة لرأينا فيها محاولة لتبرير وجوده على العرش إذ لو كان الأمير الشرعى لما كان هناك داع لهذه القصة المخترعة . كما أننا نعرف فى الوقت ذاته من مقبرة المشرف على تربيته أن نزاعاً ما حدث بين الأمراء فمحيت

أسماؤهم ما عدا تحوتمس الذى أصبح فيما بعد ملكاً على البلاد . وربما كانت مؤامرته لإبعاد أخيه صاحب الحق قد أغضب كهنة أمون الذين لم يقروه على ما فعله فحدثت بينه وبينهم جفوة جعلته يتجه نحو كهنة الشمس ويبذل كل ما إستطاع لإحياء عبادة رع ، بل إننا نجد أيضاً نه شجع عبادة قرص الشمس « أتون » وكان أول من أمر برسمه وهو يعطى الحياة ، كما نرى ذلك فيما بعد فى عهد حفيده إخناتون .

ومهما كان الأمر فإن تحوتمس الرابع أثبت جدارته ، فما كاد يجلس على العرش فأعاد النظام ، ورجع محملاً بالغنائم ، وأحضر معه أسرى كثيرين بنى لهم حياً خاصاً فى طيبة . وكذلك فعل عندما نزل إلى السودان لإطفاء نار ثورة شبت هناك فنزل إليها بنفسه أيضاً . وقد إستن تحوتمس الرابع سنة جديدة عندما زين مقدمة عربته الحربية بمناظر تمثل ساحة القتال ، فإن هذه المناظر التى أصبحت فيما بعد تملأ واجهات المعابد بدأت كما رأينا على مقدمة عربة هذا الملك ، وهذا المنظر وإن صغرت مساحته فإن الفنان الذى رسمه راعى فيها جميع التفاصيل ، وحشر فيه مناظر متعددة روعيت فيها الدقة التامة (١) .

كان تحوتمس الرابع آخر ملوك مصر المحاربين الذين قامت الإمبراطورية على سواعدهم ، وهو أيضاً آخر ملوك هذه العائلة الذين ذهبوا على رأس الجيش إلى آسيا ، وجعل هيبة مصر تحتل المكانة الأسمى فى سورية وفى العراق وفى آسيا الصغرى . كانت هناك ممالك ميتانى وبابل وأشور وخيتا فى آسيا ، وكانت تتنافس فيما بينها ، وأهمها جميعاً إذ ذاك مملكة « ميتانى » التى بدأت تحس بخطر مملكة «خيتا» الناشئة وأخذت تخطب ود مصر ، فشجع تحوتمس هذا التقارب بل أراد أن يوثق أواصر المودة بزواجه من إبنة الملك « إرتاتاما » ملك ميتانى فأرسل إليه ستة رسل يطلب يدها وأخيراً قبل أن يرسلها مع الرسول السابع .

وهذه الأميرة الميتانية هى التى سميت بعد ذلك بالإسم المصرى « موت إم أويا » وأصبحت أم « أمنحوتب الثالث » الذى تولى العرش بعد وفاة أبيه .

ويرى بعض المؤرخين (٢) أن اختلاط دم الفراعنة بالدم الآرى كان سببا مباشرا لإدخال الطراوة وحب الملذات فى دم أمنوحتب الثالث ولكن ليس فى تاريخ الجنس

الآرى بوجه عـام مـا يجعلنا نقبل مثل هذا الرأى على علاته ، فإنهم جنس محارب شديد المراس ، وإذاك أن أمنحوتب الثالث غير ميال بطبيعته إلى الحروب فهذا أمر آخر وربما كان راجعاً إلى عوامل أخرى .

وبالرغم من أن تحوتمس الرابع تربع على العرش وهو فى سن العشرين فإنه مات فى ريعان شبابه إذ لم يحكم أكثر من أربعة عشر عاماً فقط ولكن نشاطه الذى رأيناه فى الحرب لازمه أيضاً فـــى إدارة البـــلاد فنرى آثاره فى كثير من أرجاء مصر [1] . ونرى فى طيبة كثيراً من مقابر رجاله الذين رافقوه فى حروبه وعاونوه فى إدارة ملكه الواسع ، وقد إمتازت مقابر هذه الفترة برسم المناظر الحربية وعرض الجنوب ، وبخاصة فى مقابر « نب أمون » و « ثاننى » و « ثنونا » . [2] وقد تزوج تحوتمس الرابع أكثر من واحدة وولد له بضع ذكور وعدد غير قليل من الإناث .

ودفن فى مقبرة وادى الملوك ، وقد سرق هذا القبر فى أيام الرعامسة وعثر فيه فى أوائل هذا القرن على كثير مما تركه اللصوص . وبموت هذا الملك بدأت مصر فترة جديدة فى تاريخها .

## الأسرة الثامنة عشرة

## القسم الثانى - أيام السلم

*****

### أمنحوتب الثالث يتولى الملك : (١٣٩٧ - ١٣٦٠ ق.م.)

قضت مصر قرناً كاملاً وهى توسس إمبراطوريتها . فمنذ أن تولى تحوتمس الأول عرش البلاد وتطلع بعينيه نحو آسيا لم يتراخ هو أو واحد من خلفائه فى توطيد هذا الملك ، بل أن مصر لم تحس بسلامتها وتؤمن أنها قد تخلصت إلى الأبد من خطر فلول أعدائها الهكسوس إلا بعد أن رأت تحوتمس الثالث يدك أسوار قادش ، ويقود زعماءها فى موكب نصره ، وقضى عليهم وعلى كل من كان يناصرهم من زعماء المدن الأخرى .

ومنذ اليوم الذى اتصلت فيه مصر بتلك البلاد ، بدأ أسرى الأسيويين يستوطنون أرض النيل ، وكان جنود مصر يذهبون إلى آسيا ، ويأتى الكثيرون من سكان بلاد الشرق القديم إلى طيبة ، فأصبحت هذه المدينة أولى بلاد العالم وكعبة القصاد . وفى مثل هذا الظروف كان أمراً طبيعياً أن تتغير الحياة الاجتماعية فى مصر وأن يتسع أفق المصريين ويخرجوا من عزلتهم الهانئة ، ويخففوا من غلواء تقاليدهم الدينية والاجتماعية بعد أن اتصلوا بالشعوب الأخرى ، وبدأت تتسرب إليهم آراء وتقاليد لم يكن لهم بها عهد من قبل .

ونحن نحس ونرى هذا التغيير فى حياة المصريين كما صوروه فى جبانة طيبة، وكما عرفناه من آدابهم ولغتهم كما وصل إلينا من أخبار ملوكهم . وليس أدل على هذا التغيير من أن مصر لم تعد تعبأ كثيراً بالتقاليد القديمة القاسية ، ولم نجد أى غضاضة فى أن نرى تحوتمس الرابع يتزوج من أميرة من ميتانى أو أن نرى إبنه من هذه الأميرة ، وهو الذى تبع أباه فى حكم البلاد يجلس على العرش ، بل بلغ من تغير الحياة الاجتماعية أن هذا الأمير نفسه لم يجد ما يدعوه لأن يتزوج أميرة من أميرات البيت المالك ويجعل منها الزوجة الأولى بل فضل عليهن فتاة من الشعب وهى التى أصبحت فيما بعد ملكة البلاد وأم ولى عهدها .

ونرى أثر هذا التغير الإجتماعى أيضاً فى معاملة أمنحوتب الثالث لزوجته «تى» . فللمرة الأولى فى تاريخ فراعنة الدولة الحديثة نرى الملكات تقام لهن التماثيل الكبيرة جالسات إلى جوار الملوك ، أو يذكرن معه دائماً على آثاره ، حتى على

الجعارين التذكارية التى كان يأمر هذا الملك بتوزيعها من آن لآخر .

دخلت مصر منذ تولى أمنحوتب الثالث فى فترة جديدة من حياتها فقد كان حاكمها الجديد غير ميال إلى الحرب بطبيعته ، وكانت الأمور قد استتبت فى آسيا ، ولم يعد هناك من تحدثه نفسه بالخروج على حكم مصر أو منازعتها . وكانت خزائن فرعون تفيض بأكداس الذهب والفضة ، وجميع ما فى العالم من ثروة وفن، يأتون به إليه هدية أو جزية من جميع أنحاء ملكه . وكان الملك الشاب ميالاً إلى الفن وميالاً إلى المتعة والجمال ، فطبع البلاد بطابعه وأخذت مصر تبنى المعابد الفخمة الجميلة والقصور الباذخة وأخذ بنوها يميلون للترف والتمتع بما فى دنياهم من رفاهية وملاذ، ولم يقصر المعماريون المصريون أو رجال الفن وأصحاب الحرف عن السير فى ركاب الاتجاه الجديد ، فإذا بنا نرى تغيراً فى شتى النواحى ، وبدأت الفنون تحتل المكانة الأولى ، وبدأت مصر تتجمل وتبنى ثمار جهادها الطويل الشاق .

ويكفى أن يقف الزائر فى معبد الأقصر ويمتع ناظريه بجمال نقوشه ، ويتأمل نسب أبهائه وأعمدته ليحس بأن فن العمارة خطا خطوات واسعة كبيرة ، فإذا ذهبنا إلى البر الغربى وزرنا مقابر الأشخاص الذين عاشوا فى أيامه مثل « رع – موسى » (راموزه) و « خرو – إف » و « خع ام حات » و « سررو » وغيرها أو تأملنا بقايا معبده الجنازى خلف تمثالى ممنون اللذين يمثلانه . أو قرأنا ما ذكره هذا الملك على لوحته الشهيرة التى يصف فيها ذلك المعبد فإننا نحس بأنفسنا وقد إنتقلنا إلى ماض بعيد ، كله عظمة وثروة وجمال ، ومن ذا الذى يملك نفسه من الإعجاب عندما يقرأ فى وصف المعبد :

« كان لا يسر قلب جلالته شيء مثل إقامة المبانى العظيمة التى لم يبن مثلها منذ خلق العالم . وقد أقام جلالته لأبيه أمون معبداً فخماً فى الجهة الغربية من طيبة فجعل منه حصناً خالداً . بناه بأجود أنواع الحجر الجيرى من كتل ذات حجم كبير ، وزين جميع أجزائه بالذهب وحلى أرضيته بالفضة وكانت أبوابه مغطاة بصفائح من الذهب . لقد زاد جلالته من حجمه وأكثر من أبهائه وأتمه ليبقى إلى الأبد ، ووضع فيه الكثير من التماثيل الملكية من جرانيت أسوان ، ومن الحجر الرملى الصلد ومن جميع أنواع الأحجار الجيدة ، وكانت صناعتها تامة وستبقى إلى الأبد . وكانت أحجامها الكبيرة تضيء الوجود أكثر من السماء ، وكان إنعكاس أشعتها فى وجوه الناس مثل الشمس عندما تضيء فى مطلع النهار ».

ولم يكن أمون وغيره من الآلهة هم وحدهم الذين استفادوا من حب هذا الملك للبناء ، فإنه لم يترك وسيلة دون إرضاء ذوقه الفنى وذوق زوجته فبنى لها قصراً على الضفة الغربية من النيل على مقربة من معبده الجنازى، جعل منه ومن أبهائه معرضاً للذوق الفنى الرفيع ، وكان يقضى فيه أوقات سروره هو والمقربون من أصدقائه ورجال حاشيته وجواريه . وكانت زوجته ، تى ، تحب النزهة وأرادت أن يكون لها بحيرة على مقربة من القصر فتم لها ما أرادت بعد أسبوعين فقط وكانت تخرج فى زورقها هى والملك وبعض الوصيفات ليتمتعوا جميعاً بالهواء الطلق.

وكان أمنحوتب فى صدر شبابه قد أظهر بعض الرغبة فى ممارسة الصيد ، ونعرف من آثاره أنه خرج أكثر من مرة لصيد البقر الوحشى وغيره ، بل أنه أغرم فى وقت من الأوقات بصيد الأسود . ولكن هذا الحب للرياضة والفروسية لم يكن أصيلاً فيه بل كان نزوة شباب عارضة ، أو تقليداً من تقاليد البلاط ، وسرعان ما سئم الملك هذا النوع من النشاط وترك نفسه على سجيتها يستمتع بالحياة الباذخة بين قصوره وزوجاته والمئات من جواريه . ولم يفكر مرة واحدة فى زيارة أجزاء ملكه الواسعة ويعطى سكان آسيا فرصة واحدة لرؤية فرعون واقفاً فى عربته الحربية المصفحة بالذهب وخلفه جحافل جنوده ، بل ترك كل هذا وراءه ولم يعطه من عنايته أكثر من الإبقاء على صلات المودة بينه وبين الأمراء الأسيويين بقبول هداياهم والرد على تحياتهم .

والناس على دين ملوكهم . فلم تلبث الحياة الاجتماعية فى مصر كلها أن اتجهت نحو الدعة والاستمتاع بالحياة ، وكانت أسيرات الحرب خير معوان على ذلك، فلم تقتصر حفلات الطرب والرقص على القصور أو منازل كبار الموظفين بل شمل ذلك جميع الطبقات . ونشأت فى طيبة مشارب الجعة وفيها المغنيات والراقصات المحترفات ، وكان يرتادها العمال وغيرهم من طبقات الشعب ، ولا نستغرب بعد ذلك أن يعم خطر هذه المشارب فنقرأ فى بردية من البرديات تحذير مدرس لتلميذه من إرتيادها واصفاً له ما يجرى فيها من أعمال تنافى الخلق الكريم .

ركن أمنحوتب الثالث إلى حياة الإستمتاع بين زوجاته وجواريه ، وطلب من ملك ميتانى وكان إسمه ، سوتارنا ، Soutarna ، وهو إبن خال أمنحوتب أن يزوجه إحدى بناته فأرسل إليه الأميرة ، كيلو جيبا Kilougepa ، لتأييد المودة بين

البلدين[١]. وكأن هذا أصبح تقليداً جديداً إذ بعد أن مات سوتارنا تولى الملك بعده إبنه « توسراتا Tousratta » فأرسل إليه أميرة صغيرة السن وهى « تادوجيپا Tadoughepa » فى الوقت الذى كان فيه أمنحوتب مريضاً متهدماً طاعناً فى السن .

ولم تقتصر مصاهراته على بنات مصر وبنات ميتانى بل تزوج من أميرات بابليات وأشوريات ، وكان يرسل إليه حكام المدن السورية كل عام عشرات من الفتيات الجميلات اللاتى كن يرسلن إليه مع الجزية وكان يلح فى طلبهن ، وهكذا انقلبت حياة هذا الملك إلى حفلات يقيمها فى قصره ، وأغرق نفسه إغراقاً فى نوع من الحياة لم يعرفها أحد ممن سبقوه .

## أمنحوتپ الثالث بين الدين والسياسة :

لسنا نعرف ما الذى حدث تماماً بين تحوتمس الرابع وبين كهنة أمون حتى بدأ ينظر إليهم بشىء من القلق ، وأراد حفظ التوازن بتشجيع كهنة رع وعبادة رع فكان عصره بداية الحركة التى آتت ثمارها فيما بعد . ولم يقتصر التجديد فى عهد تحوتمس الرابع على إحياء عبادة الشمس والتجديد فيها ، بل مشى إلى جانبها نوع آخر من التجديد فى الفن ، وبدأنا نحس فى فن الأسرة الثامنة عشرة باتجاهات لم يكن لنا بها عهد من قبل ، وهى إتجاهات تعطى للفنان الحرية فى التعبير عما يحسه وإبراز عبقريته الشخصية بدلاً من إتباع أساليب معروفة لا يحيد عنها .

وجاء إبنه أمنحوتب الثالث فلم يرجع عن السياستين ، بل نعلم أكثر من ذلك بأنه جعل من أكبر أبنائه وولى عهده الأمير « تحوتمس » كبيراً لكهنة پتاح [١] وكانت إقامته فى منف . وأخذت الاتجاهات الفنية التى بدأت فى الظهور فى عهد تحوتمس تتقدم وتظهر أكثر وضوحاً ، وبدأنا نرى حياة ملوك الفراعنة تمثل كحياة سائر البشر وأصبح للفنان حرية رسم الملك كما كان يراه ، وليس كما يجب أن يكون .

كان هذا التطور فى الأفكار الدينية والاتجاهات الفنية متمشياً مع تغير الحياة الإجتماعية فى مصر ، ولا يخالجنا الشك فى أن مثل هذه التغيرات فى حياة الشعب لم ترض المتزمتين من رجال الدين ومن المحافظين ، أو أبناء العائلات القديمة ، بينما وجدت قبولاً وتشجيعاً من الطبقات الأخرى – وبخاصة بين الموظفين والصناع – تلك الطبقات التى بدأت تغير حياتها وتحتل مركزاً إجتماعياً لم يكن لها من قبل . وليس

هناك من شك أيضاً فى أن حياة أمنحوتب الثالث لم يرض عنها الكثيرون من أهل عصره ، وبالرغم مما بناه من معابد باسم أمون رع فإن كهنة أمون رع لم ينظروا بعين الرضى إلى إحياء عبادة الشمس ولم ينظروا أيضاً بعين الرضا إلى تحلل الحياة الاجتماعية تقليداً لفرعون الذى استخف بكل التقاليد . كما أصبح للكثيرين من غير المصريين أو الذين لم يكونوا من دم مصرى خالص رأى مسموع فى البلاد الذى إبتعد عنه بعض أبناء كبار الموظفين القدماء فكان ذلك أيضاً سبباً من أسباب الجفاء .

أما فى السياسة فلم تكن الحالة خالية من الشوائب ، فقد أصبح اعتماد أمنحوتب الثالث فى حكم إمبراطوريته على صلته بملوك هذه البلاد . وكان يعتقد أن تبادل رسائل المودة بينه وبينهم كان لحفظ الإمبراطورية ، أو أن زواجه من بنات الملوك أو الأمراء كفيل بجعل هذه الدول والمدن راضية بالحكم المصرى إلى الأبد . وفات أمنحوتب والذين كانوا حوله من مستشارين أو ناصحين أ ن سياسة السلم وتبادل رسائل المودة والهدايا لم تكن إلا معبرة ، سواء بالحق أو بالباطل ، عن شعور الحكام فقط ، أما شعور الشعوب نفسها أو شعور الدول الأخرى المعادية فهذا أمر لم يحسبوا له حساباً ، بينما كان فى الحقيقة عاملاً هاماً فى سير الحوادث . لقد قضى أمنحوتب الثالث ستة وثلاثين عاماً على العرش ، لم يرسل خلالها إلى آسيا حملة واحدة فنسى أكثر الناس جيش فرعون وقوته ، وبدأوا يحكمون على مصر بما كان يقترفه حكامها أو جنودها وموظفوها فى تلك البلاد من خير أو شر أو ما يسمعونه من أخبار ممن كانوا يعودون من مصر .

وكان أمنحوتب الثالث فى أواخر أيامه شخصاً مهدماً محطم الصحة بالرغم من أنه كان دون الخمسين، لأنه أفرط فى ملذاته ، وكانت السلطة مركزة فى يدى زوجته « تى » والقليل من الموظفين الذين كانوا طوع إرادتها . ورأى هذا الملك بعد وفاة إبنه تحوتمس أن يشرك معه فى حكم البلاد إبنه الثانى منحوتب الرابع الذى كان قد تزوج من أميرة تسمى « نفرتيتى » . وبدأ أمنحوتب يحكم فى عهد أبيه ، وأقام فى طيبة مقر عبادة الإله أمون رع والعاصمة الأولى للبلاد . ولا شك فى أن نفرتيتى أميرة مصرية ، وأكبر الظن أنها إبنة لأمنحوتب الرابع ولم تكن من أصل ميتانى أو من أى شعب من شعوب آسيا كما أراد أن يذهب إلى ذلك بعض المشتغلين بالتاريخ المصرى فى وقت من الأوقات .

كان كل شىء فى مصر فى حاجة إلى الإصلاح بل إلى التغيير ، وكان العرش فى حاجة ملحة إلى ملك نشيط محارب مثل تحوتمس الثالث أو على الأقل مثل

تحوتمس الرابع ليحاول عمل شيء لتدعيم البناء الذى بدأ يتصدع ، ولكن أمنحوتب الرابع كان شاباً حالماً ذا إحساس دينى عميق ونفس شاعرة ، فلم يكن الرجل الذى يستطيع مواجهة الموقف الذى كانت فيه البلاد ، ولهذا لم يكن بد من حدوث الصدام ولم يكن بد من أن تسير الأمور من سيء إلى أسوأ ،

## أمنحوتب الرابع : ( ١٣٧٠ - ١٣٤٩ )

تولى أمنحوتب الرابع الملك شريكاً لأبيه وأقام معه فى طيبة ولكن منذ أن أصبح له شيء من الزمر بدأ يفكر فى الدعوة إلى عبادة الشمس ، وإختار أحد مظاهرها وهو « أتون » الذى عبر به عن القوة الكامنة فى قرص الشمس إلهاً له وأقام له معبداً على مقربة من معبد الكرنك .

وتدل جميع الشواهد على أن أمنحوتب الرابع لم يشتط فى أول دعوته ولم يبادىء كهنة أمون بالعدوان ، بل أن كل ما فعله هو دعوته إلى عبادة أتون وجعل منه إلهه المفضل ، وتبعه دون شك بعض رجال البلاد وكثير من عامة الناس ، وبدأ كهنة أمون يحسون بالخطر الجديد الذى أخذ يهددهم فبدأوا يخلقون المصاعب أمام الملك الجديد .

وإذا درسنا آثار هذه الفترة نرى أن أمنحوتب الرابع قد احترم فى بداية حكمه جميع الآلهة ، وبخاصة ما كان منها متصلاً بعبادة الشمس مثل رع وحورختى وغيرهما . وإذا كان قد نادى بعبادة أتون فإن أتون لم يكن إلهاً أجنبياً عن مصر فإن إسمه معروف منذ الدولة القديمة وورد فى نصوص الأهرام ، أى قبل أن يولد أمنحوتب الرابع بألف عام ، كما أن إحياء عبادة الشمس وشكل قرص الشمس وهو يمد شعاعه بالحياة كانا أمرين معروفين فى أيام تحوتمس الرابع ، إذ نعرف أنه فى عهد هذا الملك بالذات بدأ الفن المصرى يتحرر من كثير من قيوده القديمة ، ويتجه نحو أساليب واقعية تمثل الحياة كما هى ، وتظهر ما فى الطبيعة من جمال ، فكانت أكثر زخارف القصور بل وأدوات الزينة والأثاث ، تميل إلى الإعتماد على رسم الزهور ومختلف النباتات والحيوان والطيور والأسماك .

واستمر تطور الفن فى عهد أمنحوتب الثالث ونشأت فى أيامه المدرسة الفنية التى مهدت لظهور مدرسة العمارنة فيما بعد .

ولم يمض زمن طويل على أمنحوتب الرابع فى طيبة حتى بدأ يشتد تعصبه لدينه الجديد ووقف فى وجه كهنة أمون وغير إسمه من أمنحوتب الرابع إلى إسم جديد لتأكيد صلته بمعبودة فاختار إسم « أخ – إن – أتون ( إخناتون ) » ، وترجمتها « المفيد

لأتون » ، وانقسم الناس وبدأت المتاعب أمامه واضحة، وربما كان أمنحوتب الثالث والده غير راض عن هذه الحركة الجيدة التى زادت من متاعبه ، وخصوصاً وأن ملك مصر فى آسيا بدأ ينهار وخسرت مصر جزءاً كبيراً من ولايات سورية المالية وانفض عنها كثير من خلفائها ، وإنقطع ما كان يأتى من جزية من بعض تلك البلاد.

كان أمنحوتب الثالث فى ذلك العهد شخصاً محطماً جنت عليه حياة البذخ والإفراط فى الملذات كما سبق القول . ومن كان فى مثل هذه الحالة وفى مثل هذا السن لا يمكن أن يرضى عن إنقسام أو عن حرب أهلية وعلى الأخص إذا تناول ذلك إلهه أمون الذى تفتحت عيناه على عبادته وقضى حياته يقيم له المعابد ، ليس فى طيبة فقط بل فى جميع البلاد سواء فى الشمال ، وبخاصة فى منف ، أو فى النوبة أو فى السودان . وربما كان عدم رضا الأب وزوجته تى عن عمل إبنهما من بين الأسباب التى دعته إلى ترك طيبة فاختار مكاناً بين طيبة ومنف ، فى محافظة أسيوط ، وجعل منه عاصمة جديدة للبلاد .

كان ذلك فى السنة الرابعة من حكمه ، فذهب إلى هذه المدينة الجديدة التى سماها « أخت أتون » أى « مشرق أتون » ووضع لوحات حدودها على جانبى النيل فى سفح الهضبتين الشرقية والغربية ، وبنى معبده وقصوره ومدينته الجديدة فى الناحية الشرقية من النيل ومكانها الآن على مقربة من قرية تل العمارنة .

وإستمر العمل فى إنشاء المدينة الجديدة عامين كاملين ، إنتقل بعدهما « إخناتون » ومعه عائلته ورجال قصره ومن تبعه من خاصته إلى تلك العاصمة الجديدة فاستقر هناك ، وأقسم يميناً سجلها على اللوحات التى أقامها بأنه لن يغادر حدودها طالما كان حياً ، وفى هذه الجملة بالذات ما يجعلنا نحس بالمرارة التى كان يعانيها من كهنة أمون ، ومن المحافظين من رجال الدولة الذين لم تعجبهم هذه الحركة الجديدة . لم يترك إخناتون طيبة إلا بعد أن أعلنها حرباً لا هوادة فيها على أمون وعلى غيره من الآلهة ، ومن بينها أوزيريس ، وكان إسم أمون بالذات موضع حقده فأمر بمحوه أينما كان حتى ولو كان فى إسمه أو إسم أبيه . وانصرف إخناتون بعد ذلك إلى عبادة إلهه فى « أخت أتون » صاماً أذنيه عن سماع أى شىء تاركاً الحبل على الغارب ، وغير مهتم بما كان يجرى فى داخل مصر أو خارجها .

وفى مثل هذه الظروف كان من الضرورى أن يحدث تغير فى إدارة البلاد . فأقصى إخناتون من لم يتبعه فى دينه الجديد ، وقرب الذين إستطاعوا الحصول على

ثقته بما كانوا يبدونه من حماس صادق أو مصطنع ، فأصبحت وظائف الدولة أو أكثرها فى أيدى فئة حديثة العهد بفن الحكم فى وقت كانت البلاد فى أشد الحاجة إلى خبرة الموظفين الأكفاء ، خصوصاً وأن الحالة فى آسيا إزدادت سوءاً على سوء وأصبحت مملكة خيتا تغير على أطراف سورية وتضمها ولاية بعد أخرى إلى ممتلكاتها ، كما أخذت مدن عديدة فى فينيقيا وفلسطين تستقل بأمورها أو تغير إحداها على الأخرى . وزاد الطين بلة أن جماعات من بدو الصحراء أخذت بدورها تحدث إضطراباً فى الأمن وهذه القبائل المعروفة بإسم الـ خابيرو ، وأخذ أمراء بعض تلك المدن يستخدمونها عند حروبهم مع منافسيهم .

لم يترك الحكام المصريون أو الأمراء أو الزعماء الأسيويون المخلصون لمصر وسيلة من الوسائل إلا إلتجأوا إليها . فأرسلوا الكتب وأرسلوا الرسل إلى طيبة ، وإلى إخناتون . كان إخناتون لا يهتم بهم فالتجأوا إلى الملكة ، تى ، فى طيبة فأخذت بدورها تنبه إبنها . وإزدادت النصيحة وإزداد التحذير حتى أصبح ذلك فى أذنى إخناتون ضجيجاً فصم أذنيه عامداً ورفض أن يفعل شيئاً غير عبادة إلهه أتون ، ووضع الأناشيد فى مدحه والذهاب إلى المعبد ومكافأة المنافقين من مادحيه .

وبدأت المؤامرات على حياة الملك ، وكاد المتآمرون مرة من المرات أن يصلوا إلى غرضهم لولا يقظة رئيس حراسه الذى أسرع للقبض عليهم عندما علا صراخ الحراس (١) . وخشى إخناتون على حياته فانزوى فى قصره وقرب إليه المتملقين المداهنين ، وعلى الأخص شخص غير مصرى الأصل إسمه ، توتو ، دخل فى خدمته خادماً فى القصر ولم يلبث أن صار صاحب الأمر والنهى فيه . وكثيراً ما ورد إسمه في رسائل الأمراء الأسيويين الذين كانوا يستعينون بنفوذ هذا الشخص للوصول إلى مآربهم ، وإخفاء حقيقة الحالة عن الملك (٢) .

ولنترك الآن إخناتون ورجاله ، ونترك إمبراطورية مصر تتفكك وتنهار ولنتحدث قليلاً عن ديانة إخناتون .

## ديانة أتون :

إن مصادرنا الرئيسية لدراسة الحركة الدينية التى قام بها إخناتون هى ما خلفه لنا على لوحات الحدود التى أقامها لتحديد مدينته الجديدة ، وما بقى على جدران مقابر تل العمارنة وما وصل إلينا من بقايا معابده فى الكرنك وغيرها من البلاد ؛ لأن إخناتون أقام إلى جانب أهم المعابد فى البلاد معابد أو هياكل للإله أتون لكى يتعبد فيها الناس .

وبالرغم أن إخناتون فشل فى حركته وبالغ أعداؤه ، وفى مقدمتهم كهنة أمون ، فى القضاء على آثاره ، وعلى ذكراه ، وإعتبروه ملحداً خارجاً على الدين ، وأسقطوا إسمه وإسم عائلته من أثبات أسماء الملوك فإن ما وصل إلى يد العلماء وبخاصة بعد حفائر البعثتين الألمانية والإنجليزية فى تل العمارنة كاف لإعطائنا صورة عن هذه الحركة الدينية وما فيها من آراء .

وقد كتب كثير من الباحثين فى هذا الموضوع لعلاقته الوثيقة بموضوع هام وهو نشأة التوحيد ، ونظر كل باحث إليه من زاوية مختلفة فجاءت آراؤهم متباينة . ولسنا هنا فى معرض تحليل هذه الديانة أو إعطاء تلخيص للآراء المتباينة فيها بل يكفى أن نذكر النقط الآتية للإجابة بأهم مبادئها :

أولاً – كانت « ماعت » ( ويمكن ترجمة معناها « الحقيقة » أو « العدل » أو « الأصول » بمعناها المتعارف عليه أى القواعد التى يجب أن تتبع ) هى الأساس الذى إرتكزت عليه ديانة أتون . فقد طلبت من الناس أن يجعلوها نصب أعينهم وأن يسموا الأشياء بأسمائهم ولا يلتجئوا إلى النفاق والمداهنة . وكان أثر هذا المبدأ كبيراً على الفن فتحرر الفنانون من القواعد القديمة ، وأخذوا يرسمون الملك وزوجته وأولاده فى مواقف لم يحلم برؤيتها أحد من قبل ، نراها مرسومة على جدران المعابد أو المقابر مثل مداعبة فرعون لزوجته أمام الناس فى الطريق أو تقبيل أولاده ، أو تصويره وهو يأكل بشراهة على إحدى موائد الطعام .

**ثانياً**– كره إخناتون تصوير إلهه على صورة من الصور سواء أكانت إنسانية أو حيوانية، وجعله فقط قرص الشمس الذى تعطى أشعته الحياة للناس أجمعين .

**ثالثاً**– كان أتون هو الإله الواحد الذى لا شريك له ولكن مثل هذا التعبير كان يطلق على عدد غير قليل من الآلهة ومنها أمون ، ولهذا لم يكن جديداً على الديانة المصرية ، ولكن الجديد هو تحريم عبادة آلهة أخرى فى الوقت نفسه .

**رابعـــاً** – ومن أهم النقط فى هذه الديانة أن « إخناتون » كان هو وحده إبن أتون، وهو الذى كان مكلفاً بعبادته ، أما الناس فكانوا يعرفون أتون بعبادتهم لإبنه ورسوله إخناتون ، وهذه النقطة بالذات هى التى وقفت حائلاً بين الناس وبين الإستمرار فى هذه الديانة بعد موت إخناتون .

**خامساً** – لم تكن ديانة أتون لمصر وحدها بل كانت للعالم كله ، فبسبب هذا الإله عاشت الأسماك فى البحار والوحوش فى الأدغال والزواحف فى أحجارها والنبات فى الحقول . وبالرغم من أننا نعرف الكثير عن العبادات فى هذا الدين فإنه يلوح أنه لم يتعرض للمعاملات بين الناس ولم يدخل عليها أى تعديل .

**سادساً** – لم يكن هناك معنى لبناء معابد مغلقة ذات حجرات وأبهاء تنتهى بهيكل قليل الضوء ، وإنما كان المعبد مكوناً من بهو كبير يتوسطه مذبح ليتمكن كل شخص من الاستمتاع بضوء الشمس والتطلع إليها . ولكن هذا لم يمنع إخناتون من إتقائه لحرارة الشمس ، إذ نراه فى منظر من المناظر يسير تحت مظلة لإتقاء وطأتها .

**سابعاً** – كان إخناتون هو الرسول والوساطة بين أتون والناس ، ولكن لم يمنع ذلك وجود كهنة لأتون سواء فى العمارنة أو فى البلاد الأخرى التى نشأت فيها معابد لهذا الإله .

**ثامناً** – إذا دققنا فى فحص ديانة أتون لوجدنا أنها أول محاولة للإتجاه نحو التوحيد ونحو التخلص من عبادة آلهة متعددة فى وقت واحد . ولكنها لم تصل إلى الكمال الذى وصلت إليه الديانات السماوية فيما بعد .

**تاسعاً** – ليس هناك شك فى أن أناشيد إخناتون لإلهه كانت ذات أثر مباشر على المزامير ، وأن المزمور ١٠٤ يكاد يكون منقولاً عن النشيد الكبير وليس من قبيل توارد الخواطر . أما كيفية وصول هذا النشيد إلى العبرانيين ، فمن المحتمل أن يكون قد حفظ فى آسيا وبقى فى آدابها تتناقله الأجيال حتى جاء الوقت الذى بدأ فيه العبرانيون بكتابة التوراة فى القرن الثامن قبل الميلاد .

**عاشراً** – لم يتخذ أتون زوجة له ، ولم يكن للنساء شأن به أو حتى فى كهنوته . وبالرغم من أننا نعرف أن نفرتيتى كانت القوة الكامنة وراء الحركة كلها

فإن اسمـــها لم يقرن بأى وظيـــفة فى معبد أتون ولم يكن لها بهذا الدين أى شـــأن خاص .

وخير ما نفعله الآن هو تقديم ترجمة حرفية للنشيد كـــما جاء فـى إحدى مقابر العمارنة (١) .

## نشيد إخناتون

أنت تطلع ببهاء فى أفق السماء ،

يا أتون الحى ، ( يا ) بداية الحياة .

عندما تبزغ فى الأفق الشرقى ،

تملأ كل البلاد بجمالك ،

أنت جميل ، عظيم ، متلألىء ، وعال فوق كل بلد.

وتحيط أشعتك بالأراضى كلها التى خلقتها،

لأنك أنت ، رع ، وتصل إلى نهايتها ،

وتخضعها لابنك المحبوب .

وبالرغم من أنك بعيد فإن أشعتك على الأرض ،

وبالرغم من أنك أمام أعينهم فلا يعرف أحد خطوات سيرك .

*******

وعندما تغرب فى الأفق الغربى ،

تصبح الأرض سوداء كما لو كان حل بها الموت .

ينام ( الناس ) فى حجرة وقد لفوا رؤوسهم ،

فلا ترى عين عينا أخرى ،

ويمكن أن تسرق أمتعتهم التى يضعونها تحت رؤوسهم ،

فلا يدركون ذلك .

ويخرج كل أسد من عرينه .

وجميع الزواحف ( تخرج ) لتلدغ ،

ويلف الظلام كل شىء ويعم الأرض السكون ،

لأن الذى خلقهم يرتاح فى أفقه .

وعندما يصبح الصباح ، وتطلع أنت من الأفق ،

وعندما تضىء كأتون أثناء النهار ،

تطرد الظلمة وتمنح أشعتك .
فالأرضان فى عيد كل يوم .
ويستيقظ ( الناس ) ويقفون على الأقدام ،
لأنك أنت الذى أيقظتهم .

*******

يغلسون أجسامهم ويلبسون ملابسهم ،
ويرفعون أذرعهم إبتهالا عند ظهورك ،
والناس جميعا يؤدون أعمالهم .
وتقنع كل الحيوانات بمراعيها ،
وتزدهر الأشجار والنباتات .
والطيور التى تطير من أعشاشها ،
( تمد ) أجنحتها لتمدح قوتك ،
وتقف الحيوانات على أرجلها ،
وكل ما يطير أو يحط ،
إنهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم .
وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب ،
لأن الطرق كلها مفتوحة عندما تظهر ،
وتمرق الأسماك فى النهر أمامك ،
لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط .

*******

أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء ،
إنك أنت الذى يجعل من البذرة السائلة إنسانا .
إنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه ،
وأنت الذى يهدئه بما يوقف بكاءه ،

لأنك تعنى به وهو فى الرحم .
أنت الذى يعطى النفس ليحفظ حياة كل من يخلقهم ،
عندما ينزل (الطفل) من بطن أمه ليتنفس ،
فى اليوم الذى يولد فيه ،
تفتح فمه ، وتمده بكل ما يحتاج إليه .
وعندما يصرخ (الكتكوت) وهو داخل البيضة .
فأنت الذى يمده بالنفس فى داخلها ليعيش ،
وعندما تتم خلقه داخل البيضة ، تجعله يكسرها ،
ويخرج من البيضة وهو يصوصو إذا ما حان موعده ،
ويمشى على رجليه عندما يخرج منها .

*******

ما أعظم (أعمالك) التى عملتها !
إنها خافية على الناس .
أيها الإله الأوجد الذى لا شبيه له !
لقد خلقت الدنيا كما شئت ،
عندما كنت وحدك ،
الناس والماشية والوحوش الضارية
وكل ما على الأرض يسعى على قدميه .
وكل ما يرتفع ( فى السماء ) يطير بجناحيه .

*******

فى بلاد سورية والنوبة وأرض مصر ،
تضع كل شىء فى مكانه .
إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه
ويحصل كل شخص على طعامه ، وسنوات حياته مقدرة له .

يختلف الناس فى لغاتهم ،
كما يختلفون أيضاً فى طبائعهم ،
ويمتاز لون جلودهم عن بعضهم البعض ،
لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية .
أنت الذى خلقت نيلا فى ذلك العالم الآخر ،
وأنت الذى يأتى به عندما يشاء ، لتبقى على الناس ،
وذلك لأنك أنت الذى خلقتهم لأجل نفسك ،
وأنت سيدهم جميعاً ، ( سيدهم ) الذى يشغل نفسه من أجلهم ،
سيد كل أرض ، الذى يشرق لأجلهم ،
أنت أتون ( شمس ) النهار ، عظيم البهاء .

*******

أنت الذى يعطى الحياة ( أيضاً ) لكل البلاد الأجنبية البعيدة .
لأنك خلقت نيلا فى السماء ،
لينزل لأجلهم ويحدث أمواجا فوق الجبال ،
مثل ( أمواج ) البحر ،
لتروى حقولهم التى فى قراهم ،
ما أجمل أعمالك يا رب الأبدية !
فالنيل الذى فى السماء ( خلقته ) للأجانب
ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام ،
أما النيل ( الحقيقى ) فإنه ينبع من العالم الآخر لأجل مصر .

*******

تغذى أشعتك كل مرج ،
وعندما تشرق ، تحيا وتنمو لأجلك ،
وجعلت فصول السنة لتغذى كل ما خلقت .

فالشتاء يبرد أجسامهم .
والحراة تجعلهم يحسون بك .
لقد خلقت السماء البعيدة لتشرق منها ،
وحتى ترى كل ما صنعت .
وذلك عندما كنت وحيدا .
تشرق فى صورتك كأتون الحى .
لامعا ، مضيئا ، فى جيئتك ورواحك .
جعلت ملايين الصور من نفسك وحدها ،
( وسواء أكانت ) مدنا أو بلادا أو حقولا ، طريقا أو نهرا ،
فإن كل عين تراك فوقها مشرقا ،
لأنك أتون ( شمس ) النهار على الأرض .

*******

أنت فى قلبى ،
وليس هناك من يعرفك
غير إبنك ، نفر – خپرو – رع ، واع – إن – رع ،
لأنك أنت الذى خلقته عالما بمقاصدك و ( مدركا ) لقوتك
أنت الذى صنعت الدنيا بيديك ،
وخلقت ( الناس ) كما شئت أن تصورهم .
فهم يحيون عندما تشرق ،
ويموتون عندما تغرب ،
إنك أنت الحياة بعينها .
ويعيش الإنسان ( فقط ) إذا أردت .
تتعلق العيون بالجمال حتى تغيب ،
ويترك الناس أعمالهم عندما تغرب فى الغرب .

ولكن عندما ( تشرق ) ثانية

يزدهر كل شيء لأجل الملك ...

لأنك أنت الذى خلقت الأرض ،

وأنت الذى خلقتهم ( أى الناس ) لأجل إبنك .

الذى ولد من صلبك ،

ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ، ... إخناتون .

وزوجة الملك العظيمة ... نفرتيتى

عاشت ممتعة بالشباب ، دائما وإلى الأبد .

*******

**عائلة إخناتون :**

عندما جاء إخناتون إلى تل العمارنة كانت له إبنة واحدة فقط وهى ، مريت – آتون ، ، ولكن بعد عامين إثنين أصبحنا نرى عائلته مكونة منه ومن زوجته ومن بنات ثلاث وهن ، مريت آتون ، وثانية إسمها ، ماكت آتون ، وثالثة وهى ، عنخس إن با آتون ، . وتوالت بعد ذلك بنات أخريات حتى بلغ عددهن ستا دون أن يولد له ولد واحد . وليس يعنينا من بناته غير إثنتين الأولى وهى ، مريت – آتون ، والثالثة ، عنخس إن با آتون ، أما الثانية فقد ماتت صغيرة فى حياة أبويها .

كانت حياة إخناتون ونفرتيتى هادئة بين أطفالهما منذ حضورهما إلى العمارنة فى العام السادس من حكمه حتى العام الثانى عشر ، لا ينغض حياتهما منغض؛ لأن إخناتون إنصرف عن الدنيا كلها ليتعبد لإلهه ويفسر تعاليمه محيطاً نفسه بأتباع مخلصين يشاركونه عقيدته أو بأتباع منافقين يريدون الإنتفاع من ورائه .

وظل أبوه أمنحوتب الثالث فى طيبة ومات فيها [١] أما أمه الملكة ، تيى ، فلم تذهب بعد موت زوجها إلى العمارنة وظلت فى طيبة . ولكن فى العام الثانى عشر كانت الأمور قد وصلت إلى نهايتها من التحرج ، فرأت ، تيى ، نفسها مضطرة لإتخاذ خطوة حاسمة لإصلاح المعوج من الأمور . فسافرت إلى ، أخت آتون ، وقضت فيها

وقتاً غير قصير ، كانت فيه ضيفة عزيزة على إبنها ولم تجد أي غضاضه فى الذهاب إلى معبد آتون وتقديم القرابين له ، كما كانت راضية عن الحياة فى المدينة الجديدة ، ولم تمانع فى صنع تماثيل لها أثناء وجودها هناك .

ولكن هذا الرضا وهذا الإحتفاء بآتون كانت وراءه أغراض أخرى لأنها توصلت بذلك للحصول على ثقة ابنها ، ثم أخذت رويدا رويدا تفهمه ما وراء إندفاعه من خطر عليه وعلى البلاد .

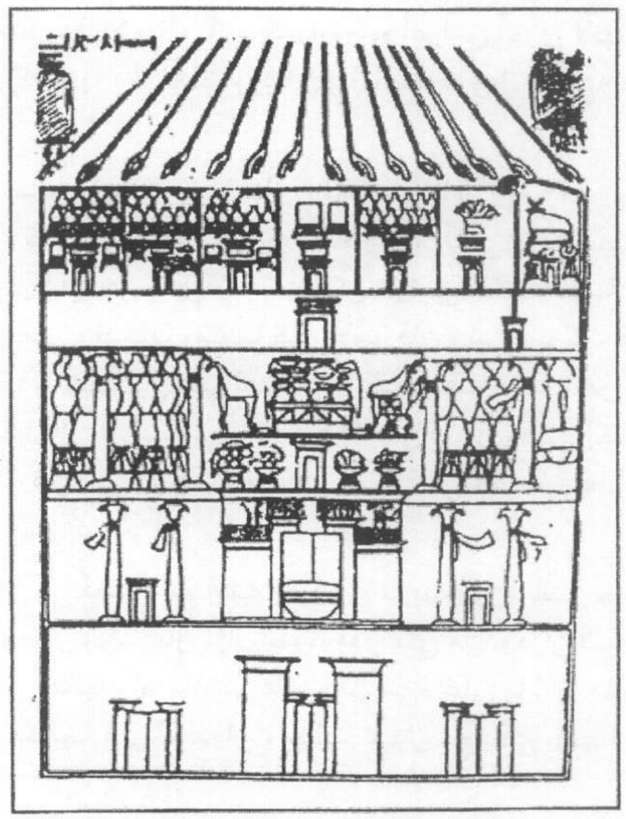
ولسنا نعرف تماماً ما حدث بين إخناتون وأمه ، وإنما الذى نعرفه أن زيارتها لمدنية ، أخت آتون ، كانت بداية الشقاق بين إخناتون ونفرتيتى ، إذ نجحت الأم أو كادت تنجح فى تحويل إبنها عن الدين الجديد ، ولكن نفرتيتى ظلت مخلصة لمبادئها وأنكرت على الملكة ، تيى ، تدخلها ومهما كان الأمر فإن ، تيى ، تركت العمارنة وخلفت وراءها صدعا لم تقو الأيام على إصلاحه ، فقد وصلت الفجوة بين إخناتون ونفرتيتى بعد ذلك بقليل إلى أن كلا منهما عاش بعيداً عن الآخر ، فبقى إخناتون فى القصر الملكى وعاشت نفرتيتى فى بيت جميل فى ضاحية فى جنوبـــى المدينة إسمه ، حات – آتون ، أى قصر آتون .

وعاش إخناتون فى قصره مع إبنته الكبرى ، مريت آتون ، التى جعل منها السيدة الأولى فى القصر ، وأمر بأن تزال أسماء نفرتيتى من جدران السراى وأن توضع أسماء إبنتها فى مكانها ، أما نفرتيتى فأبقت كل شيء على ما كان عليه وظلت أسماء زوجها فى مكانها على الجدران ، وظلت تعيش مع باقى بناتها فى تلك الضاحية .

ومن المرجح أنه كان لإخناتون أخوة صغار من أبيه أو أبناء إخوته ، ولا نعرف إن كانوا قد جاءوا مع ، تيى ، أو كانوا فى العمارنة من قبل زيارتها ويعنينا من هؤلاء الأمراء إثنان أحدهما إسمه ، سمنخ – كا – رع ، الذى كان عزيزاً على إخناتون ومقرباً منه فزوجه من إبنته ، مريت اتون ، وأشركه معه فى الملك ، أما الآخر فكان أصغر منه وكان إسمه ، توت – عنخ – آتون ، فأقام مع نفرتيتى .

كان تزويج ، سمنخ – كا – رع ، من ، مريت آتون ، وإعلانه شريكا فى الملك ضد رغبة نفرتيتى ، خصوصاً وأن ذلك كان تنفيذاً لسياسة خاصة وهى محاولة تقريب وجهات النظر بين إخناتون وكهنة أمون . ولسنا نعرف من الذى كان يدبر هذه المؤامرات كلها فإذا أردنا أن نحصر الظنون فإننا لا نجد فى هذه الفترة غير ثلاثة أشخاص وهم الملكة تى وقائد الجيش الذى ظهر على مسرح الحوادث بعد قليل وهو

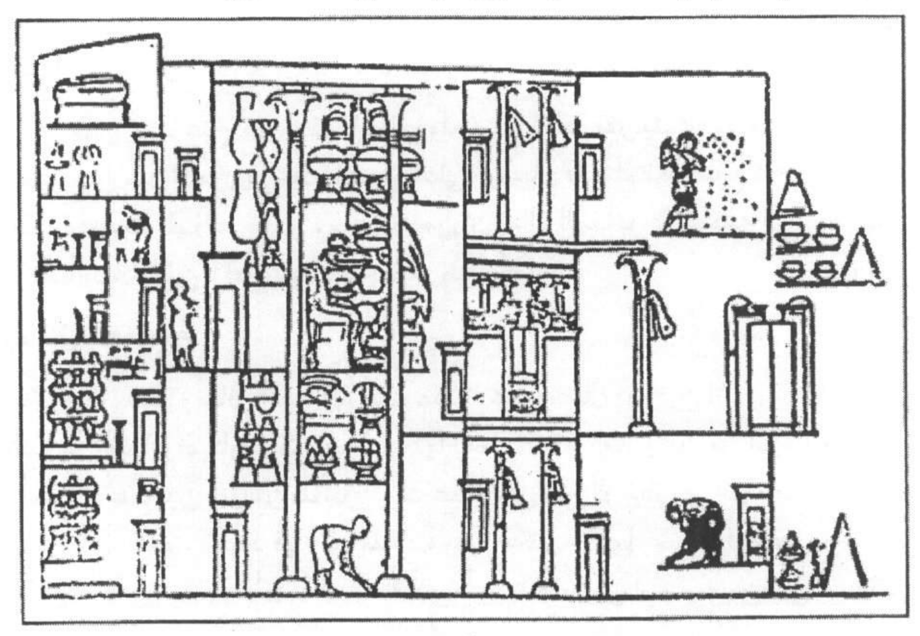
«حور محب » ، ورجل آخر بدأ حياته فى الجيش ثم أصبح من كبار رجال القصر وحصل على رتب كهنوتية كبيرة ، وكان السبب الأكبر فى تقربه من إخناتون وتقدمه فى البلاد راجعا إلى زوجته التى كانت مربية لنفرتيتى .



أحد قصور إخناتون فى تل العمارنة ، ونرى مدخله الكبير وأبهاءه واحداً بعد الآخر، وقد امتلأت الحجرات الداخلية بالمأكل وبأوانى الجعة .

وليس لدينا دليل قاطع على تدبير « تيى » لسفر سمنخ كارع إلى طيبة مع زوجته وربما كان الرجلان الآخران أو أحدهما ، هما اللذان أرادا ذلك . وعلى أى حال فإن رحلة « سمنخ – كا – رع » وإقامته الطويلة فى طيبة لم تغير من جوهر الأمر شيئاً فإن إخناتون ظل فى مدينته ولم يعلن سمنخ كارع أو يعلن إخناتون تراجعهما عن عبادة آتون ، ولكن بعد سنوات ثلاث أى فى العام التاسع عشر من حكم إخناتون تلاحقت حوادث غامضة . فمات سمنخ كارع وإختفى إسم زوجته ، وكان موته أو إغتياله فى طيبة ، فقد وجدت مومياؤه هناك فى القبر الذى كان قد أعد للملكة « تيى » فى وادى الملوك . وتلاه إخناتون بعد أقل من عامين ودفن فى قبره

فى العمارنة وتولى بعده ، توت عنخ آتون ، الذى كان قد تزوج – أو أعلن زواجه عند توليه العرش – من الإبنة الثالثة لإخناتون ، وظل فى ، أخت آتون ، .



القصر نفسه مرسوما بطريقة أخرى حسب المنظور المصرى .

ويلوح أن إخناتون حاول فى أواخر أيام حياته أن يكون له وريث بعد أن وصلته الأخبار السيئة من طيبة عن موت أو قتل سمنخ كارع وزوجتـــه ، فتزوج إبنتـه الثالثة ، عنخس إن با آتون ، التى لم يزد عـمـرها إذ ذاك عن إثنى عـشر عـامـا على الأكثـر ولكنها لم تلد له إبناً كما كان يريد بل ولدت إبنة سموها ، عنخس إن با آتون الصغرى، كما ثبت من نقش على حجر عثرت عليه البعثة الألمانية فى الأشمونيين (١) .

فلما لم يتحقق ظن إخناتون فى إنجاب وريث للعرش زوج هذه الأبنة من أمير صغيــر وهو توت عنخ آتون الذى كان لا يزيد عمره عن تسع سنوات ، وأعلنه خليفة له ، ولكن لم يطل به العمر كثيراً فمات إخناتون فى العام الحادى والعشرين من حكمه على الأرجح (٢) . ويريد بعض علماء الدراسات المصرية القديمة أن يلقى بعض الشك

فى أنه دفن فى القبر الذى أعده لنفسه فى أحد الوديان خلف مدينة العمارنة ، ولكن وجود صندوق الأحشاء فيها يجعلنا متأكدين من دفنه هناك إذ عثر منذ وقت طويل على أجزاء هذا الصندوق المصنوع من المرمر بين رديم تلك المقبرة وظل طويلاً فى المتحف المصرى حتى تم ترميمه منذ بضع سنوات .

كان توت عنخ آتون مقيماً قبل زواجه مع الملكة نفرتيتى ، ولهذا ربما كانت راضية عن سير الأمور فى هذه الفترة . على أى حال فإننا لم نعد نسمع شيئاً عن هذه الملكة ولم يعثر لها على قبر . وبالرغم من أن الملك الصغير بدأ حكمه فى العمارنة مخلصاً لديانة آتون ، إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً .

## رسائل العمارنة :

جاء ذكر رسائل العمارنة عند حديثنا على إهمال إخناتون لشئون ملكه وسد أذنيه عن سماع الشكاوى التى كان يرسلها بعض الحكام المصريين من آسيا ، وبعض الأمراء الأسيويين الموالين لمصر . وقد عثر على هذه الرسائل فى تل العمارنة فى المبنى التى كانت تحفظ فيه المراسلات وهى مكتوبة كلها على ألواح صغيرة من الطين المحروق باللغة الأكدية الدارجة كتب أغلبها كنعانيون أو مصريون يعرفون تلك اللغة .

عثرت عليها إحدى الفلاحات عند أخذ السياخ من تلك المنطقة فى عام ١٨٨٧ ، ومن ثم وجدت طريقها إلى تجار الآثار وتفرقت فى كثير من متاحف العالم . ومجموع المعروف منها ٣٣٧ رسالة (١) ، لقيت ما هى جديرة به إهتمام لأنها أهم المصادر التاريخية التى توضح لنا ما كانت عليه الحالة السياسية فى بلاد سورية – فلسطين وبابل وأشور وميتانى وخيتا فى أواخر أيام أمنحوتب الثالث وطيلة أيام إخناتون بل إن منها ما كان قد أرسل إلى سمنخ كارع خليفة إخناتون على العرش .

توضح لنا هذه الرساذل الصلة التى كانت بين مصر وتلك البلاد ، وتوضح لنا الكثير من أساليب المراسلات الدولية فى ذلك العهد ، وما كان يدور بين ولايات سورية وبين غيرها من تطاحن ومؤامرات .

كانت مملكة ميتانى فى شمالى العراق ، وكانت تربطها بمصر صلات من الود والمصاهرة ولكن مملكة خيتا ( فى الأناضول ) الناشئة الطموحة أرادت أن تستولى

عليها في عهد سوبيلو ليوما فإستغاث ملك ميتاني بمصر ، فأرسل إليه أمنحوتب الثالث نجدة ساعدته فى صد الخيتيين ، وأدرك ملك خيتا أنه لن يتمكن من تحقيق أطماعه فى آسيا ما دام النفوذ المصرى قوياً ، ولهذا أخذ يؤلب بعض الأمراء الأسيويين ليشقوا عصا الطاعة فاستجاب له أميران طموحان وهما أمير قادش الذى بسط نفوذه على سهل سورية الشمالى وهزم الأمراء الموالين لمصر . ثم عبد أشرتا ملك الأموريين الذى أخذ يهاجم مدن الساحل الفينيقى وتبعه فى ذلك إبنه عزيرو الذى كان يتظاهر دائماً بالولاء لمصر ويرسل الرسائل مؤكداً إخلاصه وينفى ما يقال عنه . وأخذت المدن تستغيث بفرعون مصر ولكنه كان يعيش فى عالم آخر ولم يهتم حتى بمقابلة الرسل الذين آتوا من آسيا ليبسطوا حقيقة الأمر . كان عزيرو واثقاً من فوضى أمور البلاط فى العمارنة وكان يعتمد على صديقه ، توتو ، أحد سقاة إخناتون المقربين حتى لا تتدخل مصر أو ترسل بعض جنودها . وبعد أن تم لعزيرو ما أراد على الساحل الفينيقى شمالى مدينة جبيل بدأ يهاجم المدن الأخرى على الفرات منضما إلى جيوش الخيتيين فسقطت مدينة ، نيى ، وحاصروا ، تونيب ، فأخذت تستغيث بملك مصر : ، إن عبدتك مدينة تونيب تقول من ذا الذى كان يستطيع فيما مضى أن ينهب تونيب دون أن ينتقم لها منخبريا ( تحوتمس الثالث ) ويفعل بالناهب ما فعل بها ؟ إن آلهة مولانا الملك وتماثيله ما زالت لدينا وليسأل مولانا فى ذلك المتقدمين فى السن من رجاله ليعرف إذ كنا نقول الحقيقة أو لا نقولها . إذا لم تدركنا مشاة ملك مصر وعرباته قبل فوات الفرصة فإن عزيرو سيصنع معنا مثل ما صنع مع مدينة ، نيى ، ، وحينئذ لن نبكى وحدنا بل سيبكى معنا ملك مصر ، . وأخذ أهالى تونيب يستغيثون مرة بعد أخرى وهذه آخر رسالة لهم :

، والآن فإن مدينتك تونيب تبكى ودموعها تسيل ولا ناصر لنا . لقد أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم نتلق رداً منه ، .

ومن الغريب إن إخناتون كلف أحد موظفيه بعمل تحقيق فما كان من ذلك الموظف إلا أن باع نفسه لعزيرو ووقف إلى جانبه فى محاربة المخلصين لمصر للقضاء عليهم . وتكشف لنا هذه الرسائل عن جود خطر آخر وهو وجود قبائل سامية تسمى قبائل الخابيرو ( وربما كان هو الأسم الذى أطلق على العبرانيين فيما بعد ) ، وكانوا قبائل من البدو المقيمين فى شرقى الأردن يؤجرون أنفسهم للقتال ، فاستعان بهم بعض الأمراء للإستيلاء على حصن مجدو ثم أخذوا يهددون أورشليم فسقطت بدورها ، وهكذا أصيب النفوذ المصرى بضربات قاصمة فى سوريا وفى مدن الساحل الفينيقى وفى أعلى الفرات وفى فلسطين بينما كان إخناتون يقيم فى مدينته مقسما ألا

يغادرها حتى يموت ، موزعا وقته بين الصلاة لأتون والإستماع إلى رياء وملق رجال بلاطه الفاسدين .

وإستغاث بعض هؤلاء الأمراء بأمه الملكة « تيى » وكتبوا إليها ، وأرادت تيى أن تنقذ الموقف ولكن إبنها المسالم أبى أن يفعل شيئاً لإنقاذ الموالين له من فتك الخيتيين وقبائل الخابيرو . وأخذت الأمور تزداد سوءاً فى داخل مصر ، وفى إمبراطوريتها ، حتى إنتهت أيام إخناتون وتولى توت عنخ آتون العرش وتيسر للقائد حور محب أن يقوم ببعض المجهود لإستعادة بعض ما فقدته مصر .

## نهاية ديانة آتون :

أحدثت ديانة آتون إنقساماً كبيراً فى البلاد ، ووقف الكهنة وأكثر العائلات القديمة المحافظة ، من إخناتون موقف العداء أو على الأقل موقفا سلبيا إنتظاراً لتطور الحوادث . ولم يكن للملك الفيلسوف من قوة أو نفوذ يقاوم بهما التيار لو لم يكن من ورائه الجيش يدين بالولاء للعرش ، وظل بعيداً عن المنازعات الداخلية . ويرجع الفضل فى ذلك إلى رجل حكيم مصلح وهو القائد حور محب الذى ظل على رأس الجيش طيلة هذه الفترة ، ولم يحارب الدعوة الجديدة ولم يكن من مؤيديها المخلصين المتحمسين ، بل ظل مخلصاً لواجبه فقط .

ويريد بعض الباحثين فى تاريخ هذه العائلة أن يروا أن القبر الذى يوجد فى تل العمارنة باسم « با – آتون – أم – حب » والذى لم ينته العمل فيه ، هو قبر كان قد بدأه « حور محب » أو أمر إخناتون بعمله له عندما أقام فى تلك المدينة فترة من الوقت ، ولكن هذا الرأى لا يخرج عن دائرة الظن أو الإحتمال .

فلما جلس « توت – عنخ – آتون » على العرش فى عام ١٣٤٨ ق . م . كان فى مسيس الحاجة إلى رجال مخلصين لإنقاذ البلاد مما كانت فيه ووجد ذلك فى رجلين أحدهما « آى » الذى أشرف على إدارة البلاد وحاول أن يصلح ما إستطاع ، والآخر « حور محب » الذى ظل فى منف بعيداً عن طيبة وعن تلك العمارنة وبذل كل ما فى وسعه لإصلاح الموقف فى آسيا .

وهناك إحتمال بأن حور محب ذهب مرة حوالى العام الثانى عشر من حكم إخناتون فى حملة إلى سورية ولكن هناك أيضاً ما يكاد يكون حقيقة واقعة وهو أنه فى العام الأول من حكم توت عنخ آتون ذهب على رأس الجيش لإعادة الأمن إلى بعض ولايات فلسطين وفينيقيا . أما فى سورية وفى شمال الفرات فقد كانت الحالة متحرجة إلى أبعد الحدود وكانت خيتا ، بدأت تدخل فى عصرها الذهبى وتوسعت كثيراً على

حساب مصر منذ أواسط حكم أمنحوتب الثالث ، وزادت فى أواخر أيامه وطيلة أيام إخناتون .

وليس هناك من شك فى أن التحاما ما حدث بين ومصر وخيتا أو على الأقل بين جيوش مصر والمدن المؤازرة لخيتا ، وقد إدعت النصوص الخيتية بأن النصر كان لها كما إدعت النصوص المصرية ( مقبرة حور محب فى سقارة ومقبرة حوى فى طيبة وصندوق توت عنخ آمون ) بأن النصر كان لها أيضا ، وربما كان كل من طرفى النزاع قد حقق جزءاً مما كان يرمى إليه فادعى النصر الكامل وكان من المستحيل أن تبقى الأمور فى مصر على ما كانت عليه . فقد رأينا كيف تراجع إخناتون فى أعوامه الأخيرة ، وكيف أرسل ، سمنخ كارع ، إلى طيبة ولكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل؛ لأن كهنة أمون الأقوياء رفضوا إلا إعادة الأمور إلى ما كانت عليه ورفضوا أى حل وسط .

وقضى ، توت عنخ آتون ، ثلاث سنوات فى العمارنة ولكنه قبل أن يغادرها إلى طيبة رضخ ، أو رضخ مستشاروه ، لمشيئة كهنة أمون وأنصارهم وغير اسمه إلى ، توت عنخ آمون ، . وقد عثر له ولزوجته فى تل العمارنة على آثار بعد تغيير أسمائهما بإدخال آمون فيها ، ثم إنتقل نهائياً إلى طيبة . ولاقت الدعوة إلى عبادة آتون المصير المحتوم ، فقد سلط كهنة آمون أنصارهم . على آثار آتون وآثار إخناتون فحطموها أينما كانت ، وخربوا المدينة وخربوا القبور وفتكوا بما فيها من مومياوات واعتبروا المكان بأكمله مكانا نجسا. أما موقف توت عنخ آمون من ذلك كله فإننا نراه واضحا كل الوضوح فيما خلفه من آثار فإن موادر الدولة كلها وثروة البيت المالك خصصت لإصلاح ما فسد وإقامة ما تهدم من المعابد أو أوقف العمل . ورضخ الملك الشاب لجميع إشتراطات الكهنة وإن إدعى فى لوحته بأنه فعل ذلك عن طيب خاطر ، كما ذكر فيها (١) .

وها هو يتحدث عن أعماله : ، فكر جلالته فى عمل مشاريع يحبها قلبه باحثاً عن أى عمل مفيد ليؤدى خدمة لأبيه آمون . وضع له تمثالا فخما من الذهب الجيد . بل وفعل له خيراً مما كان قبل ذلك إذ جعل محفة تمثاله على ثلاثة عشر عموداً بينما كانت محفة ذلك التمثال العظيم على أحد عشر عموداً فقط ، . كان ذلك دون شك ترضية لكهنة آمون إذ صنع تمثالاً من الذهب بدلا من التمثال الذى عسى أن يكون إخناتون قد أخذه من قبل ، كما جعل محفة التمثال الجديد أكبر من سابقتها . ولم يعد

هناك مجال لأولئك الدخلاء الذين أقحموا أنفسهم على الكهنوت فعاد الأمر من جديد إلى أبناء العائلات فيقول توت عنخ آمون فى موضع آخر: « وعين كهنة ومرتلين من بين أبناء وجهاء البلاد وكان كل منهم ابناً لرجل معروف وهو أيضاً رجل ذو إسم معروف » . أما المعابد المصرية الأخرى التى أصابها الخراب فقد نالت التعويض اللازم لإعادة العبادة فيها ، وضوعفت ثروات المعابد بل وكانت أيضا فى بعض الأحيان ثلاثة وأربعة أمثال ما كان لها من فضة وذهب ولازورد وفيروز . وهكذا عاد الملوك رغم أنفهم إلى حظيرة آمون وإنتصر كهنة آمون إنتصاراً كاملاً ، وكان يوم تسليم « توت عنخ آمون » للكهنة بجميع مطالبهم هو بدء تسلط الكهنة على الدولة ولم يسترجع الفراعنة سلطانهم القديم بعد ذلك اليوم .

ولكن إذا كانت هذه النكسة قد أصابت ديانة آتون فإن الفن ظل يتمتع بالكثير من حريته . فنحن نعرف أن المبالغة الكثيرة فى تصوير الأشخاص وصنع التماثيل خفت حدتها إبتداء من السنة الثانية عشرة من حكم إخناتون ، فلما جاء توت عنخ آمون إلى طيبة أخذ الفنانون يعودون إلى الأسلوب القديم ولكنهم لم يتحرروا تماما من أسلوب العمارنة . فنرى فى محتويات مقبرة توت عنخ آمون ، وفى المقابر الأخرى التى نشأت فى عهده أو فى عهد آى ، وأوائل أيام حور محب كثيراً من الحرية التى اعتدنا أن نراها فى عمل الفنانين منذ أيام أمنحوتب الثالث .

وحكم توت عنخ آمون عشر سنوات عاش السبعة الأخيرة منها فى طيبة ومات دون أن يكون له ولد من بعده ، ولم يتجه الكهنة إلى أمير من أمراء العائلة التى حكمت نحو ٢٢٠ سنة ( ١٥٧٠ - ١٣٥٢ ) بل وصل إلى العرش رجل غريب عن البيت المالك وهو « آى » الذى لعب دوراً كبيراً أثناء حياة إخناتون ، وكان دون شك المدبر لانتقال توت عنخ آمون إلى طيبة ، وصاحب الرأى الأول فى البلاد وصاحب الصلة الكبيرة بكهنة آمون .

ومن الجائز أن كهنة آمون لم يرضوا بعودة توت عنخ آمون إلى طيبة وجلوسه على عرش البلاد إلا بعد حصولهم على ضمانات كافية بألا يتكرر ما حدث من إخناتون ، وربما كان من بين هذه الضمانات ما كان يسعى إليه آى وهو الجلوس على العرش فاشترك مع توت عنخ آمون فى الحكم كما اتضح أخيراً ، إذ عثر على بقايا معبد صغير أقيم أثناء حكمهما المشترك .

عثر على أحجار من هذا ا لمعبد ضمن مبانى البيلون الثانى فى الكرنك وهو البيلون الذى أقامه حور محب واستخدم فى مبانيه كثيرا من الأحجار التى كانت مبعثرة فى الكرنك ، ومن بينها أحجار من المعابد التى أقامها إخناتون وخلفاؤه .

ولسنا نجهل عداء حور محب لآى ، ولسنا نجهل عداءه فيما بعد لذكرى إخناتون وعائلته ، ولهذا لا يدهشنا أن نراه يحطم اسم توت عنخ آمون وآى التى كانت على جدران ذلك المعبد ثم هدمه ورمى بأحجاره فى صرحه الذى بناه ، حيث ظلت فى مكانها حتى عثر عليها فى أوائل عام ١٩٥٠ (١) .

وهذا يفسر لنا سبب وجود آى مرسوما على جدران مقبرة توت عنخ آمون يقوم بأداء بعض الطقوس الدينية لموميائه وهو يلبس لباس الملك .

## إخناتون بين ناقديه والمعجبين به :

قلما حظى ملك أو عصر بما حظى به إخناتون وعصره من اهتمام الناس ، ولو أردنا حصر ما كتب عن ثورة العمارنة وديانتها لزاد عن بضع مئات من المؤلفات والمقالات وذلك بسبب ما جاءت به تلك الثورة من آراء دينية وما نتج عنها من تحرر فى الفن .

وليس من شأن هذا الكتاب أن يقف طويلا عند هذا الموضوع أو يعطى تفصيلا أكثر مما أعطيناه ، ولكن الواجب يحتم علينا أن نشير إلى بعض نقاط مهمة ترددت فى بعض الأبحاث التى كتبها علماء محققون من المشتغلين بدراسة التاريخ .

فقد بلغ الإعجاب ببعض الباحثين فى هذا العصر إلى تمجيد إخناتون تمجيداً كاد يرفعه إلى درجة الأنبياء؛ لأن هذا الرجل العظيم استطاع فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ البشرية أن يكتب ما كتب ، ويدعو إلى ما يقرب من الوحدانية ، وكان لأناشيده وآرائه أثر على من جاء بعده من الشعوب بل ذهب بعض المؤرخين وبخاصة ، برستد ، إلى التأكيد أن نشيده هو أصل المزمور ١٠٤ .

ويحمل البعض الآخر على إخناتون حملات منكرة ، ويتهمه بالضعف وتضييع الإمبراطورية ، بل وينكر عليه أن أناشيده وآراءه كانت مبتكرة ، ويغالى البعض الآخر فيحاول الحط من قيمته بإلقاء ظلال من الشك على خلقه ، ولكنا إذا غفرنا للفريق الأول مغالاته – إذا كانت هناك حقيقة أى مغالاة – فإن الفريق الآخر متحامل دون شك على الرجل وتتصف أعمالهم بحب الطعن وتلمس الأخطاء ، بل وخلقها خلقا .

هناك مجال لأولئك الدخلاء الذين أقحموا أنفسهم على الكهنوت فعاد الأمر من جديد إلى أبناء العائلات فيقول توت عنخ آمون فى موضع آخر: « وعين كهنة ومرتلين من بين أبناء وجهاء البلاد وكان كل منهم ابناً لرجل معروف وهو أيضاً رجل ذو إسم معروف » . أما المعابد المصرية الأخرى التى أصابها الخراب فقد نالت التعويض اللازم لإعادة العبادة فيها ، وضوعفت ثروات المعابد بل وكانت أيضا فى بعض الأحيان ثلاثة وأربعة أمثال ما كان لها من فضة وذهب ولازورد وفيروز . وهكذا عاد الملوك رغم أنفهم إلى حظيرة آمون وإنتصر كهنة آمون إنتصاراً كاملاً ، وكان يوم تسليم « توت عنخ آمون » للكهنة بجميع مطالبهم هو بدء تسلط الكهنة على الدولة ولم يسترجع الفراعنة سلطانهم القديم بعد ذلك اليوم .

ولكن إذا كانت هذه النكسة قد أصابت ديانة آتون فإن الفن ظل يتمتع بالكثير من حريته . فنحن نعرف أن المبالغة الكثيرة فى تصوير الأشخاص وصنع التماثيل خفت حدتها إبتداء من السنة الثانية عشرة من حكم إخناتون ، فلما جاء توت عنخ آمون إلى طيبة أخذ الفنانون يعودون إلى الأسلوب القديم ولكنهم لم يتحرروا تماما من أسلوب العمارنة . فنرى فى محتويات مقبرة توت عنخ آمون ، وفى المقابر الأخرى التى نشأت فى عهده أو فى عهد آى ، وأوائل أيام حور محب كثيراً من الحرية التى اعتدنا أن نراها فى عمل الفنانين منذ أيام أمنحوتب الثالث .

وحكم توت عنخ آمون عشر سنوات عاش السبعة الأخيرة منها فى طيبة ومات دون أن يكون له ولد من بعده ، ولم يتجه الكهنة إلى أمير من أمراء العائلة التى حكمت نحو ٢٢٠ سنة ( ١٥٧٠ – ١٣٥٢ ) بل وصل إلى العرش رجل غريب عن البيت المالك وهو « آى » الذى لعب دوراً كبيراً أثناء حياة إخناتون ، وكان دون شك المدبر لانتقال توت عنخ آمون إلى طيبة ، وصاحب الرأى الأول فى البلاد وصاحب الصلة الكبيرة بكهنة آمون .

ومن الجائز أن كهنة آمون لم يرضوا بعودة توت عنخ آمون إلى طيبة وجلوسه على عرش البلاد إلا بعد حصولهم على ضمانات كافية بألا يتكرر ما حدث من إخناتون ، وربما كان من بين هذه الضمانات ما كان يسعى إليه آى وهو الجلوس على العرش فاشترك مع توت عنخ آمون فى الحكم كما اتضح أخيراً ، إذ عثر على بقايا معبد صغير أقيم أثناء حكمهما المشترك .

عثر على أحجار من هذا ا لمعبد ضمن مبانى البيلون الثانى فى الكرنك وهو البيلون الذى أقامه حور محب واستخدم فى مبانيه كثيرا من الأحجار التى كانت مبعثرة فى الكرنك ، ومن بينها أحجار من المعابد التى أقامها إخناتون وخلفاؤه .

برسيد أكثر المتحمسين لهذا الرأى وقام بعمل المقارنة بين الإثنين وخرج من بحثه ، أو من أبحاثه ، بأن ذلك لا يمكن أن يكون بسبب توارد الخواطر بحال من الأحوال .

ولا شك أن مثل هذا الرأى لا يمكن أن يطيب قبوله لمن امتلأت نفوسهم تعصبا للكتاب المقدس ، فأخذوا يتشككون فى ذلك يقولون إن آراء إخناتون لم تكن جديدة على الديانة المصرية بل وأن تعبيراته عن وحدانية إلهه كانت معروفة قبله واستمرت قرونا طويلة بعد موته ، ويقولون أن بدوا جهلاء مثل العبرانيين كانوا يعملون فى أشق الأعمال ويذوقون العذاب على أيدى المصريين ، لا يمكن أن يفهموا مثل هذا النشيد أو يعجبوا به أو بغيره [١] . ولكن حجج هذا الفريق غير مقنعة ، ويمكن لأى باحث أن يضع كلا من النشيد والمزموز إلى جوار بعضهما ليتأكد من أن نشيد إخناتون هو دون شك أصل المزمور ، أما كيف ومتى وصل إلى العبرانيين فهذا موضوع آخر . كان إخناتون عظيما من عظماء التاريخ ليس فى مصر وحدها وإنما فى تاريخ العالم ، وكانت صيحته دعوة جديدة فى آذان العالم لم يكن الناس قد تهيأوا لها إذ ذاك ، ومهما قيل عن تفكك الإمبراطورية فى عهده فهذا أمر آخر . ولو سألنا أنفسنا الآن عما كان يجنيه تاريخ مصر بوجه عام إذا كان إخناتون ملكا من ملوك المحاربين ، فلا نلبث أن نجيب على أنفسنا بأن نتيجة حروبه كان مآلها دون شك إلى الزوال كما حدث لمن جاءوا بعده ، أما أناشيده وآراؤه وأثر ثورته فى الفن فهى باقية وستظل باقية كإحدى مفاخر الحضارة المصرية ، وسيظل اسم إخناتون وثورته الدينية أسماء لامعة فى تاريخ الفكر فى العالم .

## توت عنخ أمون : ( ١٣٤٨ - ١٣٣٧ ق.م. )

إذا درسنا آثار توت عنخ آمون وعصره فإنا نجد أنه بالرغم من كونه شابا صغير السن ضعيف البنية فإن مصر أخذت تنهض من كبوتها وتستأنف حياتها العادية . فأما عن البناء فقد نشطت حركته كثيرا وإنشغل المهندسون أولا فى إصلاح ما تخرب ثم أخذوا فى تشييد معابد فى جهات متعددة من مصر شمالها وجنوبها . ولم يقتصر الأمر على طيبة بل تعداها إلى منف وإلى منطقة أهرام الجيزة كما ترك آثاراً أخرى فى شمالى السودان .

ولسنا فى حاجة إلى تفكير طويل لندرك أن ما خلفته حركة إخناتون من

انقسام وعداوات جعل مهمة تنظيم داخلية البلاد أمراً غير يسير ، وأن الأمر كان محتاجا إلى شخص قوى حازم يضرب ضربة قوية لإصلاح كل ما فسد . ولكن توت عنخ أمون كان صغير السن وكانت الأمور تتجه نحو كهنة آمون الذين أسكرتهم خمرة النصر ، كما إتجهت الأمور أيضا إلى تركيز السلطة فى أيدى الذين شملهم اضطهاد إخناتون فبدأوا بدورهم يضطهدون من اضطهدوهم من قبل .

ولكن مع هذا كله ظل الفن على إزدهاره ، ولم يتقلص نفوذ مصر فى النوبة وشمال السودان ، وظل حكام السودان يأتون ومعهم زعماء هذه البلاد إلى مصر ليقدموا ولاءهم وهداياهم ، أما فى آسيا فإنا لم نسمع بأى حملات حربية غير الحملة التى يحتمل أن يكون قد قام بها حور محب كقائد للجيش فى السنة الأولى من حكمه وهى التى نرى إشارات إليها فى تاريخ حياة هذا القائد وكذلك فى مقبرة حوى ( رقم ٤٠ فى طيبة ) وعلى أحد الصناديق التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون .

ومات توت عنخ أمون وهو فى ريعان الشباب إذ لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ودفن فى قبر صغير ربما كان قد أعدوه لغيره وملأوا حجراته الأربع ، وكدسوا فيها الأثاث وما اعتادوا وضعه مع الملوك تكديسا ، ولونوا بعض الجدران على وجه السرعة . ونحن إذ نقف اليوم فى هذا القبر الصغير تستولى علينا الدهشة ونسائل أنفسنا كيف اتسعت هذه المساحة لما نراه فى قاعات المتحف المصرى من آثار كثيرة ، وكيف يتلاءم هذا القبر المتواضع مع ذلك الأثاث الفخم الكثير . ولكن هذا التعجب لا يلبث أن يزول عندما نفكر فى أن الملك توت عنخ أمون لم يكن قد أعد لنفسه قبرا ملائماً فلما مات فى هذه السن المبكرة وضعوا مع بضع الأثاث الجنازى الشىء الكثير من المتاع الشخصى فى ذلك القبر غير الملائم.

وليس يعنينا هنا أن نصف آثار هذا الملك ، ولكن مهما حاولنا فإنه لا يمكننا أن نغفل الإشارة إلى الصور التى تمثله مع زوجته ، نراهما مرسومين على العرش وعلى غيره ، ونرى الملكة الشابة أمام زوجها تناوله الزهور مرة وتناوله السهم مرة أخرى فى منظر من مناظر الصيد . لقد كان الزوجان هانئين سعيدين ووجدا من يحمل عن عاتقهما أعباء الملك ولكن صحة الملك الشاب جعلته يلفظ أنفاسه الأخيرة تاركا زوجته الشابة تحت رحمة الأقدار .

وعندما كشف عن قبر توت عنخ آمون وجدت باقة زهر صغيرة وضعتها الملكة الشابة الحزينة بيدها فوق صندوق المومياء ، فكانت تحية وداع لزوجها ورفيق صباها الذى تركها وأخذ طريقه وحده إلى العالم الآخر .



تقديم جزية الجنوب إلى الملك توت عنخ آمون . من مقبرة حوى بطيبة

رأت عنخس إن آمون نفسها وحيدة ووجدت الملك يخرج من بيت أبيها فعز عليها أن تسكت على ذلك ، وقامت بمحاولة جريئة . أرسلت الأرملة الشابة رسولا إلى ملك خيتا ، وصاحب النفوذ الأكبر فى آسيا والذى أخذ يقوض إمبراطورية مصر فيها ، ومعه رسالة تقول فيها :

« مات زوجى وليس لى ابن ، ويقولون عنك إن لك أبناء كثيرين . فإذا أرسلت إلى ابنا لك فإنه يستطيع أن يصبح زوجى . ولن أقبل بأى حال من الأحوال أن أتزوج واحداً من رعاياى فإن ذلك شىء أمقته » ودهش الملك سوبيلو ليوماس لهذا الطلب فأرسل رسولا خاصا إلى بلاط مصر ليتأكد من أنه ليست هناك خدعة وعاد الرسول ومعه رسالة من الملكة قالت فيها : « لماذا تقول « إنهم يريدون خديعتى »؟ فإذا كان لى ابن فهل كان فى وسعى أن أكتب إلى أجنبى كاشفة عن مصيبتى ومصيبة بلادى؟ إنك أهنتنى بقولك هذا ، إن من كان زوجا لى قد مات وليس لى ابن فهل يتحتم على أن أتزوج من أحد رعاياى؟ إنى لم أكتب لأحد سواك . الكل يقولون إن لك أبناء كثيرين فأرسل إلى واحدا منهم ليصبح زوجى » .

وأدرك سوبيلوليوماس أن هذه فرصة سانحة ليمد نفوذه فأرسل أحد أبنائه ولكن المؤامرة فشلت ، ونعرف أن الأمير قتل قبل وصوله إلى مصر (١) .

ربما فعلت عنخس إن آمون ذلك بعد وفاة توت عنخ آمون مباشرة ، وقبل أن يتزوجها آى ، إذا كانت قد تزوجته حقا ، فإن ذلك أمر ما زال مشكوكا فى صحته . على أى حال فإننا لم نعد نسمع عنها شيئا ، وربما تكون أيضا قد حوكمت عندما عرف تآمرها ، ولسنا نعرف عنها خبراً أو قبرا ولم يرد إسمها على جدران مقبرة آى التى أنشأها لنفسه فى الوادى القبلى خلف أبواب الملوك على مقربة من مقبرة أمنحوتب الثالث ، إذ نرى على جدران تلك المقبرة إسم زوجته تيى فقط .

ولم يحكم آى أكثر من ثلاث سنوات شيد فيها بعض المبانى أهمها هيكله فى جبل أخميم ، وبعد موته تطلعت الأنظار نحو منافسه القوى حور محب إذ لم يكن هناك غيره يصلح لإنقاذ البلاد مما تردت فيه .

**حور محب :**

عرفنا ، حور محب ، عندما كان قائداً للجيش وأشرنا إلى ولائه لواجبه وعدم تطلعه نحو العرش كما عرفنا فيه يقظته فى تأدية واجبه . وبالرغم من أن حور – محب ولد فى بلدة تسمى حات نسوت ( مكانها الآن الكوم الأحمر تجاه الشيخ فضل فى محافظة المنيا ) (١) فإنه لم يبن قبره هناك عندما كان موظفاً كبيراً فى عهد توت عنخ آمون ، بل بناه فى جبانة منف التى قضى فيها أكثر أيام حياته والتى كانت مركزاً للجيش .

وقد عثر على هذا القبر منذ عهد غير قصير ، وسرقت أحجاره وبيعت فى الأسواق ووصل بعضها منذ أواخر القرن الماضى إلى متاحف أوروبا ووصل البعض الآخر إلى المتحف المصرى . وقد تجلت فى مناظره حياة حور محب كرجل حرب ، فنرى فيه مناظر الأسرى والإشارة إلى ما قام به فى العام الأول من حكم توت عنخ آمون وكذلك ما قام به نحو لاجئى فلسطين وجنوبى سورية عندما بدأت جيوش خيتا مهاجمة تلك البلاد فهربوا إلى مصر بعد أن تفشى بينهم الجزع والجوع (٢) .

ونعرف أيضاً عن هذا القائد أنه كان مغرماً منذ صدر شبابه بالأدب وتحصيل العلم ولهذا نرى توقيره الكبير للإله تحوت وإعترافه بما أنعم به عليه . سطر هذا كله على تمثاله الذى وضعه فى معبد بتاح فى منف وفضل أن يمثله جالساً يكتب بدلاً من تمثيله وهو فى مظهر آخر إذ كان هذا أقرب إلى نفسه وإلى طباعه المتواضعة .

ويظهر أن موت إخناتون وإعلان توت عنخ آمون العودة للدين القديم لم يقض على ما أصاب البلاد من فوضى واضطراب ، بل أن ذلك فتح الباب أمام الإنتقام والتخريب ، والفقير هو الضحية الأولى دائماً فى مثل ذلك الوقت العاصف المضطرب . ومات آى فسعى الملك سعياً إلى حور محب إذ كان الناس جميعاً وبخاصة الفقراء قد سئموا الانقسام والفوضى وعدم الطمأنينة ، فلما خلا العرش سار حور محب إلى طيبة يصحبه إله المدينة التى ولد فيها وهو الإله « حور » حيث تمت مراسيم تتويجه هناك وإنتقل إليه الملك دون إراقة نقطة دم واحدة ، وتزوج من الأميرة « موت نزم » من أميرات البيت المالك القديم . لقد نشأ حور محب نشأة حربية وقضى صدر شبابه فى الجيش وكان فى وسعه أن يحصل على أمجاد كثيرة إذا سيره نحو الفتح وإحضار الغنائم ولكنه كان رجلاً حصيفاً ، وكانت تجارب الحياة قد صقلته فعرف أن الاستقرار الداخلى أجدى بكثير من إفناء موارد البلاد فى حروب غير مأمونة النتيجة ، خصوصاً وأن البلاد كانت فى حالة تكاد تصل إلى اليأس ، فكان همه الأكبر هو الإصلاح الداخلى وإزالة كل آثار سنوات حكم إخناتون ومن جاء بعده .

وهناك احتمال كبير فى أن حور محب أراد استقرار الأمور فى آسيا فعقد معاهدة بينه وبين مورسيل الثالث ملك خيتا ضمنت له استقرار الأمور على الحدود واندفع بعد ذلك بكل ما أوتى من خبرة وذكاء وهمة نحو الإصلاح الداخلى فسن القوانين العديدة وأمر بإصلاح المعابد وترميمها ما نعرف أيضاً أنه أمر بعمل تفتيش على مقابر الملوك؛ لأنه حدثت بعض الاعتداءات عليها ، وسرق بعضها فى فترة الإضطرابات . وخير ما يعطينا فكرة عن حالة مصر وتدهورها ، وما كان يقع على الفلاح المسكين من ظلم وما تفشى بين الموظفين من الفساد والرشوة ، وهو مرسوم قوانينه الذى أبقى عليه الزمن حتى الآن . وهذا هو ملخص هذا المرسوم الهام كما قسمه فليجر (١) .

يبدأ المرسوم بألقاب حور محب وبعض جمل المديح فيه ، ثم يذكر بأن الملك كان يقضى الليل والنهار فى التفكير فيما يمكن عمله لإصلاح مصر وأنه أخذ قلما وقرطاسا من البردى وكتب فيها ما يأتى :

١ – التشريع الأول خاص بالعقوبات التى توقع على كل من يعوق السفن التى تحمل

الضرائب إلى خزائن الدولة ، وكان عقاب ذلك جدع الأنف والنفى إلى حصن ثارو على مقربة من القنطرة .

٢ – والجزء الثانى يختص بالإجراءات التى تتخذ فى حالة سرقة سفن تكون محملة بالضرائب الخاصة بالدولة وتكون مرسلة إلى الملك .

٣ – وثالث الإجراءات ما يوقع على ما يفعل ذلك أو يحول دون وصول سفن محملة بأشياء مستحقة لزوجة الملك أو إلى المعابد .

٤ – والجزء الرابع يختص بمعاقبة الموظفين الملحقين بمكتب قرابين الملك الذين يذهبون إلى قرية من القرى لأخذ نبات « كث » ويجعلون أرقاء بعض الناس يشتغلون فترة من الزمن دون رضاء سادتهم .

٥ – والقسم الخامس خاص بالإستيلاء على جلود الحيوانات كجزء من الضريبة ، ومعاقبة الجنود الذين يذهبون إلى الفلاحين للاستيلاء على هذه الجلود دون وجه حق .

٦ – والقسم السادس خاص بالإجراءات ضد ما يقع من ظلم على بعض الفلاحين وما يحدث من تلاعب من موظفى الضرائب .

٧ – وسابع هذه الأقسام هو العقاب الذى يوقع على من يأخذ من الفلاحين النبات المسمى « سم » والذى كان ضرورياً لعمل الجعة بحجة أنه يؤخذ لأجل ضرائب الملك .

٨ – ثم تأتى بعد ذلك العقوبات التى توقع على من يظلم الفلاحين بأخذ بعض الحبوب أو الخضراوات دون وجه حق باسم الملك .

٩ – وتاسع التشريعات يختص بالعقوبات التى توقع فى حالة إقتراف جريمة من الجرائم لم نعرف كنهها بالضبط نظرا لتحطيم النقش فى هذا الجزء ، غير أننا نرى فيها اسم مدير البلاد الأجنبية وأنه يعطى ذهب الملك إلى بعض الناس .

١٠ – وعاشر هذه التشريعات خاص بمنع القسوة أو كثرة العمل على الأرقاء.

فإذا ما انتهى هذا الجزء الخاص بالتشريعات والعقوبات فإن المرسوم يبدأ بذكر الإصلاحات الإدارية التى أمر حور محب بعملها ، ويبدأ هذا الجزء بمقدمة يتحدث فيها بأنه سار فى جميع أنحاء البلاد وعرف ما يجرى هناك ولهذا قام بإصلاح المحاكم ، وكان قضاتها من بعض الموظفين والكهنة . وبعد أن أصلح شئونهم المادية

اعتبر أن إعتداء أحد أعضائها على العدل وظلمه للناس بسبب الرشوة أو غيرها إنما كانت جريمة كبرى أى جزاؤها القتل .

ونظم أيضاً أمور الجيش ورتب لجميع أفراده على اختلاف أسلحتهم ودرجاتهم ما يكفل لهم الطمأنينة ، كما رتب لهم أيام راحة خاصة .

وكان آخر ما ذكره فى هذا المرسوم أنه وضع تنظيما خاصا للبروتوكول فى السراى ومراتب الموظفين وأيهم يتقدم على الآخر .

ويقول حور محب فى مرسومه هذا الذى عدد فيه إصلاحاته بأنه إذا طال به العمر سيقيم المعابد للآلهة وأنه سيجدد مولده مثل القمر ثم يختمه قائلاً ، إنكم تستطيعون رؤية هذه المراسيم التى أمر جلالتى بتجديدها عند إصلاح البلاد كلها بعد أن رأى جلالتى أعمال الظلم التى كانت تقترف فى هذه البلاد ، .

ونحن إذا تتبعنا حالة البلاد فى عهد حور محب فإنه لا يخامرنا أى شك فى أنه نجح فيما أراده ، فعادت لمصر ثقتها فى نفسها وعادت الطمأنينة إلى النفوس فلما مات فى عام ١٣٠٤ ق.م. بعد أن حكم ثلاثين عاما ترك وراءه بلادا مطمئنة ، وهكذا ختمت الأسرة الثامنة عشرة أيامها بملك عظيم وهو حور محب كما بدأتها بملك عظيم وهو أحمس الأول .

## الأسرة التاسعة عشرة
## (١٣٠٤ - ١١٩٥ ق.م.)

**أسرة جديدة :**

حكم حور محب ثلاثين عاماً أعاد فيها إلى البلاد أمنها وسلامتها . وكان الرجل فى مستهل حياته غير راغب فى الملك ولم يسع بعد ذلك فى يوم من الأيام إلى توطيد أركان الحكم لمصلحته الشخصية ، أو مصلحة بلده الذى نشأ فيه فى مصر الوسطى ، أو لمصلحة أحد من أهله . ولسنا نعرف إن كان هو الذى إختار قبل موته أحد زملائه فى الجيش ليجلس من بعده على العرش أو أنه ترك هذا الاختيار لغيره ، لكنا نعرف أن العرش بعد موت حور محب إنتقل بسهولة ودون أى إعتراض إلى زميل قديم فى الجيش يسمى رمسيس ( فى اللغة المصرية رع - مس - سو ) ، وكان شيخا طاعنا فى السن ، وكان هو ونجله سيتى من القواد العسكريين ، وكان كل منهما يشغل مركز الوزير فى الوجه القبلى فى وقت من الأوقات ، وكانا من ذوى النفوذ الكبير فى الجيش ، وفى الإدارة .

وكان رمسيس هذا من الدلتا ومن مدينة صان الحجر بالذات التى كانت مقر عبادة الإله ست منذ عصر الهكسوس ، وكان لهذا الإله منذ الدولة القديمة إحترام خاص فى شرقى الدلتا ، ولهذا لا نستغرب أن رمسيس الأول قد سمى إبنه ، سيتى ، نسبة إليه ولا نستغرب أيضاً إذا كان الملك رمسيس الأول بدأ يفكر تفكيراً جدياً فى الإلتفات إلى تانيس ( صان الحجر ) وجعلها مركزاً مهماً فى إدارة البلاد .

وبالرغم من أن الملك رمسيس الأول قد حكم أقل من عامين فإنه إستمر فى إدارة البلاد بحزم ونجح كل النجاح فى السير على سياسة حور محب . فمنذ إعتلائه العرش أراد أن يشترى تعضيد كهنة آمون فبدأ فى إقامة المبانى العظيمة له فى الكرنك إذ أن رمسيس الأول هو الذى بدأ فى إنشاء بهو الأعمدة الكبيرة ، ولم يقف الأمر عند ذلك بل أنه فى هذه الفترة القصيرة أنشأ معابد مختلفة فى الشمال وعلى الأخص فى منف ، وفى النوبة وبدأ فى تشييد قبر له فى وادى الملوك لم يكن تم جزء كبير منه يوم موته . وتلاه على العرش ابنه سيتى الأول الذى يعتبر بحق من أهم الملوك الذين جلسوا على عرش مصر .

**الملك سيتى الأول : ( ١٣٠٣ - ١٢٩٠)**

كان سيتى الأول عند موت أبيه فى منتصف الحلقة الخامسة من عمره . وكان له من خبرته وتجاربه ومن ذكائه الفطرى ما أهله للقيام بالدور العظيم الذى كان مقدراً له أن يقوم به .

فقد قضى سنوات شبابه وهو يعمل ضابطا فى الجيش وبخاصة على حدود مصر الشرقية فى حصن ثارو ، كما تقلد وظائف عدة وكان قائداً للفرسان ، كما أوكل إليه حور محب بعض الوظائف الكبيرة فى الدولة . ولا شك أنه تتبع كل إصلاحات حور محب وكان من منفذيها كما كان ساعد والده الأيمن خلال العامين اللذين جلسهما على العرش ، فلما آل إليه الملك وجد أن خير ما يفعله هو أن يسير على نمط أبيه ونمط حور محب ، وكان له من نشاطه وخبرته ما جعله يبدأ عصراً جديداً فى تاريخ البلاد فسمى أولى سنوات جلوسه على العرش أنها بدء عصر البعث ، وهم - مسوت : ترجمتها الحرفية تكرار الولادة ، .

ولم يكد يجلس على العرش وتنتهى حفلات التتويج حتى أصدر أوامره بإتمام ما لم يتمه أبوه من مبان ، كما أصدر أمره أيضاً بإصلاح ما لم تتسع أيام حور محب لإصلاحه مما تسبب عن ثورة إخناتون الدينية من تخريب فى المعابد ، ولكنه فوجىء بقيام ثورة وراء الحدود الشرقية فأسرع لإخمادها وترك لنا أخبار إنتصاراته على جدران معبد الكرنك . ورسم لنا فيها الحصون التى أعادها إلى حظيرة الطاعة بعد أن هزم بدو سينا وجنوبى فلسطين ، الشاسو ، وهى الحصون التى كانت تمتد من القنطرة حتى رفح [١] . وأراد سيتـــى أن يعيد لمصر مجدها القديم فتقدم مع جيشه فى فلسطين ، وعلم أن السكان الذين شقوا عصا الطاعة بمؤازرة وتعضيد مملكة ، خيتا ، تجمعوا فى بيسان وأن بعضاً منهم تجمعوا فى بلد يسمى ، حماه ، ( وهى غير مدينة حماة السورية ) والبعض الآخر فى بلدة ، ينعم ، فلم يمكن سيتى الأول أعداءه من التجمع سويا فى مكان واحد بل أرسل إلى كل من هؤلاء فرقة من فرق جيشه قضت عليهم بسهولة ، وتم النصر ودانت له فلسطين وفينيقيا والجزء الجنوبى من سورية وبخاصة البقاع ومدينة قادش .

وكان سيتى الأول يريد متابعة انتصاراته ليؤدب الثائرين الآخرين ويقابل

جيوش خيتا ولكن أنباء ثورة أخرى على حدود مصر الغربية اضطرته للعودة مكتفياً بما ناله من غنائم وإنتصارات .

كانت الحالة فى شمال إفريقيا بدأت تدخل فى دور من عدم الإستقرار على إثر الهجرات الهندو - أوروبية التى أخذت تجتاح كل بلاد الشرق القديم فى ذلك العهد ، وكان أثر هجرات هذه الشعوب ونزول بعضها على شاطىء شمال إفريقيا أن بعض تلك القبائل نظر بعينه نحو مصر لمهاجمتها والاستقرار فيها ، ولكن سيتى الأول هزمهم فى موقعتين سجل أخبارهما على معبد الكرنك أيضا إلى جانب أخبار معاركه الأخرى فى سينا وفلسطين وسورية .

ولسنا نستطيع أن نحدد تاريخ حربه فى ليبيا بالضبط ولكن من المؤكد أن تلك الحملة كانت بعد استيلائه على قادش وقبل أن يعود مرة ثانية إلى آسيا ليحارب ، خيتا ، أى أن التاريخ المرجح لهاتين المعركتين أنهما كانتا فى السنة الثانية من حكمه .

كان سيتى الأول قد اتخذ حياة وحروب تحوتمس الثالث مثالا يحتذيه ، وكان يعرف أنه طالما كانت ، خيتا ، بعيدة عن متناول يده فإنها لن تتوقف عن الإستمرار فى دسائسها لتأليب سورية وفلسطين على مصر خصوصا بعد أن تغلبت على بلاد «ميتانى» فى أعالى الفرات . وأصبحت وجها لوجه أمام مصر ، وتطلعت نحو سورية لتصبح تابعة لها .

ومصادرنا عن حرب سيتى مع خيتا هى ما دونه على جدران معبد الكرنك ، وكانت المعركة التى دارت بينه وبين الخيتيين فى شمال مدينة قادش ، وعاد منها ستيى منتصراً ومعه الأسرى والغنائم . وحفظت المصادر الخيتية أخبار هذه الحرب ونعرف مما كتبوه أن ملك خيتا كان يريد أن يتفادى الحرب مع مصر ويقول إنه لم يكن طالباً لشهرة أو مجد لأنه يمقت الحروب ، ولكنه يزيد على ذلك طبعاً أن جيوشه انتصرت . والرأى الأرجح هو أن تلك المعركة لم تكن حاسمة ولم يستفد منها أحد الطرفين ولم تؤثر بحال من الأحوال على مملكة ، خيتا ، ، وإن كانت قد أثمرت فى جعل مملكة خيتا تعرف أن مصر فى عهد سيتى الأول غيرها فى عهد إخناتون ، وأن فرعون لم يسمح لقوة أجنبية أن تتدخل لإشاعة الفوضى على حدود مصر الشرقية . وذهب سيتى أيضاً فى حملة على بلاد النوبة وهو يذكر ذلك على آثاره كما يذكر أيضا بلاد ، ناهارينا ، ( أعالى الفرات ) و ، خيتا ، و ، آلاسا ، ( قبرص ) وربما كان ذكر هذه الأسماء على آثار سيتى إستمراراً للتقليد القديم الباقى من أيام تحوتمس الثالث أو

ربما كانت هذه البلاد أخذت تنتهج سياسة المودة مع مصر وترسل هداياها لتؤكد صداقتها لها .

ومن المحتمل أن تكون حملات سيتى الأول فى آسيا وإفريقيا إقتصرت على السنوات الأولى من حكمه ، ولم تكن هناك حاجة إلى ذهابه إلى تلك البلاد بعد أن استتب له الأمر فيها ، ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد عقد معاهدة مع خيتا ليحترم كل من مصر وخيتا حدود الآخر وبذلك إطمأن على حدوده وانصرف بكل ما أوتى من قوة لتوطيد الأمن فى البلاد ، وإنشاء المبانى العظيمة فيها .

ويطول بنا الحديث إذا أردنا تعداد المهم من آثار الملك سيتى ويكفى أن نشير إلى أعماله فى الكرنك وبخاصة بهو الأعمدة العظيم وإلى معبده فى طيبة ( معبد القرنة ) وإلى قبره فى وادى الملوك الذى يمتاز بأنه أهم المقابر جميعا ، وكذلك تلك الدرة بين معابد الفراعنة ألا وهى معبده العظيم أبيدوس .

وإذا درسنا آثار هذا الفرعون فإن أهم ما يستلفت نظرنا هو المستوى العظيم فى جمال النقوش فإننا نرى من نقوش قبره فى طيبة ومعبده فى أبيدوس أن المدرسة الفنية التى وصلت إلى أوج إزدهارها فى عهد أمنحوتب الثالث ظلت على تقاليدها فأخرجت فى عهد هذا الملك روائعا فنية من أجمل ما وصل إلى أيدينا من عهد الفراعنة .

وقد إستحدث الفنانون فى عهد سيتى الأول أمراً جديداً وهو رسم المعارك الحربية مفصلة وفى حجم كبير على جدران المعابد إذ أن مصر لم تعرف ذلك من قبل ، وكان أول من استحدث رسم المعارك هو تحوتمس الرابع عندما زين عربته الحربية بمناظر إنتصاراته فى المعارك كما قلنا قبل الآن ، وقد حفظ لنا الزمن أيضاً صندوقاً من عهد توت عنخ آمون رسم على أحد جانبيه معركة حربية فى آسيا وعلى الجانب الآخر معركة حربية فى الجنوب ، ولكن فى عهد سيتى الأول رسمت هذه المعارك على جدران المعابد وهو التقليد الذى إتبعه خلفاؤه من بعده .

واهتم سيتى بالمناجم فأرسل الحملات المختلفة وبخاصة للحصول على الذهب ويرجع إلى أيامه تاريخ بردية مناجم الذهب المحفوظة فى متحف تورين بإيطاليا وهى أقدم وثيقة جغرافية فى التاريخ عنى فيها الرسام بتوضيح الطرق المختلفة وكتب عليها ما يساعد المطلع عليها لمعرفة الطريقة إلى تلك

المناجم[1] . كما حفر كثيراً من الآبار فى الصحراء لمساعدة المسافرين إلى مناطق المناجم مثل بئر وادى عباد التى أقام إلى جانبها معبداً صغيراً وهو المعبد المعروف بإسم معبد « الرديسية » .

ولم تقتصر آثار سيتى على مصر والصحراء ، بل وجدت له آثار كثيرة فى بلاد النوبة وشمال السودان وبخاصة فى « سيسيبى » و « نورى » و « جبل برقل » ، كما عثر له على آثار غير قليلة فى مصر وفى لبنان .

وكان سيتى الأول متزوجا من سيدة تسمى « تويا » من المرجح أنهاكانت أخت له وولدت له ولدين وبنتا . ومات أكبر الولدين فى حياة أبيه فآلت ولاية العهد إلى الأمير الثانى وكان إسمه رمسيس الذى إشترك مع أبيه فى حكم البلاد لتدريبه ، وتزوج من أخته الأميرة « سات – رع » وقد خلف هذا الأمير أباه بعد أن حكم ثلاثة عشر عاما ( ١٣٠٣ – ١٢٩٠ ق.م.) ودفن فى قبره فى طيبة وقد أبقى الزمن على موميائه وهى من أحسن المومياوات المحفوظة فى المتحف المصرى .

**رمسيس الثانى : ( ١٢٩٠ – ١٢٢٣ ق.م.)**

لم يبلغ ملك من ملوك مصر ما بلغه رمسيس الثانى من شهرة فى التاريخ ، فقد إستطاع هذا الملك الذى حكم سبعة وستين عاما أن يفرض إسمه وشخصيته على عصره وعلى العصور التالية وملأ البلاد كلها بآثاره .

ونحن نعرف معرفة اليقين أن رمسيس الثانى لم يكن مدعياً أو موهما أهل عصره عندما ذكر على آثاره أن أباه إختاره ليكون وليا للعهد أو أنه أشركه معه فى أمور البلاد ، فإن هذا أصبح الآن حقيقة من الحقائق ، ولكنا لا نعرف عمره بالضبط عندما مات أبوه وإن كنا نرجح أنه لم يكن يقل عن الخامسة والعشرين من عمره ، إذ كان أبا لطفلين ذهبا معه إلى الحرب أو لتلقى الجزية فى بلاد النوبة كما نرى ذلك

---

منقوشاً على جدران معبد بيت الوالى [١] .

وإذا رجعنا بالذاكرة إلى عهد الملك سيتى الأول لوجدنا أنه بدأ حكمه بالحرب عندما ذهب لإخضاع بدو الشاسو ، ثم تقدم حتى استولى على قادش والتحم بجيوش خيتا وانتهى الأمر بينه وبين ، خيتا ، بعقد معاهدة صداقة ظلت محترمة حتى مات الملك سيتى الأول ، وكان حد المملكة المصرية الذى يفصلها عن حد مملكة خيتا عند نهر الكلب شمالى بيروت بقليل .

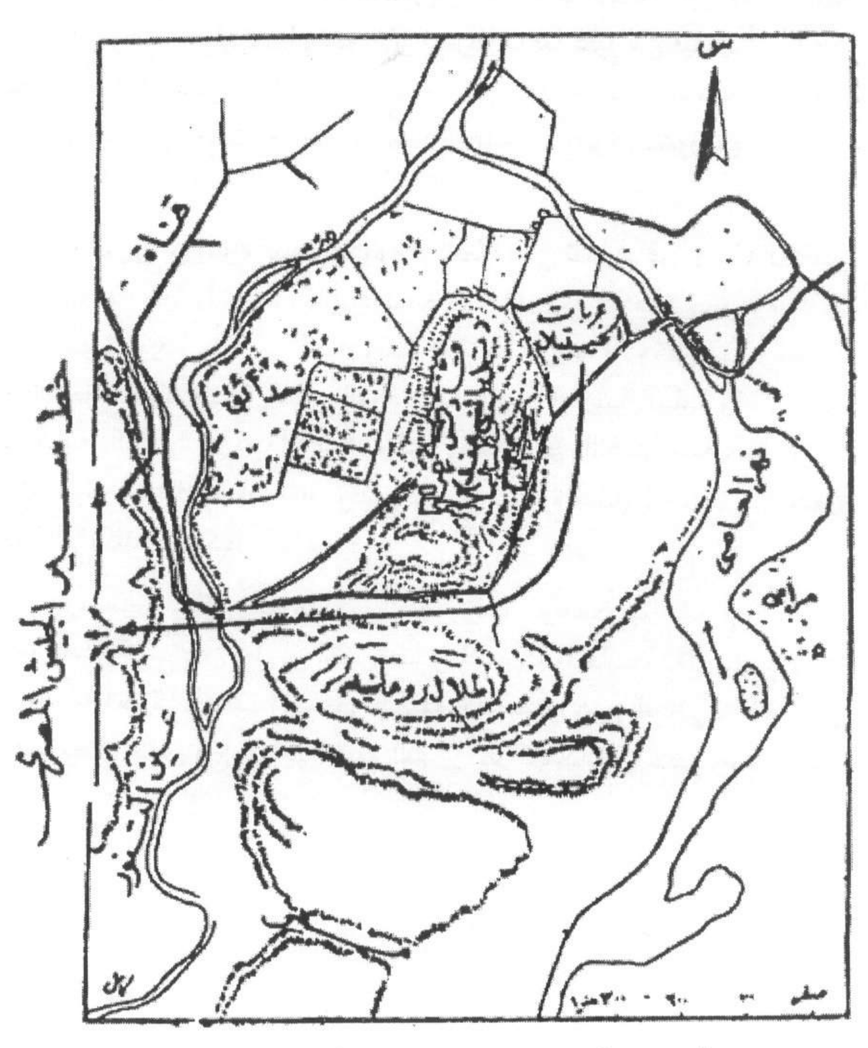
وعندما تولى رمسيس الثانى الملك بعد أبيه لم يبدأ بنقض هذه المعاهدة بل وجه همه قبل كل شيء إلى توطيد حكمه فأمر بإنهاء جميع ما كان قد بدأه أبوه من معابد ولم يطل أجله ليتمه مثل معبد أبيدوس أو معبد القرنة أو مبانيه المختلفة فى الكرنك .

وكانت خطوته التالية هى التفكير فى استغلال مناجم الصحراء متبعاً فى ذلك سياسة أبيه من قبل . فلما انتهى من ذلك حوالى السنة الرابعة من حكمه ذهب فى رحلة لزيارة أطراف ملكه فى آسيا . وليس فى إستطاعتنا أن نعرف الباعث على ذهابه إلى آسيا أو الذى حدث أثناء هذه الرحلة وجعله يصطدم بمملكة خيتا ، ولكن من المحتمل أن مملكة خيتا هى التى بدأت بتحريض بعض الأمراء على الثورة على العصيان ، وأن حملة رمسيس الثانى إلى آسيا كانت لتوطيد النفوذ والإطمئنان على حاميات الموانيء وخطوط المواصلات . ثم عاد مرة ثانية فى السنة الخامسة من حكمه بعد أن عبأ جيوشه وتقدم بها لسحق جيوش خيتا التى كانت قد ألبت الكثير من سكان سورية ضد مصر ، وتجمعت فى قادش لصد جيوش مصر التى كانت فى طريقها إلى هناك .

**معركة قادش :**

كان ملك خيتا فى ذلك الوقت يسمى ، موتلى ، ولم يترك وسيلة من الوسائل إلا التجأ إليها ليجعل من مقابلته لجيش مصر ضربة قاضية تمحق نفوذ مصر وسيادتها فى آسيا . ولهذا لم يكتف بأن يضم إليه ، سواء بالوعد أو بالوعيد ، الساخطين على مصر أو الطامعين فى إرضاء خيتا ، بل إستعان بشعوب أخرى كثيرة وأخذ منها جنوداً

مرتزقة وكان من بين هذه الشعوب سكان جزر بحر إيجة ، وإمارات آسيا الصغرى ، وبلاد الفرات إلى جانب جيش بلاده . وتقدم بكل هذه الجموع إلى قادش وهى المدينة المحصنة ذات الموقع الإستراتيجى الهام ، والتى نعرفها منذ أيام تحوتمس الثالث بأنها باب سورية الشمالية وما يليها . وتقدم رمسيس الثانى ومعه أربعة جيوش أحدها « جيش آمون » والثانى « جيش رع » والثالث « جيش بتاح » والرابع « جيش ست » وذلك إلى جانب جنود مرتزقة بعضهم من الشردان الذين سبق أن أسرهم ، والبعض الآخر من الأموريين الذين ربما كان تجنيدهم فى فلسطين . اتخذ رمسيس الطريق




موقع مدينة قادش جنوبى حمص وخط سير الجيش المصرى

الحربى القديم ومعه جيش آمون تتبعه الجيوش الأخرى ، ووصل إلى بلاد كنعان وإتجه شمالا متتبعاً الشاطىء حتى شمال بيروت ، إذ ترك لوحة عند مدخل نهر الكلب مؤرخة فى السنة الخامسة أى فى هذه الحملة ، ومن هناك توغل إلى الداخل حتى وصل إلى وادى نهر العاصى .

وحدث إذ ذاك أن قبض الجنود المصريون على جاسوسين من بدو فلسطين (الشاسو) كان أرسلهما « موتلى » ليعرفا تحركات الجيوش المصرية ، وإذا وقعا فى الأسر يقصان قصة متفق عليها ليضللا المصريين . واعترف الجاسوسان بعد ضربهما ضربا موجعاً بمواقع جيوش خيتا ولكنه كان إعترافا متفقا عليه من قبل إذ أنهما قالا بأن « موتلى » تقهقر بجيوشه إلى حلب عندما علم بتقدم الجيوش المصرية ، ولكن الحقيقة أن الجيوش كلها كانت مختبئة وراء مدينة قادش منتظرة حضور جيوش مصر لملاقاتها (١) .

وأراد رمسيس أن يسرع خلف عدوه ولم ينتظر حتى تلحق باقى جيوشه به فعبر نهر العاصى ومعه جيش آمون . وكان أقرب جيوشه إليه بعد ذلك هو جيش رع الذى كان على مسيرة بعيدة ، أما جيشا تاح وست فكانا بعيدين جدا . وكان سير رمسيس خطأ من الناحية الحربية ؛ لأن تجمع القوات أحد الأسس الحربية الهامة وكانت هذه القاعدة متبعة دائماً فى حروب أجداده ، ولكن تسرعه فى التقدم ومعه جيش واحد فقط ، وتصديقه لما قاله الجاسوسان وعدم تنظيمه لإدارة مخابراته كما كان يفعل تحوتمس الثالث كلفه ثمنا كبيراً كما سنرى .

عبر رمسيس الثانى نهر العاصى ( الأورونت ) وعسكر بجيشه فى الشمال الغربى من المدنية ولم يكن يعلم أن ملك خيتا وحلفاءه كانوا خلف التلال وأنهم قاموا فى الوقت نفسه بحركة إلتفاف وإنسحبوا إلى ما وراء قادش على الشاطىء الآخر من النهر . فلما وصل جيش رع وبدأ فى عبور النهر إنتظر المتحالفون حتى وصل بعض

الجنود إلى الشاطىء الآخر ، وعند ذلك هجموا على جيش رع هجوماً مفاجئاً فلم يستطع أن يلم شمله ويصمد للحرب ، بل ولى الجنود طالبين المعسكر المصرى فحدث إضطراب كبير ولم يكن فى وسع رمسيس الثانى إلا أن يحاول جمع شتات جنوده




تقدم الجيوش المصرية نحو قادش

ليدافعوا عن أنفسهم . ولكن هذا الهجوم المفاجىء كان قد خلع قلب جيش رع وجيش آمون الذى كان للملك بمثابة الحرس الخاص ، وتخلى عن رمسيس أكثر رجاله فلم يرى بدا من الاعتماد على نفسه فاندفع بين المهاجمين .

يقص علينا رمسيس الثانى قصة هذه المعركة فى قصيدة شعرية نقشها على جدران عدة معابد ، فى الأقصر وفى الرمسيوم وفى الكرنك وفى أبيدوس وفى إحدى البرديات ، كما صور لنا أهم مناظر المعركة على واجهات بعض المعابد ، ونعرف منها أنه رغم ترك جنوده له فإنه صمد وحده للقتال ، وكان عمله هذا مثلاً فى الشجاعة لجنوده من جيش آمون وجيش رع فلم يمض غير قليل حتى ثبتت قلوبهم والتحموا مع العدو ، وبذا تفادى رمسيس الثانى ورجاله كارثة محققة ، والفضل فى هذه الحركة الأخيرة يرجع دون شك إلى وصول نجدة لم يكن أحد يتوقع وصولها فى ذلك الوقت ، وهى نجدة من شباب الفلسطينيين المجندين ( ثيارونا – بلغة الكنعانيين معناها الشباب أو الفتيان ) وصلت إلى ميدان المعركة تحت إمرة الضباط المصريين ووجدت حرج مركز رمسيس فمالت على العدو ميلة واحدة فسببت تغيراً فى سير المعركة وأنقذت رمسيس مما كان فيه ، وربما كان نجاح هذه الفرقة راجعاً إلى إنشغال الجيوش المتحالفة فى نهب معسكر المصريين .

وإنتهى اليوم الأول دون أن يكون النصر الحاسم فى جانب رمسيس أو فى جانب أعدائه ، وكانت باقى الجيوش قد وصلت على الأرجح ، كما كان شعور جيشى آمون ورع بالندم حافزاً على إستئناف القتال فى اليوم التالى ، فمالوا جميعا على العدو حتى كادوا يفنونه ، كما تقول النصوص المصرية ، فطلب المتحالفون من رمسيس العفو ، وقبل رسلهم الأرض بين قدميه وسلموه كتابا من ملكهم . ويذكر لنا رمسيس أن ملك خيتا قال له : ليس من المستحسن أن تقتل رعاياك فقد قتلت منهم بالأمس مئات الألوف وها أنت قد يتمت أولادهم ورملت نساءهم ولم تترك لهم وارثا ، فلا تكن قاسيا معنا فالعفو خير من العقاب فإمنحنا نسيم الحياة ، ونصح ضباط رمسيس سيدهم بأن يقبل خضوع العدو فقبل رمسيس أن يكف عن القتال ، وإتفق الطرفان المتحاربان على أن يحترم كل منهما حدود الآخر وألا يتدخل فى شئون رعاياه . وعاد رمسيس وجيوشه إلى مصر دون أن يضم مدينة قادش إلى أملاكه ، وإقتصرت إمبراطورية مصر فى آسيا على فلسطين ولبنان وجزء صغير من سورية وعلى الأخص الموانىء لتى كانت على الشاطىء .

ونحن إذ ننظر فى تاريخ هذه المعركة الآن ، ونقرأ ما كتبه عنها المصريون وما

سطروه على واجهات المعابد فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن فهم السبب الذى جعل رمسيس الثانى لا يجنى ثمرة إنتصاره ، إن كان حقيقة قد سحق أعداءه فى اليوم الثانى !! ولكن ربما كان الحق هو أن الحرب لم تكن فاصلة وأن رمسيس كان يحارب فى يومه الثانى ونفسه مملوءة بالألم والحسرة لهرب جنوده من حوله عند إشتداد الخطر عليه ، إذ نراه يكرر هذا الألم فى نصوصه التى يصف فيها المعركة ويتحدث عن فجيعته فى جنوده إذ تركوه وهو إلههم وسيدهم معرضا للموت ، وجروا طلبا للنجاة . وربما كانت حالته النفسية هى السبب فى قبوله الصلح وهو فى إنتصاره ، مادام رجاله لا يستحقون الإعتماد عليهم . يقول رمسيس إن مركبات العدو التى كانت عددها ٢٥٠٠ مركبة ، وفى كل عربة منها ثلاثة رجال ، قد أحاطت به وكانوا مقسمين إلى وحدات ، بينما ، لم يكن معى قائد أو ضابط مركبة أو ضابط من المشاة ولا حامل درع فقد تركنى مشاتى وفرسانى فريسة أمام العدو ولم يثبت واحد منهم لمحاربته ، .

وعاد رمسيس إلى مصر فملأ البلاد كلها بأنه إنتصر وسحق أعداءه وأن أباه آمون وقف إلى جانبه وأنه أباد عشرات الألوف بسيفه [1] ، ولكن مثل هذه الإدعاءات والتشبيهات الشعرية لا تغير من حقيقة الأمر شيئا وهى أنه إذا كانت هناك نتيجة هامة واحدة من وراء هذه المعركة فهى بقاء رمسيس على قيد الحياة ، وإحتفاظ مصر ببعض ممتلكاتها فى فلسطين والشاطىء الفينيقى .

وإذا رجعنا إلى المصادر الخيتية وخاصة ما كشفت عنه الحفائر فى الأعوام الأخيرة ، فإننا نقرأ قصة أخرى تختلف عن قصة المصادر المصرية . فقد كان النزاع بين مصر وخيتا يتركز فى السيادة على بلاد الأموريين ( مملكة أمورو Amurru التى كانت مدينة قطنا ، تل المشرفة الآن ، عاصمة لها ) وقد إنضم ملكها ، بنتشينا ، ( Bentesina ) إلى مصر ووقف إلى جانبها ولم يخضع لتهديدات ملك خيتا ومن آزروه . فلما كانت معركة السنة الخامسة من حكم رمسيس الثانى جمع كل من ملكى مصر وخيتا كل قواته وألقاها فى المعركة ، ولكن بينما تتحدث النصوص المصرية عن النصر ، وأن ملك خيتا تقدم بطلب الصلح نرى النصوص الخيتية تصف هزيمة

---

المصريين ، وتقول إن جيوش خيتا لاحقتهم حتى دمشق [١] .

ويقف المؤرخون بين هذين القولين ولكن الرأى الأرجح هو تفضيل قصة ملك خيتا؛ لأن مملكة أمورو أصبحت منذ تلك الحرب موالية لخيتا وإختفى إسم ملكها «بنتشينا» ليحل محله إسم أحد الزعماء وإسمه «سابيلى» ( Sapili ) كملك فى قطنا ومعترفا بسيادة ملك خيتا [٢] .

**بعد معركة قادش :**

وإذا تتبعنا الأحداث كما روتها المصادر المصرية فإنا نجد أنفسنا مضطرين مرة أخرى لتصديق المصادر الخيتية ، إذ لم يمض عامان على معركة قادش حتى كانت فلسطين نفسها قد ثارت بأسرها وإمتدت الثورة حتى وصلت إلى حدود مصر إذ كانت عسقلان من بين المدن التى وجد رمسيس الثانى نفسه مضطراً للإستيلاء عليها . ولم يهمل رمسيس ، بل سارع إلى إخماد الفتنة وأعاد كل فلسطين إلى حظيرته وكذلك بعض بلاد الأموريين وبخاصة حصن «دبور» التى دارت عنده إحدى المعارك الهامة . وربما كانت هناك حاميات خيتية تغلب عليها رمسيس عند إستيلائه على مدينة «تونيب» فأعادت هذه الحملة إلى مصر سيادتها على تلك البلاد كلها ، وعلى الشاطىء الفينيقى وربما بعض جزر البحر الأبيض . ونقرأ على جدران معبد الرمسيوم إشارات قليلة إلى هذه البلاد التى وردت فيها أسماء خيتا ونهارينا ورتنو وقطنا وكريت وقبرص وبابل وأشور مع ذكر خضوعها لمصر ، وربما كان فى ذلك شىء من المغالاة والأرجح أن أكثر هذه البلاد أثر السلامة فأرسل وفوده إلى ملك مصر ومعهم الهدايا طالبين مودته والإطمئنان إلى التحالف معه .

ومهما يكن من أمر فإن حملة العام الثامن – وليست حملة قادش فى العام الخامس – هى التى كانت سبباً فى ذيوع إسمه كأحد الفراعنة المحاربين الذين حافظوا على الإمبراطورية التى ورثها عن تحوتمس الثالث ، وكانت هذه الحملة أيضاً درساً قاسياً لمملكة خيتا أجبرها على إحترام مصر وعدم التدخل فى أمر ولاياتها .

ومضت على هذه الحرب أعوام طويلة مات فيها الملك موتللى فنشب نزاع عائلى بين إبن الملك وكان يسمى ، أورخى – تيشوپ ، ( Urehi - Tesup ) من إحدى المحظيات ، وبين عمه المسمى ، خاتوسيلى ، ( Khattu - Siti ) وقد إنتهى النزاع بتغلب خاتوسيلى على ابن أخيه وإستيلائه على العرش ، وكان لهذا النزاع الشديد أثره فى آسيا وبخاصة فى بلاد الفرات وشمالى سورية إذ أن مملكة أشور كانت قد بدأت تدخل فى فترة من فترات قوتها ومد سلطانها على غيرها .

ولم يقف رمسيس الثانى مكتوف اليدين أمام هذا النزاع ، وأخذ يناصر ، أورخى – تيشوپ ، . وأراد ، خاتوسيلى ، أن يشترى صداقة مصر حتى يتفرغ لملاقاة أشور ولهذا أراد عقد معاهدة صداقة معه ، ورحب الملك رمسيس الثانى بها ووقعها الطرفان فى العام الحادى والعشرين من حكم رمسيس أى عام ١٢٨٠ قبل الميلاد ، وكان أصلها مكتوبا بالخط المسمارى على لوح من الفضة وقد ترجم الأصل إلى اللغة المصرية وبقى على أثرين أحدهما على جدران الكرنك والآخر فى الرمسيوم ، كما عثر أيضا لحسن الحظ على الأصل الخيتى فى خرائب بوغازكوى (١) . وليس فى هذه المعاهدة غير تأكيد الصداقة وأن كلا من مصر وخيتا لا يعتدى على الآخر ، ويسلمه المجرمين الفارين إلى بلاده ويشهد كل منهما آلهة بلاده على ما يقول .

وبرّ كل من خاووسيلى ورمسيس بوعده ، وأراد ملك خيتا أن يوثق هذه الصلة فجاء زائرا إلى مصر ومعه إبنته ، وكثير من رجاله ، ليزفها زوجة إلى رمسيس . وقد أقام رمسيس إحتفالات كبيرة وإستقبل ضيفه خير استقبال ، وأمر بتسجيل هذا الحادث العظيم على لوحات كبيرة وضعت فى المعابد المهمة كما نقشت أيضاً على جدران عدة معابد أخرى ، وكان حضور ملك خيتا إلى مصر فى العام الرابع والثلاثين من حكمه وكان فى مصاهرة هذين البيتين ما كفل الأمن والطمأنينة فى غربى آسيا ، ولو إلى حين .

ولكن هذا السلام لم يدم طويلا؛ لأن المتاعب بدأت تتوالى على خيتا بعد

مـوت ، خاتوسيلى ، ، وربما كان جزء من هذه المتاعب راجعاً إلى تنازع عائلى فى البيت المالك ، ولكن السبب الأكبر المباشر كان ناشئا عن هجرات هندو – أوروبية تدفقت على هذا الجزء من الشرق ، ونزلت إليه من أواسط آسيا أقوام كالجراد ومعها نساؤها وأطفالها ، وكانت كل هجرة منها تتبعها أخرى لتستقر فى آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة وفى بلاد اليونان وفى شمال إفريقيا . كان بعضهم يصل عن طريق البر والبعض الآخر عن طريق البحر ، وما لبثت مملكة خيتا أن هوت وزالت من أثر هذه الهجرات فكانت أولى ممالك آسيا التى قضى عليها خطر تلك الشعوب . ومن المرجح جدا أن يكون خطر هذه الشعوب بدأ يدق على أبواب مصر من الشرق ( أى من ناحية سورية وفلسطين ) ومن الغرب من ناحية ليبيا ، وربما كان هذا الخطر هو السبب المباشر الذى جعل رمسيس الثانى يبنى سلسلة من الحصون فى الجهة الغربية من مصر مثل حصن الغربانيات ( على مقربة من برج العرب ) [١] وحصنا آخر عند العلمين [٢] وكان آخر هذه الحصون يقع داخل الحدود الحالية لمصر ، وهو الحصن المكتشف حديثاً عند زاوية أم الرخم إلى الغرب من مرسى مطروح [٣] .

ولكن دفع هذا الخطر لم يقع على كاهل رمسيس الذى كان قد أربى على الثمانين بل وقع على كاهل إبنه مر نبتاح ( منفتاح ) كما سنرى .

## عائلة رمسيس الثانى وآثاره :

حكم رمسيس الثانى ٦٧ عاما وتزوج من كثيرات ، كما أنجب أولاداً كثيرين من محظيات وزوجات ثانويات ، ولهذا لا نعجب إذ كان عدد أولاد وبنات هذا الملك زاد عن ذرية أى ملك مصرى آخر . فنحن نعرف أنه كان متزوجا من بعض أميرات البيت المالك مثل الملكة ، نفرتارى ، الشهيرة والملكة ، إست نفرت ، كما تزوج أيضا من إبنة ملك خيتا وهى التى أطلق عليها الإسم المصرى ، ماعت نفرو رع ، وكان لها حق الزوجات الأوليات ، كما نعرف أيضاً أنه تزوج ثلاث من بناته أما عدد أبنائه وبناته فقد كان وفيرا [٤] . وكان أولاده الذكور يتقلدون جميعا وظائفا مهمة فى الدولة،

وأهم هؤلاء الأولاء إبنه ، خع إم واست ، ( خـــمـــواس ) الذى فكر والده فى السنة الثلاثين من حكمه فى جعله وليا للعهد . وكان هذا الأمير مهتما بالآثار القديمة فكان يرمم كل ما يجده فى حاجة إلى ترميم ، ولهذا نرى اسمه على المعابد فى طول البلاد وعرضها كما كان على خبرة عظيمة بالأمور الدينية وتقاليد الدين واشتهر بعد وفاته بأنه كان ساحرا عظيما ، ولكن هذا الأمير توفى فى العام الخامس والخمسين من حكم والده دفن على مقربة من قرية نزلة البطران التى لا تبعد كثيراً عن أهرام الجيزة .

ومات أكثر أبنائه الأوائل فى حياته ولهذا خلفه إبنه الثالث عشر ، مرنبتاح ، من زوجـتـه ، إست نفـرت ، على العـرش وكـان أبوه قـد إخـتـاره فى العـام الخـامس والخمسين من حكمه ليكون وليا للعهد بعد موت أخيه ، خع إم واست ، .

وإذا أردنا الحديث عن آثار الملك رمسيس الثانى فإننا لا نقول أكثر من أنه لا تكاد توجد منطقة أثرية فى مصر لم يرد فيها إسمه ، ويكفى أن نشير إلى معابده العديدة فى الكرنك أو فى الجزء الأمامى من معبد الأقصر ، أو الرمسيوم أو أبيدوس ، أو معابده المتعددة فى النوبة وبخاصة معبد أبو سمبل لنعرف مدى نشاطه المعمارى المنقطع النظير . وكثيرا ما نقرأ أن رمسيس الثانى كان يجرؤ على أخذ ما يجده من آثار من سبقه من الملوك – حتى والده – وينسبها إلى نفسه ، وهذا صحيح ولكنه لا يغير من الحقيقة وهى أن رمسيس الثانى كان أكثر الفراعنة آثارا فى جميع نواحى المملكة وأكثرهم حبا للعظمة والفخامة .

ولم يكن رمسيس الثانى يقيم دائماً فى طيبة إذ أن أباه بنى قصراً ومقراً ملكيا فى شرقى الدلتا . وقد أحب رمسيس الإقامة فى الشمال فنشأت هناك مدينة كبيرة وهى ، پر – رعمسيس ، وقد ظن بعض الأثريين أنها هى مدينة صان الحجر كما يؤكد البعض الآخر أنها كانت فى المكان الذى تشغله الآن بلدة قنتير فى مركز فاقوس حيث عثر الأستاذ محمود حمزة على جزء من قصر له (١) . ومات رمسيس بعد أن شبع من دنياه ، وملأ سمع الدنيا وبصرها فى حياته وترك اسمه يرن فى آذانها حتى الآن ، ودفن فى قبره فى وادى الملوك إلى جوار آبائه وأجداده .

**الملك مرنبتاح ( منفتاح ) : ١٢٢٢ - ١٢١١ ق . م .**

شهدت الأعوام الأخيرة من حكم رمسيس الثانى تدهوراً فى الإمبرطورية المصرية بسبب هجرات الشعوب الهندو - أوروبية التى كانت تعيش فساداً فى جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط .

ولم يكن مرنپتاح شاباً صغيراً عندما آل إليه الملك بل كان يقرب من الستين ، وقد بذل كل ما يستطيع لصد هذا التيار . وربما ذهب مرنپتاح آلى آسيا فى السنة الثالثة من حكمه أو يكون قد أرسل جيشا لإخماد بعض الثورات التى قامت فيها كما ذكر لنا فى لوحته الشهيرة باسم « لوحة إسرائيل » [١] ، ولسنا نستبعد أن يكون ذلك من أثر المتاعب التى سببتها الهجرات . وسواء أصحت واقعة حربه فى آسيا أو أنها كانت فقط للفخر والمباهاة أو أن هذه الحرب لم تكن فى السنة الثالثة بل كانت بعد إنتهائه من حربه الليبية فى السنة الخامسة ، فإن الحرب التى إقترن إسمها باسم مرنپتاح وخلدت الآثار المصرية ذكرها هى إنقاذه للبلاد من الهجوم الذى شنه عليها الليبيون وحلفاؤهم ، وكانوا يرمون من ورائه إلى الإستيطان فى مصر . فقد تمكن أحد رؤساء القبائل التى كانت قد إستقرت على ساحل ليبيا أن يجمع إليه عدة قبائل من الشعوب الهندو - أوروبية وأن يهجموا تحت إمرة زعيم يسمى « مربى » على مصر ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، فدارت بينهم وبين مرنپتاح معركـــة عند مكـــان يسمـى «پرير» فى غربى الدلتا . وقد إستمرت هذه المعركة ست ساعات إنتهت بهزيمة ساحقة للمهاجمين ففر منهم من فر ، وقتل من قتل ، ووقع تسعة آلاف من الأسرى فى أيدى المصريين .

ولم يطل حكم مرنپتاح بل مات بعد أحد عشر عاما ودفن فى قبره فى طيبة . وقبل أن نترك أيام حكم هذا الملك يحسن بنا أن نشير إشارة عابرة إلى موضوع كثيرا

ما نصادفه مقرونا باسم هذا الفرعون وهو موضوع خروج بنى إسرائيل من مصر . فمنذ العثور على إسم إسرائيل على لوحة إنتصاراته إعتقد الكثيرون أن الخروج حدث فى عهده . ولكن هذا الرأى لم يجد سندا من التاريخ وظلت الآثار المصرية على صمتها تجاه هذا الأمر .

ولكن تحقيق هذا الموضوع من تاريخ العبرانيين وإحتساب الزمن ، ثم ما جاء من نتائج التنقيبات الأثرية فى فلسطين جعل خروج بنى إسرائيل فى عهد مرنبتاح أمراً يكاد يكون مستحيلاً ، ويجب أن يكون فى عهد الأسرة الثامنة عشرة . ولهذا نرى كثيراً من أسماء الفراعنة تتردد فى الأبحاث المختلفة فبعض الباحثين يرى أن فرعون الخروج كان تحوتمس الثالث وبعضهم يرى أنه كان إبنه أمنحوتب الثانى كما أن هناك من يقول إنه كان أمنحوتب الثالث ووصل الأمر ببعضهم إلى القول بأن خروجهم من مصر كانت على أثر موت إخناتون ، وأراد أن يربط بين خروجهم من مصر وثورة إخناتون الدينية .

بل ظهر أخيراً رأى آخر وهو أن خروج بنى إسرائيل من مصر لم يكن فى عهد مرنبتاح وإنما كان قبله بنحو ٤٠٠ سنة إذ كان فى عهد الهكسوس (١) . وكل ما نستطيع أن نؤكده أنه لم يظهر فى الآثار المصرية أو الآثار الفلسطينية ما يحدد وقت الخروج تحديداً تاما وسيظل هذا الموضوع مفتوحاً للمناقشة حتى ظهور أدلة جديدة (٢) .

## نهاية الأسرة التاسعة عشر :

وجاء بعد مرنبتاح مغتصب للملك يدعى « آمون مس » ولا ندرى كيف استولى على العرش ، وفى ذلك دليل على إضطراب الأمور فى البلاد؛ لأن « أمون مس » لم يلبث حتى خلعه مغتصب آخر إسمه « مرنبتاح سابتاح » فانتقم منه وخرب قبره فى وادى الملوك . وقد حكم سابتاح ست سنوات تمكن خلالها من عمل قبر عظيم له ، ثم خلعه عن العرش الملك « سيتى الثانى » الذى حكم هو الآخر ست سنوات مات بعدها ميتة طبيعية . ويلوح أن سيتى كان ذا صلة بالبيت المالك القديم وربما كان أيضا نائبا

للملك فى السودان أثناء حكم سلفه . وبالرغم من ضعفه والجو المضطرب الذى عاش فيه فقد تمكن من تشييد بعض آثار فى مختلف أرجاء مصر ، كما شيد لنفسه قبراً فى طيبة بعد أن اغتصب لنفسه فى مبدأ الأمر قبر « سابتاح » و « تا - وسرت » . ورغم كل ذلك فقد بقى لمصر نفوذها فى النوبة وفلسطين وظلت جزية البلدين تأتى سنوياً إلى مصر .

لقد بدأت مظاهر التدهور تشمل البلاد منذ أواخر أيام رمسيس الثانى أى فى أعوام شيخوخته ، وزاد الطين بلة أن من خلفه على العرش كان شيخا مسنا وكان له إخوة وأخوات وأبناء إخوة وأخوات كثيرون ، وكان هؤلاء جميعاً ومعهم الحاشية وحكام البلاد والكهنة ذوى مطامع وأغراض ، ولم يجدوا من يستطيع أن يوقف كل واحد منهم عند حده ، ولهذا لا يدهشنا أن نرى هذا التغيير والتبديل فى الوصول إلى العرش ، فربما كان كل هؤلاء الذين وصلوا إلى الملك أو الذين كانوا يعاونونهم ويدفعونهم إلى الأمام من نسل الملك رمسيس الثانى .

ولنترك ذلك الآن لنرى ما حدث عند وفاة الملك « سيتى الثانى » . لقد خلفه على العرش وريثه الشرعى وإسمه « رمسيس سى بتاح » ، ولكن لم يكن فى إستطاعته أن يعمل شيئا ، ولهذا ظل بضع سنوات ثم إختفى من العرش وتمزقت البلاد شر ممزق وأخذ الحكام يحاربون بعضهم البعض ، وأعلن كثيرون من كبار حكام الأقاليم إستقلالهم ، وفى تلك الأيام المضطربة العصيبة تمكن شخص من أصل سورى إسمه « إرسو » من الوصول إلى العرش .

ونحن نعرف قصة تنصيبه لنفسه ملكا من بردية هاريس (١) عندما وصف رمسيس الثالث حالة البلاد المحزنة التى أنقذها منها أبوه « ست - نخت » ، فقد قال إن مصر غزيت من الخارج وظل الناس عدة سنوات دون حاكم عليهم ومرت سنوات إضمحلال كان الرجل فيها يذبح جاره » ، فتمكن هذا السورى من تنصيب نفسه ملكاً على مصر ، ونهب ممتلكات الناس وأهمل المعابد فغضبت عليه الآلهة وسلطت عليه رجلا إختارته وكان هذا الرجل هو « ست - نخت » . وهكذا نشأت عائلة جديدة وهى الأسرة العشرون التى وقع على أكتافها عبء كبير وهو إنقاذ البلاد مما هى فيه بعد أن وصل التفكك فى مصر إلى أسوأ الحالات .



شكل رقم ١٦ : صورة بارزة على الحجر الجيرى لأحد الضيوف فى مأدبة مصورة على جدران قبر الوزير «رع – موسى» الذى عاصر أيام الملك أمنحوتب الثالث وامتد به العمر إلى عهد إخناتون .



شكل رقم ١٧ : بعض سكان سورية القدماء يقدمون الأوانى الذهبية التى أتو بها من بلادهم هدية لملك مصر .



شكل رقم ١٨ : قد وصلت صناعة تلك الأوانى فى سورية فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى أوج تقدمها . وترى فى هذه الصورة أحد الزعماء وقد اصطحب معه ابنه الصغير . وهذان الرسمان من إحدى مقابر طيبة .



شكل رقم ١٩ : بعض الأتباع يحملون الأثاث لوضعه في القبر . صورة ملونة على أحد جدران مقبرة «رع موسى» من أواخر أيام الأسرة الثامنة عشرة .

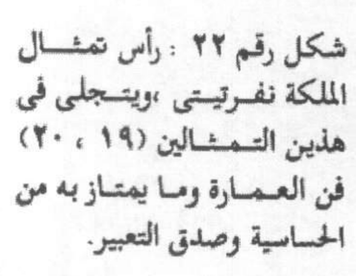


شكل رقم ٢٠ : النائحات من أهل «رع موسى» عند قبره ، وقد اشتد بهن الحزن عند رؤيتهن لتابوته قبل دفنه في القبر .

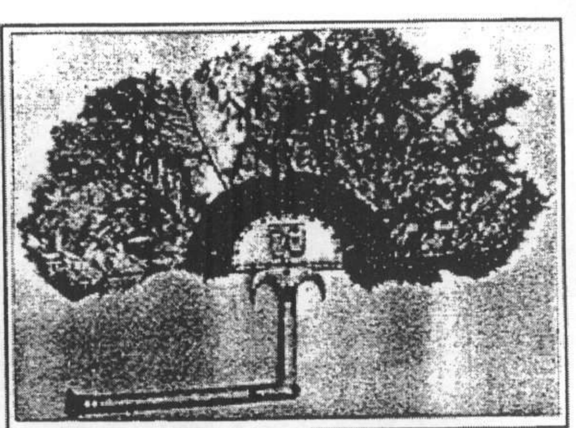


شكل رقم ٢١ : الجزء الأعلى من تمثال الملك إخناتون ، ذلك الملك الفيلسوف الذى دعا إلى عقيدة «آتون» وحارب تعدد الآلهة ، وكتب أجمل الأناشيد .

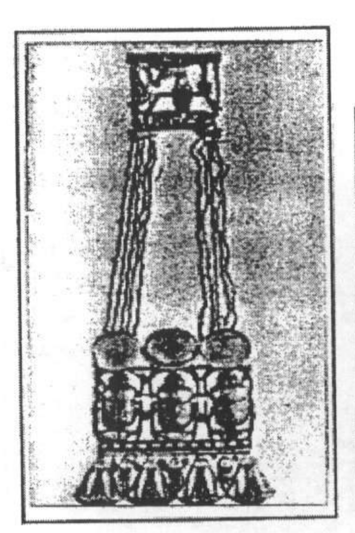




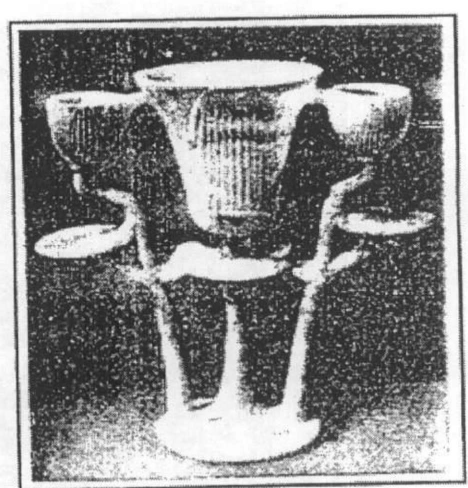
شكل رقم ٢٢ : رأس تمثال الملكة نفرتيتى ،ويتجلى فى هذين التمثالين (١٩ ، ٢٠) فن العمارة وما يمتاز به من الحساسية وصدق التعبير.



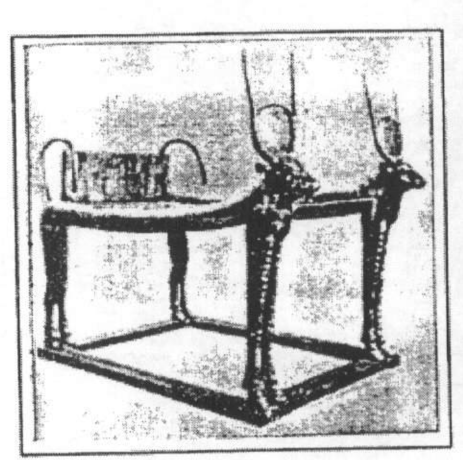
شكل رقم ٢٣ : مروحة من ريش النعام ويدها من العاج .



شكل رقم ٢٤ : عقد كبير من الذهب يحلى كلا من الصدر والظهر.

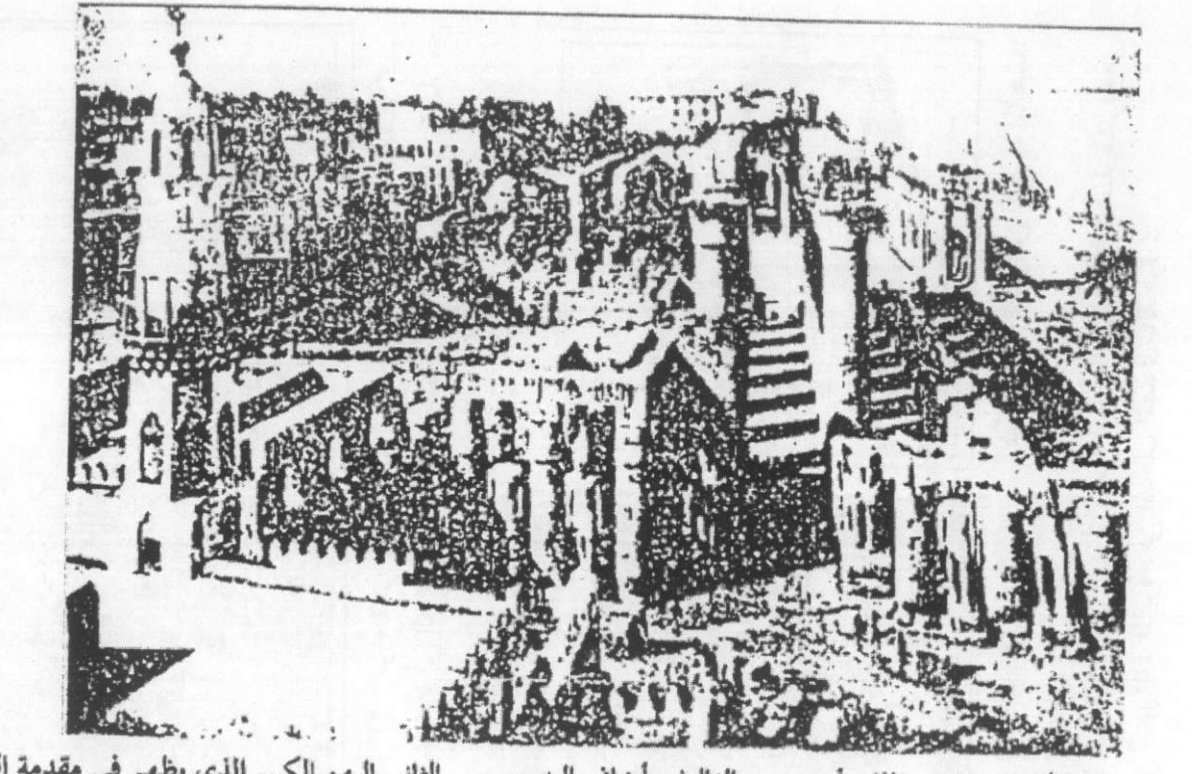


شكل رقم ٢٥ : إناء من المرمر

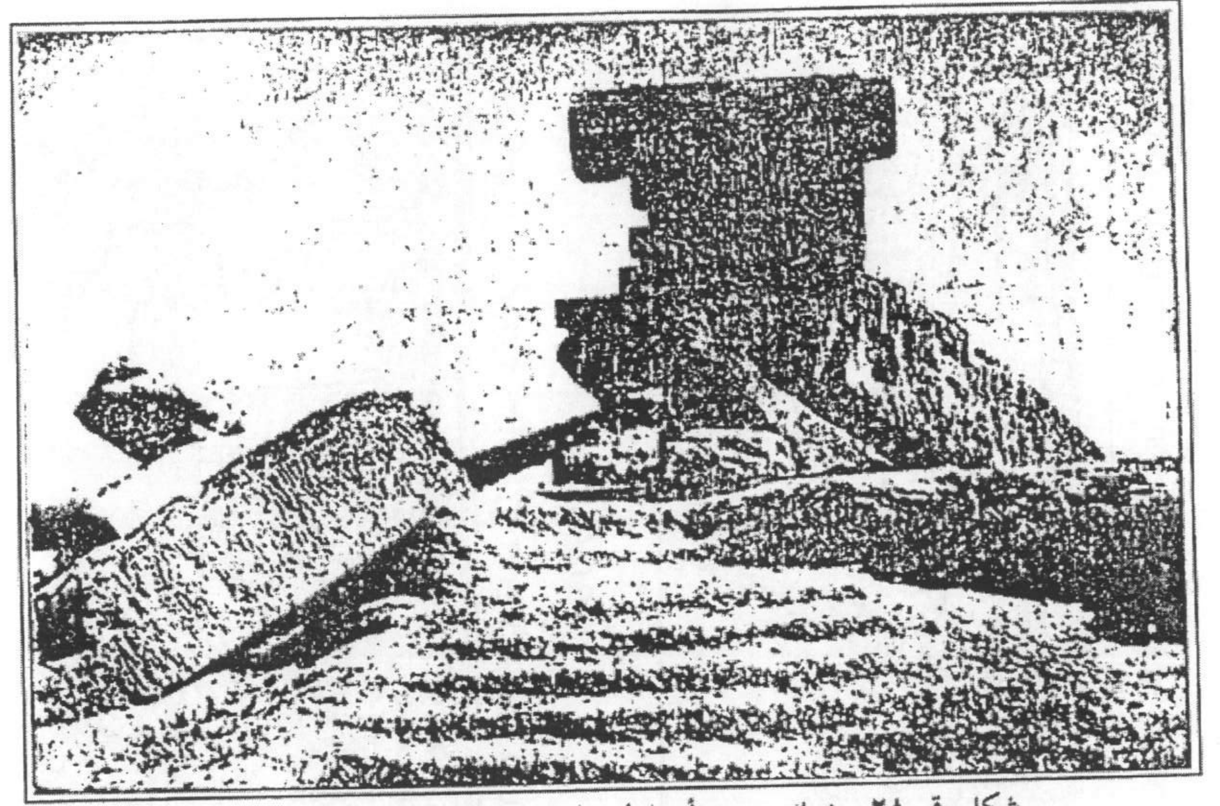


شكل ٢٦ : سرير من الخشب المذهب.

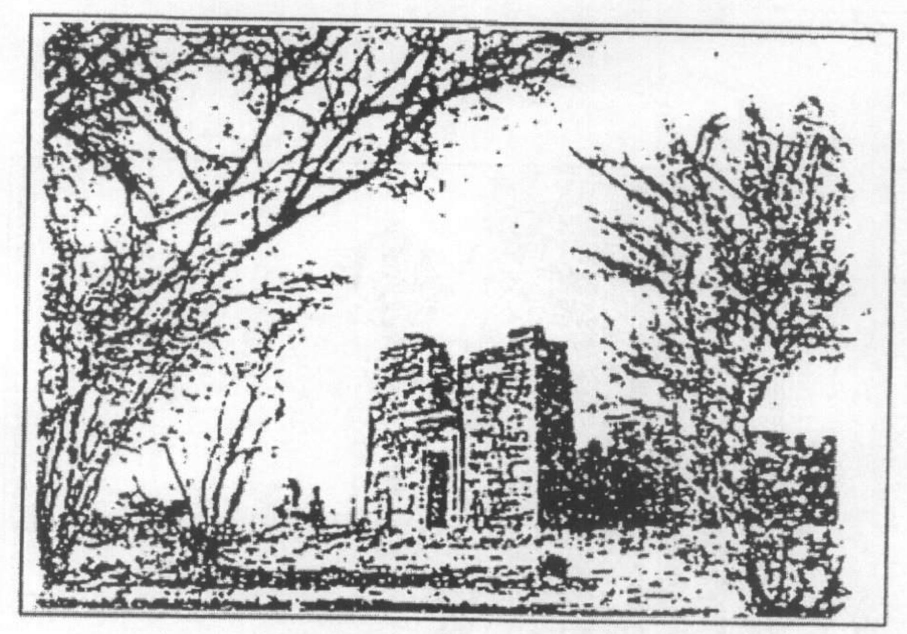
هذه كلها من مقبرة توت عنخ أمون من أواخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهى الآن مع غيرها من كنوز تلك المقبرة ، فى المتحف المصرى بالقاهرة .



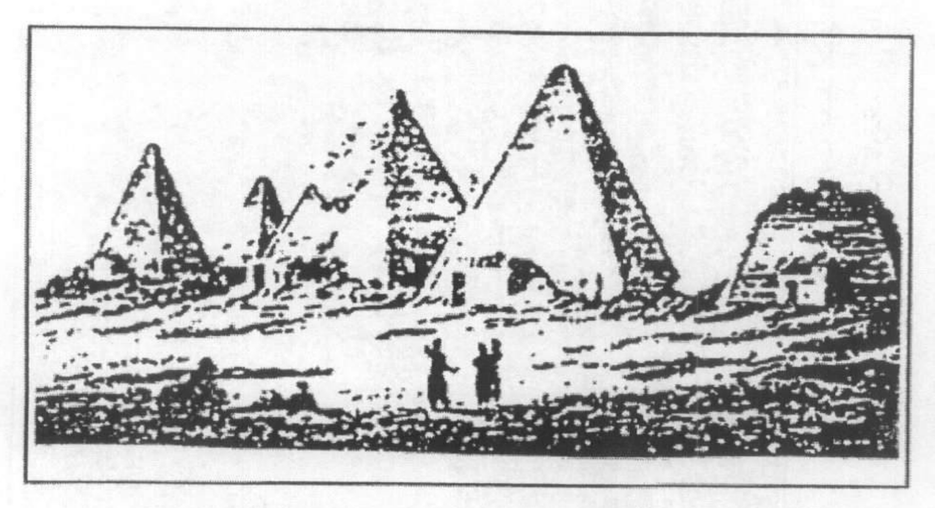
شكل رقم ٢٧ : معبد الأقصر . شيده الملك أمنحوتب الثالث وأضاف إليه رمسيس الثانى البهو الكبير الذى يظهر فى مقدمة الصورة وكذلك البيلون الأمامى للمعبد . ويمتاز معبد الأقصر بجمال نسبه واستقامة خطوطه وتوازن أعمدته . وعلى يسار الصورة مسجد «أبو الحجاج» الذى شيد قبل أكثر من سبعمائة سنة .



شكل رقم ٢٨ : خرائب معبد أمون فى واحة سيوة بالصحراء الغربية
ويرجع تاريخه إلى أيام الأسرة الثلاثين .



شكل رقم ٢٩ : معبد النجعة على مقربة من شندى فى شمالى السودان .
وهو من آثار العصر المروى .



شكل رقم ٣٠ : أهرام مروى بالسودان ، كما كانت فى عام ١٨٢٠ .

## الأســـرة العشـــرون

## (١١٩٥ - ١٠٨٠ ق.م.)

**رمسيس الثالث : ( ١١٩٢ - ١١٦٠ ق.م. )**

جاء إنقاذ مصر من ورطتها على يدى الملك ، ست نخت ، الذى لم يجلس على العرش أكثر من ثلاثة أعوام بين ١١٩٥ ، ١١٩٢ ق . م . وقد ترك منذ البداية لإبنه المسمى رمسيس إدارة البلاد . ولهذا فمن الجائز أن يكون ، ست نخت ، هذا هو أحد الأمراء المتقدمين فى السن من البيت المالك القديم جمع حوله الناس وأراد تخليص البلاد مما آلت إليه ، وكان إبنه رمسيس هو الرأس المدبر والمنفذ لجميع الإصلاحات فى الوقت الذى كانت فيه مصر فى أشد الحاجة إلى من كان مثله .

وحكم رمسيس الثالث إثنين وثلاثين عاما كانت فى الواقع فترة صحو بين عهدين فاسدين ، وسنرى أن جميع جهوده أثمرت فى البداية ولكنه عندما تقدمت به السن بدأت عوامل الانحلال مرة أخرى تظهر من جديد .

أشرنا عند الحديث عن نهاية الأسرة التاسعة عشرة إلى ما ورد فى بردية هاريس خاصا بالسورى ، إرسو ، والإشارة إلى غزو أجنبى لمصر ، وليس المقصود من هذا أن إرسو جاء على رأس جيش من سورية لإحتلال مصر وإنما كان ذلك ناتجاً عن أحد أمرين أولهما احتمال حدوثه بسبب هجرة من هجرات الشعوب التى كانت تعيش فى الناحية الشرقية من مصر وفى غربها ، والتى كانت منذ عهد رمسيس الأول تواقة إلى الإستيطان فى وادى النيل ، فكانت هذه الهجرة سببا فى إضطراب الأمور فوق ما كانت عليه من إضطراب ، أما الفرض الثانى فهو أنه ربما كان إرسو من زعماء الجنود المرتزقة الذين كانوا فى الجيش ، جمع حوله رجاله وحاول الإستيلاء على السلطة لمصلحته فمنذ أيام تل العمارنة ، بل وقبل ذلك ، نعرف أن الأسيويين بدأوا يفدون إلى مصر ويستقرون فيها وكان منهم فى عهد إخناتون ورجال ذوو نفوذ فى البلاط ، وتبعهم منذ أيام الفتوحات وإحضار الأسرى عدد آخر ، وكذلك عندما إستعان بهم ملوك الأسرة التاسعة عشرة وبخاصة رمسيس الثانى فى الجيش .

كان الشرق القديم مسرحاً للمتاعب فى ذلك العهد ، وقد رأينا ما سببته هجرات الشعوب الهندو - أوروبية من نكبات ، ورأينا أيضا أن بعضها جاء وإستقر فى آسيا وقضى على مملكة ، خيتا ، فى النهاية ، والبعض الآخر إستقر فى ليبيا ، وتمكنت

« خيتا » بتحالفها مع مصر إيقاف الكارثة إلى حين ، ولكن السيل كان أقوى مما تتحمله جدرانها فلم تلبث أن إنهارت مقاومتها . أما مصر فقد ظل لها حتى عهد رمسيس الثالث نفوذها فى فلسطين وفينيقيا وإن كان لم يبق لها نفوذ ذو شأن فى سورية أو غيرها من البلاد .

وكان من حسن حظ مصر أن الدرس القاسى الذى لقنه مرنبتاح لهذه الشعوب نجح فى إيقاف محاولاتها للإستيلاء على مصر من ليبيا لوقت غير قصير ، ولهذا لم تحاول الإستفادة من الموقف بعد وفاته أو حتى فى السنوات الأولى من حكم رمسيس الثالث ، فلما إستأنفت هذه الشعوب مهاجمتها لمصر من ليبيا كان رمسيس الثالث قد أعاد تنظيم أمور بلاده وأصبحت البلاد بفضل إصلاحاته قوية متماسكة .

ولكن قبل هذه الحملة الليبية التى كانت فى السنة الخامسة من حكمه وجد رمسيس الثالث نفسه مضطراً لإخماد ثورة فى بلاد « أمورو » كما تشير إلى ذلك نقوش معبد مدينة هابو التى تتحدث عن زعيم أمورو الذى « أصبح لا شىء وانقطعت ذريته » .

**حروبــه :**

فى السنة الخامسة من حكمه هجم جيش كبير من الليبيين وحلفائهم من « السپد » و « والماشوش » من الشعوب الهندو – أوروبية على مصر . أما السبب فى هذا الهجوم فربما كان راجعاً إلى تدخل رمسيس الثالث فى شئونهم الداخلية ومساعدته لأحد الليبيين الذين كانوا يعيشون فى مصر ليكون حاكما عليهم . وسواء أكان ذلك هو السبب الرئيسى أو أن غزوهم كان تكرارا للمحاولات السابقة منذ عهد سيتى الأول ، فإن الليبيين وحلفاءهم من « شعوب البحر » هزموا شر هزيمة على حدود الدلتا الغربية عندما كانوا فى طريقهم إلى منف . ولو تتبعنا دروب الصحراء لوجدنا أن هذه المعركة إما أن تكون قد حدثت على مقربة من الفرع الكانوبى أى فى نهاية الطريق الساحلى ، أو عند « كوم أبو بللو » وهى إحدى المدن المصرية المهمة فى ذلك العهد وأمام الدرب الموصل من الصحراء إلى الدلتا عن طريق وادى النطرون . وقد ذكرت لنا نصوص معبد مدينة هابو أن جثثهم أصبحت أكواما وأن رمسيس الثالث أخذ من بينهم أسرى كثيرين وزعهم على الحصون المختلفة ليعملوا فيها .

**حملة السنة الثامنة :**

ثم حدثت بعد ذلك معركة أخرى مهمة كانت دون شك أهم أعماله الحربية وأبعدها أثراً فى حياة مصر . فقد إجتاحت الشعوب الهندو – أوروبية ( شعوب البحر )

بلاد خيتا وبلاد قدى ( بين آسيا الصغرى وشمال سورية ) وإحتلت كيلكيا وقبرص وإستولت على مدينة قرقميش على الفرات ، وكانت هذه الشعوب فى تلك الهجرة العظيمة مؤلفة من « البلست » و « التكرات » و « الشاكا روشا » و « الداينونا » و « الوشاش » وكلها شعوب هندو – أوروبية جاءت فى موجة من موجات الهجرة ، وجاء بعضهم بطريق البر ، ومعهم نساؤهم وأطفالهم على عربات تجرها الثيران ، والبعض الآخر على سفن حربية . ولم يهمل رمسيس الثالث فى دفع هذا الخطر فإستعد له وجمع أسطولاً كبيراً كما جمع جيشاً برياً وسار لملاقاة أعدائه الذين كانوا فى طريقهم إلى مصر من ناحية الشرق . وقد حفظت لنا جدران معبد مدينة هابو صوراً مفصلة لهذه المعارك من برية وبحرية وهى تمثل لنا صوراً من أول صدام بين مصر والشعوب الأوروبية . نرى فيها الصراع الميت بين المتحاربين ، ونرى كيف نجح المصريون فى القضاء على أسطول هذه الشعوب كما نجحوا أيضاً فى تمزيق الجيش البرى الكبير . وكانت أولى نتائج هذا الانتصار دحر هذه الشعوب وإنقاذ مصر من خطر مؤكد لم يكن يقل عن الخطر الذى تعرضت له عند غزو الهكسوس إن لم يزد عنه ، ولم تنقذ مصر نفسها فقط بل أنقذت غربى آسيا معها ، إذ أن فلول الأساطيل المتحالفة لم تقم لها بعد ذلك قائمة ولم يصبح لمن بقى حياً من جيوشهم أى كيان تاريخى .

## حملة العام الحادى عشر :

وإذا كان رمسيس الثالث قد تمكن فى حملة العام الثامن من القضاء نهائياً على قوة شعوب البحر فى آسيا فإن قوة هذه الشعوب وحلفائهم الليبيين ظلت بعد حملة السنة الثامنة على تماسكها ، وها هم مرة أخرى يعيدون تنظيم أنفسهم وخاصة شعب « الماشوش » ويهاجمون مصر تحت إمرة إبن زعيم ليبيا المسمى « مششر » فى العام الحادى عشر من حكمه . فوقفت جيوش مصر تصد هذا الغزو فأوقعت بالقادمين هزيمة كبرى على حدود الدلتا وإرتدوا إلى الصحراء فتبعتهم الجيوش المصرية نحو عشرين كيلو متراً وأفنت منهم عدداً كبيراً ، وأسرت كثيرين كان من بينهم « مششر » نفسه ، وبهذا تخلص رمسيس الثالث من أعدائه فى الغرب كما تخلص من أعدائه فى الشرق وإستطاع أن يقضى بعد ذلك وقتاً هانئاً يعيد فيه تنظيم أمور البلاد .

## حملة أسيوية أخرى :

ولم يغب عن ذهن رمسيس بعد إطمئنانه على حدوده الغربية أنه من الضرورى أن يعيد لمصر أملاكها فى آسيا ، وأن يؤمن حدوده ويطهر سورية وفلسطين

من بقايا شعوب البحر الذين عساهم أن يكونوا قد استقروا هناك . وقد ذكر أخبار حملته هذه على جدران معبده فى مدينة هابو ونعرف منها أنه حاصر خمس مدن حصينة ، ربما كانت قادش واحدة منها ، وإذا لم تكن النصوص المصرية وقوائم أسماء البلاد المقهورة فيها شيء من المبالغة أو أنها منقولة عن قوائم أخرى من الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة فإن رمسيس الثالث يكون قد وصل إلى الفرات وهو حد كانت مصر قد فقدته منذ عهد طويل .

أما « شعوب البحر » فقد تفرقت ، وإستقر بعضها كسكان مسالمين فى كثير من نواحى البحر الأبيض المتوسط وأصبحت أسماء بعض هذه الشعوب علما على البلاد حتى الآن ، ومنهم البلست مثلا الذين أصبح اسمهم يطلق على فلسطين منذ ذلك العهد ، والشردان الذين أصبحت جزيرة « سردينيا » تسمى باسمهم ، و« تكر » الذين من المحتمل أن يكونوا أعطوا إسمهم لجزيرة صقلية وغيرهم . وإذا كانت هذه الشعوب قد فشلت فى مصر فإنها نجحت فى أمكنة أخرى مثل بعض بلاد الساحل فى آسيا الصغرى وعلى ساحل فينيقيا حيث أمكنهم التغلب على طروادة وعلى إسرائيل .

ولا شك أن هذه الحروب المتتالية كانت عبئاً على خزينة مصر ، ولكن البلاد استطاعت أن تصمد للتجربة وأمكنها بعد ذلك أن تعوض جزءا مما فقدت وتملأ خزائنها من ممتلكاتها الأسيوية ومما وقع فى أيديها من مغانم أثناء الحروب ، ومما أخذ يتدفق على هذه الخزائن من مناجم الذهب والمعادن الأخرى التى أعيد العمل فيها ، ولكن هذا كله لم يسد ما فتحه إسراف الملك ولهوه من ثغرات فأخذت الحالة الإقتصاذية تتدهور فى النصف الثانى من حكمه .

**نظرة عامة :**

بنى رمسيس الثالث معبده فى مدينة هابو وبنى أمامه مدخلا على شكل قلعة أسيوية ، وبنى إلى جواره قصراً لسكناه . وأغدق عليه وعلى جميع معابد مصر الهبات من أوقاف وأراض ومال . ونحن إذ نقرأ تفاصيل هذه الهبات فى بردية هاريس ، ونعرف مدى ثراء كهنة المعابد وسلطانهم وما كان لديهم من أرقاء يعملون فى الأراضى الخاصة بالمعابد ، فإننا لا نملك منع أنفسنا من التفكير فى مدى أثر هذا الثراء على نظام الدولة من ناحية ، وعلى الدخل القومى من ناحية أخرى . فقد كان للإله أمون – رع وحده ثروة طائلة ، إذ كان مجموع أراضيه نحو ١٠ ٪ من أراضى البلاد المزروعة ( جميع الآلهة الأخرى كانوا يملكون ٥ ٪ أخرى ) وكان لآمون ٨٦,٥٠٠ من الأرقاء الذين يعملون فى أراضيه ، وكان له خمسة قطعان من الماشية

لا يقل مجموعها عن ٤٢١,٠٠٠ رأس كما كانت له حدائق فى طول البلاد وعرضها ، وكثير منها فى الواحات ، كما كانت له مناجم الذهب فى النوبة . وكانت له تسع مدن فى سورية تأتيه محاصيل أراضيها وضرائبها بانتظام ، وغير ذلك من الموارد ، وأهمها ما يقدمه أفراد الشعب وما يقدمه الملوك ، فلا عجب إذا أصبح كهنة آمون هم القوة المسيطرة على شئون البلاد .

ولم يكن رمسيس الثالث وحده هو المسئول عن إغداق هذه الثروة على الكهنة ولكنها كانت ، فى الحقيقة ، ثروة تكدست على المعابد منذ أجيال ولم يكن فى وسع أحد من الفراعنة أن ينتقص شيئاً منها بل كان كل منهم يبذل جهده لإرضاء الكهنة فيزيد عليها حتى يضمن مؤازرتهم وعدم تآمرهم عليه .

لم تكن هذه المسألة هى الحالة الوحيدة الشاذة فى البلاد ، بل كانت هناك حالات أخرى لا تقل عنها أثراً ، ومنها إبتداء تولى الأجانب وظائف الدولة العامة وبخاصة فى البلاط . ونعرف على سبيل المثال أنه كان حول رمسيس الثالث فى قصره أمناء أجانب عديدون لهم السلطان الأكبر عليه ، كما ملأوا قصره فى آخر أيامه بالفتيات الجميلات سواء من أسرى شعوب البحر أو من الأسيويات أو المصريات . وكان يقضى أوقاته بينهن كما نرى ذلك فى الصرح الأمامى المشيد أمام معبد مدينة هابو ، إذ نرى على جدرانه فى الطابق العلوى رسوما تمثل رمسيس الثالث وهو يداعب فتياته أو يلاعبهن لعبة الداما وغير ذلك من ألعاب التسلية .

وهكذا انصرف رمسيس الثالث عن تقوية ملكه واستمع إلى نصيحة من أحاطوا به من الأجانب والمتملقين حتى صار من بين الأحد عشر أمينا فى القصر الملكى خمسة غير مصريين ، أحب الاستماع إلى نصيحتهم له فى الإكثار من الإستعانة بالجنود المرتزقة الأجانب ليكونوا عونا له ضد المصريين الذين أخذوا يئنون من الحالة ، وبخاصة من الأزمة الاقتصادية التى سببت ارتفاعاً كبيراً فى أسعار الجنوب بصورة لم يكن للشعب عهد بها من قبل . ساءت الحالة الاقتصادية حتى إضطر عمال الجبانة فى طيبة إلى الاضراب عن العمل؛ لأن مقرراتهم لم تصرف لهم لمدة شهرين من العام التاسع والعشرين من حكم الملك . توقف العمال عن عملهم وحاولا أن يلفتوا نظر رؤسائهم إلى حالتهم دون جدوى . وفى اليوم التالى تجمعوا وهاجموا مخازن معبد الرمسيوم وهم يصيحون بأنهم جائعون ، وعند ذلك اضطر كبار الموظفين إلى محاولة تهدئتهم . وتكرر الإضراب بعد ذلك مرات حتى اضطر الوزير أن يتدخل لإعطائهم ما يستحقونه . وتعطينا هذه الوثيقة فكرة عما آلت إليه حالة البلاد من

فوضى كما تعطينا أيضاً فكرة عن مدى رحمة كهنة المعابد بالفقراء من الناس الذين كانوا على وشك الموت جوعا بينما تكدست الحبوب وأكوام الذهب فى مخازن آمون . كان الكهنة أول من يسمع صياحهم دون أن تتحرك فيهم ذرة من عطف ، بل إننا نعرف من هذه الوثيقة نفسها أن رجال الدين كانوا سوط عذاب على الفقراء . ففى أحد أيام الإضطراب تجمع المتظاهرون خلف معبد مرنبتاح وأخذوا يصيحون ، نحن جائعون ، ، وتصادف أن مر عمدة المدينة فوعدهم بالمساعدة وأرسل إليهم خمسين غرارة من الحبوب من مخازن معبد الرمسيوم ليسعفوا بها أنفسهم حتى يأمر الملك بصرف استحقاقاتهم لهم ، ولكن بعد أيام قليلة وصلت شكوى ضد هذا العمدة من كبير كهنة آمون بأنه قد أخذ دون وجه حق من ممتلكات معبد رمسيس الثانى ليطعم المضربين ، ووصف كبير الكهنة عمله ، أن ما فعله جريمة كبرى، (١) وهكذا كانت تسير الأمور ، فالكهنة يكدسون الأموال ويظلمون الشعب ، والموظفون يستغلون كل موارد الدولة لمصلحتهم ، والملك سادر فى ملذاته ، والأجانب يتحكمون فى شأن الدولة ، ولهذا لا ندهش إذا قام أحد وزراء رمسيس الثالث بثورة ضده فى الدلتا كان مركزها فى ، أتريب ، ( بنها ) ولكن الثورة لم تنجح . وبالرغم من أنها كانت إنذاراً له فإنه لم يتعظ وبدأ أهله أنفسهم يحسون أن حياته أصبحت خطراً على البلاد أو أنه أصبح لا قيمة له فدبروا مقتله .

وقد عرفنا تفاصيل هذه المؤامرة من بردية هاريس . لقد دبرتها إحدى زوجاته لأنها أحست أن الملك لا يريد أن يجعل من إبنها ، بنتاؤور ، وليا للعهد ، ولهذا صممت على قتل الملك العجوز وإعلان إبنها ملكا ، وكان يعاونها فى تدبيرها إثنان من كبار موظفى القصر كانت مهمتهما جمع الأنصار فى البلاد وخارج القصر . ولسنا نعرف مدى نجاح المؤامرة فى الخارج ولكنا نعرف أنه بعد قتل الملك قبض على المتآمرين وكان مع الملكة ( تتى ؟ ) وبنتاؤور الموظفين الكبيرين فى البلاد عشرة آخرون من الموظفين وكذلك ست نساء كن واسطة بين الملكة وشركائها فى الخارج .

ومن أوراق التحقيق فى هذه القضية نعرف أنه كان من بين الأربعة عشر موظفا الذين تكونت منهم المحكمة أربعة من الأجانب . وظهر أثناء نظر القضية أن

ثلاثة من القضاة قضوا سهرة تناولوا فيها الخمر ومعهم ضابطان من الشرطة فى منزل أحد المتهمين حيث اجتمع هناك نساء بعض المتآمرين ، وكانت نتيجة هذه السهرة أن إنتقل القضاة الثلاثة من كراسى القضاء إلى قفص الإتهام . أما الأحكام التى صدرت عليهم فإن الأمير بنتاؤور وثلاثة من المتآمرين حكم عليهم بالإعدام ، وكانوا يتركون وحدهم فى غرفة المحاكمة لينهوا حياتهم بأيديهم ، وبرىء أحد القضاء أما القاضيان الآخران وضابطا الشرطة فحكم عليهم بجدع الأنف وصلم الأذنين فانتحر أحد القضاة عندما سمع الحكم عليه ، أما المتآمرون الآخرون ومنهم الملكة « تتى ؟ » فلا نعرف العقاب الذى وقع عليهم .

وهكذا انتهت حياة رمسيس الثالث بكارثة ، ولكن إنصافا للرجل يجب ألا ننسى أنه كان فى صدر أيامه آخر الملوك العظام الذين حاربوا ولم يفرطوا فى الإمبراطورية ، وكان أيضاً آخر البنائين الذين تركوا آثاراً خالدة على الدهر ، فإن معبد مدينة هابو من خير ما شيده ملوك الدولة الحديثة .

لقد أنقذ رمسيس الثالث البلاد من فوضى كانت غارقة فيها ، وكانت الخمسة وعشرون عاما الأولى من حكمه أيام مجد نسبى فى حياة مصر . ولن ينسى له التاريخ أنه أنقذ بلاد الشرق القديم ، وليس مصر فقط ، من خطر داهم كان كفيلا بالقضاء على جميع المدنيات ، مثل ما حدث فى خيتا وفى الهند ولكنه انتصر ودون إنتصاره ، فكانت مناظر حروبه ومناظر المعركة البحرية وهى أول معركة بحرية كبرى مسجلة فى العالم وأول معركة بين مصر وأوروبا ( ١١٨٤ ق.م. )

ومات رمسيس الثالث عام ١١٦٠ ق.م. ونفسه مملوءة بالحسرة على جحود الناس وتلاه على عرش مصر ابنه رمسيس الرابع .

**خلفاء رمسيس الثالث :**

كانت وفاة رمسيس الثالث فى عام ١١٦٠ وكانت نهاية الأسرة العشرين فى عام ١٠٨٠ أى أن خلفاء رمسيس الثالث وهم من رمسيس الرابع حتى رمسيس الحادى عشر حكموا ثمانين عاما . لقد رأينا مبادىء الانهيار فى الجزء الأخير من حكم رمسيس الثالث فلا عجب بعد ذلك أن تسير الأمور من سىء إلى أسوء ، وأن يظل سلطان الملوك يتضاءل شيئا فشيئا حتى أصبحوا ألعوبة فى يد الكهنة . وأخيراً حدث ما لابد من حدوثه وهو إستيلاء الكهنة على العرش وتأسيسهم للأسرة الحادية والعشرين ، وإعلان كبير كهنة أمون ، وكان إسمه « حريحور » ملكا على مصر .

كان هؤلاء الملوك الرعامسة متشابهين فى ضعفهم وفى خضوعهم لسلطان

الكهنة وفى عجزهم عن التغلب على الأزمة الإقتصادية التى بدأت تطحن البلاد ، ومتشابهين أيضاً فى عدم إستطاعتهم إيقاف الفوضى والإنحلال فى جميع مرافق الدولة وظلم الموظفين للطبقات الفقيرة .

كان هؤلاء الملوك يعيشون فى قصورهم فى شرقى الدلتا تاركين إدارة شمال البلاد للوزير فى منف ، وكان هناك وزير آخر فى طيبة ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد كهنة أمون . أما عن نفوذ مصر خارج حدودها فإننا نستطيع أن نقول إنه أخذ يقل تدريجيا فى آسيا حتى اقتصر على فلسطين ، ثم أخذ يتضاءل أيضا حتى زالت هى الأخرى كبلد تابع لمصر ، ولكن ظل نفوذ مصر فى بلاد النوبة كما كان عليه من قبل ولم يتأثر بما كان حادثا فى البلاد . ورغم إقامة الملوك فى الدلتا فإنهم ظلوا على عادتهم فى إتباع التقليد القديم وهو الدفن فى طيبة ، وظلت مدينة العمال فى دير المدينة على عمرانها ، وقد عثر فيها على كثير من الوثائق سواء من الملفات البردية أو الأوستراكا وقد أمدتنا بالقبس الذى نعرف عن هذا العصر المظلم (١) .

ولم يكن الرعامسة الثمانية من رجال الحرب أو رجال الإصلاح ولهذا قلما نسمع عن أحد منهم خبرا اللهم إلا إشارات عابرة مثلما تحدثت به بردية هاريس أو بردية مالت عن أعمال رمسيس الرابع وما قام به من إصلاحات وإنشاءات فى المعابد، أو تصميم مقبرته فى إحدى برديات متحف تورين أو العمل فى محاجر الصحراء . ولكن أهم ما جاء من عهده هى البرديات التى تفيض بأنباء الفوضى والإنحلال فى البلاد ، والسرقات والرشاوى فى إيرادات الدولة على السواء . وتلاه رمسيس الخامس فلم يكن خيراً من سابقه وأهم ما وصل إلينا من عصره بردية ولبور الشهيرة التى نعتبرها مصدراً مهماً لدراسة الضرائب وتقسيم الأراضى فى ذلك العهد بوجه خاص ، وفى عصر الدولة الحديثة بوجه عام (٢) .

وتلاه رمسيس السادس وأهم آثاره قبره فى أبواب الملوك ومقبرة « بن نوت » فى عنيبة ببلاد النوبة ، وقد حكم هذا الملك أربع سنوات فقط ولكنه ترك اسمه فى كثير من بلاد مصر وشمالي السودان ، وتلاه كل من رمسيس السابع ثم الثامن ثم التاسع وكانت أيامهم جميعاً أياماً سوداء فى تاريخ مصر وإن كان رمسيس التاسع قد إشتهر فى التاريخ فإن ذلك بسبب برديات سرقات مقابر الملوك فى عهده ، وكان ذلك نهاية ما يمكن أن يصل إليه إضطراب الأمور . ولكن قبل أن نتحدث عن قضية سرقة المقابر يحسن بنا أن نلقى نظرة عامة على الحياة الاقتصادية والروح المعنوية فى البلاد لنعرف الأسباب التى أدت إلى هذه الحالة .

لقد رأينا بدء الأزمة الإقتصادية فى السنين الأخيرة من حكم رمسيس الثالث وكيف كان إرتفاع أثمان الحاجيات ، وبخاصة القمح ، سببا فى إضراب العمال إذ أن السعر العادى لغرارة القمح كان يعادل « دبن » من النحاس ولكن الأسعار إرتفعت فى ذلك العهد قليلا فكان هذا دليلا على إضطراب الحالة الإقتصادية فى بلد زراعى. وظل إرتفاع السعر بتلك النسبة القليلة حتى منتصف أيام رمسيس السادس ولكن منذ هذا العهد أخذت الأسعار ترتفع إرتفاعاً جنونياً فأصبح ثمن غرارة القمح ٢ دبن بعد أن كان ثمنها ١,٥ دبن ، ثم إرتفعت مع مرور الوقت إلى ٤ دبن وكذلك إرتفع ثمن الشعير فأصبح ثمن الغرارة الواحدة منه ٨ دبن فى عهد رمسيس السابع ولكن القمح عاد مرة ثانية إلى ٥ دبن فى عهد رمسيس التاسع . أى أصبحت البلاد فى حالة إفلاس وأضحى صغار موظفى الحكومة وعمالها فى حالة ضنك شديد لا يجدون ما يسد رمقهم ، فلم يبق أمامهم إلا السرقة والرشوة اللتين أصبحتا القاعدة فى كل شىء ، خصوصا وأن المحاكم أصبحت لا قيمة لها إذا كانت الكلمة العليا فى كل شكوى هى ما يحكم به الإله . فإذا إتهم أحد الناس شخصا آخر بسرقة فإن المتشاكيين يذهبان إلى المعبد ويضعان ورقة أمام تمثال الإله ويطلب الكاهن من ذلك التمثال أن يحكم بينهما . ويبلغ الكاهن المتقاضين بعد ذلك بما حكم به الإله وهو حكم نهائى لا رجعة فيه ، ولا يعتمد إلا على شىء واحد وهو الحصول على إقناع كهنة المعبد قبل التقدم بالشكوى أو عند عرضها . وكانت وسيلة ذلك واحدة لا تتغير فالإله يحكم لمن يستطيع أن يثبت أنه شخص تقى وذلك بتقديم ما يستطيع تقديمه للكهنة . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، أى أن القضايا التى كان يفصل فيها الكاهن هى الشكايات أو المنازعات بين الأهالى ، بل وصل الأمر بهم أن تعيين الموظفين فى وظائفهم ومحاكمة المذنبين منهم ترجع أخيراً إلى وحى آلهة المعابد وحكمهم ، وبعبارة أخرى لم يكن هناك ضمان للعدل فى وقت مضطرب كريه ، وكان فى استطاعة المرتشين السارقين أن

يستمروا فى ذلك طالما كانوا مطمئنين إلى حسن صلتهم بكهنة المعبد أو المسيطرين عليه ، وكانوا يؤكدون صداقتهم من آن لآخر بما يقدمونه لهم من هدايا وغيرهم .

ولذلك لا يدهشنا أن نرى أثر هذا الانحلال يتسرب إلى جميع مرافق الدولة ، وكان من الصعب على العمال الجائعين الناقمين أن يناموا على الطوى بينما كان على مقربة منهم كنوز مكدسة من الذهب والفضة وغيرها من النفائس ، فى مقابر الأفراد ومقابر الملوك والملكات .

بدأت سرقـــات المقابر منذ عـهـد غير قصير ولكنها زادت جداً فى عهد الرعامسة ، وكانت فى البداية فى مقابر الأفراد ثم تعدتها إلى مقابر الملوك . ولم يكن ما حدث فى البر الغربى سراً بل كان يحدث علناً؛ لأن السارقين كانوا مطمئنين إلى أن المسئولين سيغمضون أعينهم طالما أنهم يأخذون ثمن إغضائهم وسكوتهم ، إلى أن لعب الحسد دوره بين حاكم شرقى طيبة وبين حاكم غربى طيبة الذى كان مسئولا عن الأمن وصيانة المعابد والمقابر . كان كل من الرجلين يريد الحظوة لدى الوزير ولهذا لم يتردد ، پاسر ، حاكم الشرق فى التقدم بتقرير ينبه بالحالة السيئة التى وصلت إليها الجبانة التى يشرف عليها زميله ، پاورعا ، . وكانت هناك تحقيقات أولية ، وعوينت المقابر فوجدت اللجنة أن ما قاله پاسر غير حقيقى ، لأن تسع مقابر من مقابر الملكات الأربع سليمة وإعترف التقرير بأن محتويات مقابر الأشخاص كانت مبعثرة وملقـاة على وجه الأرض . وتركزت نتيجة التحقيق فى أن پاسر شخص كاذب ، واعتبر ، پاورعا ، أن هذه النتيجة تبرئة له ولرجاله فاحتفلوا بذلك إحتفالاً كبيراً وعبروا النيل إلى البر الشرقى وهتفوا هتافات عدائية أمام بيت پاسر وحدثت مشادة كلامية قدم على أثرها ، پاورعا ، تقريراً للوزير ضد ، پاسر ، وفتح التحقيق من جديد فاكتشف المحققون هذه المرة أشياء خطيرة وإعترف بعض المتهمين تحت تأثير تعذيبهم بالحقيقة ، كما ذكر الشهود ما سمعوه وما رأوه وقد دون كل ذلك فى تلك البردية . ومن هذه البردية المعروفة باسم بردية ، أبوت ، نقف على كثير من تدهور الحياة الإجتماعية فى ذلك العهد ونظام التحقيق والقضاء ، ولكن أهميتها الكبرى فيما يمكن أن نقف عليه من معلومات عن المقابر التى سرقها اللصوص وموقعها فى الجبانة بالنسبة إلى بعضها البعض وإلى المعابد الكبيرة ، وهى معلومات ساعدت وستساعد رجال الآثار فى أبحاثهم وحفائرهم فى هذه الجبانة المهمة .

وأهم شخصية فى تحقيقات سرقة المقابر كانت شخصية كبيرة كهنة آمون أمنحوتب الذى كان له النفوذ الأكبر فى طيبة ، وهو كبير الكهنة الذى نرى إسمه

ظاهراً واضحاً فى معبد الكرنك والذى بدأ بتقليد جديد إذ نرى كبير الكهنة مرسوما على قدم المساواة مع الملك ، ولم يكن فى ذلك ما ينافى الحق فى شىء بل أن الملك كان بكل تأكيد أقل نفوذاً وجاهاً ومالاً من كبير كهنة آمون ، ولكن التقاليد كانت حتى ذلك الحين تجعل الملك مقدماً على كل من يحيط به ، وإليه ينسب كل فضل وإذا رسم على معبد أو على حائط قبر فهو مارد يتسامى فى طوله ، وكل من حوله يرسمون فى حجم صغير .

ولكن « أمنحوتب » الذى كان يجمع إلى عمله ككبير للكهنة فى جميع المعابد المصرية أعمالاً هامة أخرى مثل إشرافه على خزانة فرعون ووظيفة حامل خاتم الملك لم يكن فى حاجة إلى هذا التملق ، فحصل لنفسه من رمسيس التاسع على حق جباية أموال آمون وضرائبه بوساطة كتبة المعابد وليس بوساطة موظفى الدولة ، وكانت هذه الإيرادات تدخل رأساً إلى خزانة المعابد ولا تمر بخزانة الدولة ، وهكذا وضع « أمنحوتب » الأساس للسياسة التى انتهت بإستيلاء الكهنة على العرش (١) .

وخلف رمسيس التاسع ، بعد حكم طال ثمانية عشر عاما رمسيس آخر وهو رمسيس العاشر ، ثم تلاه رمسيس الحادى عشر الذى طالت مدة حكمه حتى وصلت إلى الثلاثين عاما .

ووقعت فى تلك السنين بعض أحداث هامة وظهرت فى البلاد فكرة لتطهير الدولة من أدرانها وسميت هذه الفترة بعصر النهضة ، حرفيا : « تجديد الولادة » وقد بدأ ذلك العصر فى السنة التاسعة عشرة من حكم هذا الملك (٢) ، وربما كان الموحى بهذه الفكرة هم كهنة آمون الذين أرادوا لمصر أن تبدأ عهداً جديداً أساسه الحكم الدينى وكان التاريخان يكتبان جنبا إلى جنب . فنرى أن العام التاسع عشر من حكم رمسيس الحادى عشر يوافق العام الأول ، وفى وثيقة أخرى ( نقش على الجدار الخارجى الشمالى من قاعة العيد فى معبد أمنحوتب الثانى بالكرنك بين البيلونين التاسع والعاشر ) أن السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك نفسه توافق العام السابع من

عصر النهضة ولكن هذا العصر لم يدم أكثر من تسع سنوات لأننا نرى فى ختام ذلك الوقت أن كبير الكهنة « حريحور » أصبح ملكاً على مصر .

كان حريحور من رجال الجيش ، ومن المرجح أنه كان من نسل الكهنة ، وفى الوقت ذاته ممن كانوا يتصلون بنسبهم إلى البيت المالك القديم ، وكان فى وقت من الأوقات حاكما للسودان ، وأخيراً وصل إلى الملك . وليس من المستغرب أن يكون الكهنة قد وصلوا إلى الملك ولكن الأمر المستغرب أن يظل الكهنة فترة طويلة منذ عهد رمسيس التاسع حتى نهاية عصر رمسيس الحادى عشر دون إتخاذ هذه الخطوة .

ظلت الأسرة العشرون نحو خمس عشرة ومائة سنة على العرش فقدت فيها مصر أملاكها فى آسيا ، ولكن نفوذها فى بلاد النوبة ظل كما كان من قبل ، لأن مناجم الذهب كانت ملكاً لأمون ، وكانت خيراتها تأتى إلى معابده . وكان كبار كهنته يحسنون إختيار الحكام ويمدونهم بكل ما يكفل لهم السلطة فى أقاليمهم وإشتهر من بينهم فى هذه الفترة العصيبة أكثر من فرد واحد مثل پانحسى الذى إستدعاه الملك مرة لإخماد فتنة فى الشمال ، ومثل حريحور الذى أصبح مؤسس أسرة الكهنة فيما بعد [1] .

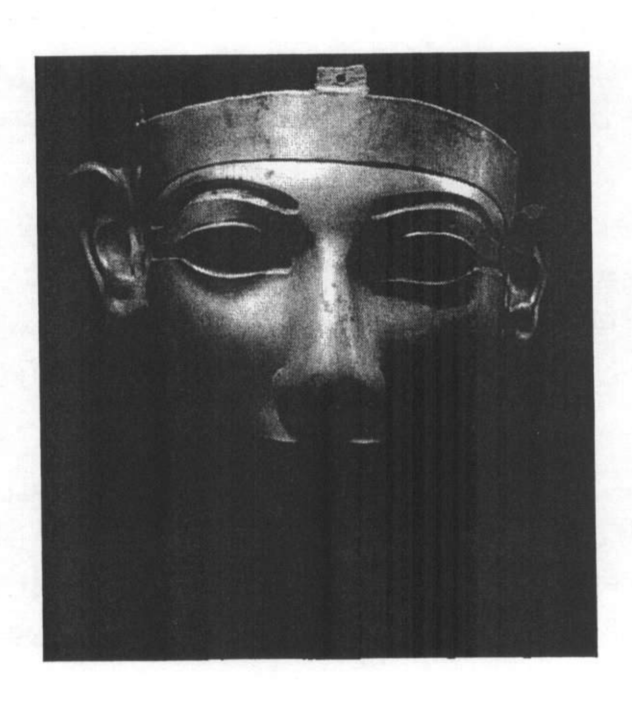
وفى معبد خونسو بالكرنك نستطيع أن نرى بوضوح كيف تطور الأمر . فمنذ تعيين حريحور كبيرا للكهنة جمع إلى سلطته كمدبر الخزانة وقائد الجيش جميع عناصر القوة فى البلاد . فنراه فى مبدأ الأمر يذكر إسم الملك بإحترام على النقوش ثم نراه يضع إسمه إلى جانب إسم مولاه وبعد ذلك نراه يقدم إسمه على إسم الملك نفسه ، وينتهى الأمر بأن نراه وحده يحمل تاج الوجهين القبلى والبحرى فوق جبينه ويتسمى بألقاب الفراعنة . وهكذا إنتهت الدولة الحديثة بإنتهاء الأسرة العشرين ودخلت مصر بحق فى فترة اضمحلال وهى الفترة التى بدأت فى الواقع منذ أواخر أيام رمسيس الثالث .

# الفصل الثاني

## العصر المتأخر
## أيام الاضمحلال (١٠٨٠ – ٧١٥ ق.م.)

### الأسرات الواحدة والعشرون حتى نهاية الرابعة والعشرين

- الأسرة الحادية والعشرون (١٠٨٠ – ٩٥٠ ق.م.)
- الأسرة الثانية والعشرون (٩٥٠ – ٨١٧ ق.م.)
- الأسرة الثالثة والعشرون (٨١٧ – ٧٣٠ ق.م.)
- الأسرة الرابعة والعشرون (٧٣٠ – ٧١٥ ق.م.)



**شاشانق الثاني**

# العصـــر المتـــأخر
# أيام الاضمحلال ( ١٠٨٠ - ٧١٥ق. م. )

xxxxx

## الأسرات الواحدة والعشرون حتى نهاية الرابعة والعشرين
## الأسرة الحادية والعشرون ( ١٠٨٠ - ٩٥٠ )

**حريحور وعائلته :**

أعلن حريحور نفسه ملكا وحكم فى طيبة ، ولكنه كان إذ ذاك شيخا طاعنا فى السن ولم يعمر طويلا ، ولسنا نعرف عن أيام حكمه إلا القليل مما خلفه فى طيبة وبخاصة بدؤه بالعناية بالمقابر الملكية التى اعتدى عليها اللصوص ، فقد أمر بإعادة دفن بعض الملوك الذين جردهم اللصوص من أكفانهم . ولكن فى الوقت الذى كان يحكم فيه حريحور فى طيبة كان هناك ملك آخر فى الشمال يحكم فى مدينة « تانيس - صان الحجر » فى شرقى الدلتا وكان لهذا الأخير ، وإسمه « نسو با نب دد » وهو المعروف بإسم « سمندس » ، الكلمة العليا على الدلتا وعلى مصر الوسطى حتى أسيوط على الأرجح .

ولسنا نعرف حتى الآن شيئا عن أصل سمندس أو صلته بالبيت المالك القديم اللهم إلا أن زوجته « تانت آمون » كانت من العائلة المالكة ، وأصبح لزوجها حق تولى العرش بعد زواجه منها كالمعتاد وليس هناك دليل على حدوث إحتكاك بين البيتين المالكين فى الشمال والجنوب بل نكاد نجزم بأن سمندس ، وهو الذى كان أقوى وأكثر نفوذا ، لم ينظر إلى عمل حريحور كأنه عمل عدائى .

ولم تمض إلا سنوات قلائل حتى مات حريحور وخلفه فى طيبة إبنه « بعنخى » الذى كان فى وقت من الأوقات حاكما للسودان الشمالى وكان قائدا للجيش، فلم يدع الملك كأبيه وإنما إحتفظ لنفسه فقط بمنصب كبير كهنة آمون وإعترف بأحقية البيت المالك فى تانيس فى الجلوس على العرش .

ومضت الأيام وازدادت الصلة بين ملوك تانيس وكهنة آمون ، وكان سمندس

قد مات وخلفه على العرش الملك بسوسينس الأول ، باسبا أن خع نوت ، فوثق البيتان الصلة بينهما بأن تزوج بينزم أكبر أولاد بعنخى من ( ماعت كارع ) بنت بسوسينس . فما جاء اليوم الذى مات فيه بسوسينس الأول أعلن نفسه ملكا كما فعل حريحور من قبل ، وعند ذلك ترك لإبنه ، ماساهرتا ، وظيفة كبير الكهنة . ولكن هذا الإبن لم يلبث إلا فترة قصيرة مات بعدها فتولى أخوه ، منخبر رع ، مكانه ، وكان ذلك فى عهد الملك ، أمن إم أوبت ، الذى كان يحكم فى تانيس وكان ذلك بين العام السادس عشر والعام الخامس والعشرين من حكم هذا الملك .

وكان كبير الكهنة ، منخبر رع ذا شخصية قوية عرف بدهائه كيف يخضع ثورة قامت بها طيبة ونفى بسببها كثيرون من أهلها إلى الواحات الخارجة ، فأراد مصالحة الأهالى وقبل أن يعودوا إلى وطنهم بناء عن وحى إلهى طبعاً – كما أصدر أمره بأن رغبة الإله آمون هى ألا ينفى أحد مرة أخرى . وجاء الوقت الذى أعلن فيه ، منخبر رع ، نفسه ملكا ويرى بعض المؤرخين أنه تسمى بإسم بسوسينس الثانى ، وهكذا استمر الحال بين تانيس وطيبة إلى أن انتهت أيام الأسرة الحادية والعشرين ، فقد كان يقيم الملك فى شرقى الدلتا ويحكم كبير الكهنة فى طيبة ، ولا شك أن مثل هذه الحالة المرتبكة لم تساعد على استقرار الأمور أو تنقذ مصر مما كانت تعانيه . والوثائق التى تحت أيدينا عن هذا العصر قليلة ، ويحتار المؤرخ فى التوفيق بين ما يقرؤه فيها . وبدأت حفائر تانيس منذ عام ١٩٣٩ تلقى بشىء من الضوء على هذا العصر ، وساعدتنا على حل بعض النقط ولكن مازالت هناك نقط غيرها ننتظر ما عسى أن يظهر فى تلك المنطقة أو غيرها من معلومات .

وفى تلك الفترة المضطربة نجد أمامنا ثلاثة موضوعات مهمة فى التاريخ لابد من الإشارة إليها ولو بشىء من الإيجاز .

### رحلة الكاهن ، ون – أمون ، إلى لبنان : [١]

ليس هناك ما هو أدل على إنهيار نفوذ مصر فى آسيا مما حدث لهذا الكاهن فى رحلته إلى لبنان ليحصل على شىء من خشب الأرز اللازم لتجديد سفينة الإله آمون فى طيبة . فقد إنتهى الوقت الذى كان يسجد فيه أمراء غربى آسيا أمام ملك مصر ويمرغون جباههم فى التراب طالبين منه أن يمنحهم نسيم الحياة ، وإنتهت أيضا تلك

الأيام التى كان فيها سكان تلك البلاد يبادرون لتلبية أى إشارة تأتى من مصر ، فقد كان آخر عهد فلسطين وفينيقيا بالنفوذ المصرى أيام أن كانت جيوش رمسيس الثالث تجوس خلال تلك البلاد وتحميها من إذلال ، شعوب البحر ، وحبهم للنهب وسفك الدماء . وها نحن الآن فى عصر الملك سمندس وأيام أن كان حريحور فى طيبة أى لم يكد يمر سبعون عاما على موت رمسيس الثالث حتى نرى مبعوث مصر عرضة للسخرية بل وللسرقة منه ، فإذا ما أشار إلى حق مصر وحق آمون لم يجد إلا إبتسامة الإستهزاء من حاكم جبيل الذى رفض مساعدته بعد أن نهبه اللصوص ، وأخذوا الأشياء التى كانت معه والتى جاء بها ليقدمها ثمناً للأخشاب التى كان يود الحصول عليها . سافر الكاهن ، ونأمون ، من طيبة إلى تانيس حيث حصل على معونة الملك ، نسوبانبدد – سمندس ، وأقلع فى سفينة تجارية يملكها بحار سورى . وسرق ما معه جماعة من شعب ال ، ثكل ، ومن بينها الأوانى الفضية التى كان يريد أن يقدمها هدية إلى أمير جبيل . وأثناء سفره بالبحر من صور إلى جبيل وجد معه جماعة من ال ، ثكل ، ورأى إحدى غرائرهم وكانت تحتوى على فضة وزنها ٣٠ دبناً . ولما كان بعض أفراد من هذا الشعب هم الذين سرقوا منه ٣١ دبناً فإنه أخذ هذه الغرارة رهينة عنده . وعندما وصل الجميع إلى جبيل تقدم بالشكوى إلى أميرها ، زكر بعل ، طالباً حمايته واسترداد حقه . ووجد هذا الأمير أن ذلك معناه حدوث متاعب له مع الآخرين الذين كانوا قراصنة فى البحر الأبيض المتوسط وكانت لهم قوة ، وفى الوقت ذاته كانوا جيرانا له . ورفض أمير جبيل أن يستقبله وطلب منه مغادرة بلده . وأقام الكاهن المسكين تسعة عشر يوماً فى الميناء وفى كل يوم يسمع ما يسيئه ويأمرونه بالرحيل والعودة إلى مصر . وكان ونأمون قد أحضر معه تمثالا للإله أمون معتقداً أن وجود هذا التمثال معه سيذلل الصعاب ولكن تقديره قد خاب فلم يعتن أحد بأمون أو يأبه له من بين الرجال الرسميين . ولكن يلوح أن ما أصاب الكاهن حرك الشعور الدينى عند بعض الناس فأصابت أحد الشبان نوبة . وأخذ يتحدث وهو فى نوبته العصبية طالباً إحسان معاملة أمون ورسوله وأن يقدموا الإحترام لتمثال أمون فاتح الطريق . وقبل ،زكر بعل، أن يقابل ونأمون وإتفق معه على أن يرسل الكاهن خطاباً إلى سمندس طالبا أن يرسل له شيئاً من المال . فلما عاد الرسول أمر أمير جبيل بإرسال ٣٠٠ من رجاله معهم ٣٠٠ ثور لقطع الأخشاب وإحضارها . فلما جاء وقت رحيله كان أعداؤه القدماء من شعب الثكل واقفين له بالمرصاد لينتقموا منه عندما يغادر الميناء فأخذ ونأمون يبكى ويندب حظه . وأراد أمير جبيل أن يرفه عنه فأرسل إليه طعاما ومعه مغنية مصرية لتسرى عنه بأغانى وموسيقى بلده . وفى اليوم التالى تمكن الأمير من

إقناع أهالى الشكل بإن يتركوه وشأنه حتى يغادر الميناء . وسواء أكانت نجاته بحيلة بارعـة من ذلك الأمـيـر أو لم تكن ، فإنه إستطاع أن يهـرب من أعـدائه ولكن ريحـاً مضادة إضطرته للإلتجاء إلى جزيرة قبرص وهناك كاد يقتله أهلها . ووجد أخيراً من إستطاع أن يتفاهم معه باللغة المصرية كما إستطاع أن يترجم بينه وبين ملكة قبرص التى عطفت عليـه عندمـا عـرفت قصتـه . وإلى هذا الحـد من القـصـة يقف النص المحفـوظ الذى وصل إلينا ، ولسنا نعرف بعد ذلك كيف وصل ونأمـون إلى مـصـر ، ولكننا ندرك من القصة ما وصلت إليه هيبة مصر فى فينيقيا وفى غيرها . وهذه القصة مثل من خير الأمثلة لسهولة القصة المصرية وحسن تصويرها ، وما يتخللها من مواقف الدعاية وتعطينا صورة عن أدب هذا العصر إلى جانب الصورة التى توضحها لنا عن حالة مصر المحزنة إذ ذاك .

**خبيئة الدير البحرى :**

وإن كان لملوك الأسرة الحادية والعشرين حسنة من الحسنات فهذه الحسنة هى عنايتهم بإصلاح ما حدث من إعتداءات على مومياوات الملوك السابقين فى فترات الضعف والانحلال منذ عهد الملك رمسيس التاسع . وبالرغم من أن بعض الباحثين حاول أن يلصق بالكهنة تهمة تشجيع سرقة المقابر للحصول على الذهب فإنه لا يمكننا قبول هذا الإتهام بسهولة فإننا نعرف أن هؤلاء الكهنة بذلوا كل ما فى وسعهم لإعادة دفن الملوك ، وأخذوا ينقلون مومياواتهم من مكان إلى مكان حتى جمعوها أخيرا فى مكان واحـد فى إحدى المقابر القديمة على مـقربة من الدير البـحـرى . وكـان الكاهن الأكبـر الذى نفذ هذا المشروع العظيم هو بينزم الذى جـعل من هذا المكان مستـقـراً لمومياوات أسلافه وما بقى من رفاتهم الأصلية ، وكذلك مومياوات أجداده الأقربين كهنة وكاهنات آمون . واقتفى من جاءوا بعده أثره فى تكديس المومياوات فى هذا المكان . واحتفظ الزمن بهذه الوديعة الغالية مذ الأسرة الواحدة والعشرين حتى عام ١٨٧١ عندما تمكن بعض لصوص الآثار من عائلة عبد الرسول فى قرية القرنة من معرفة هذا المكان وإستطاعوا أن يضللوا جميع الناس إذ ظل الأمر سرا بين ثلاثة إخوة كانوا يذهبون فى أوقات متباعدة دون أن يشعر بهم أحد لنقل جزء مما هناك يعيشون منه حتى يذهبوا مـرة أخرى ، فلم يدخلوا المكان إلا ثلاث مـرات فى عشر سنوات . وأخـذت آثار ملكيـة بين تماثيل وأوراق بردية ، تظهـر فى أسـواق أوربا ومـصـر ، وأجمعت التحريات على أن مصدرها جميعا هو أحد أفراد عائلة عبد الرسول وشخص آخر هو وكيل قنصل إنجلترا فى الأقصر الذى كانت تحميه الإمتيازات الأجنبية . ولم ينجح التحقيق أو التهديد فى حمل عبد الرسول على الإعتراف أو حمل أهل القرنة أو

التجار الآخرين على تقديم أى دليل يساعد المحققين ، فإضطر المحققون للإفراج عنه مؤقتا .

وهنا حدثت المعجزة . فقد خرج هذا الشخص مزهواً وطالب بأن يكون له النصف جزاء ما لاقاه من سجن وتعذيب . وإختلف الإخوة فيما بينهم وتشاجروا فأبلغ أحدهم وهو محمد عبد الرسول مدير قنا بأنه مستعد للاعتراف ، وأرشد عن المكان .

وجاء رجال مصلحة الآثار ، ولم يكن أحد فى العالم يحلم بما كان هناك . ففى هذا المكان الموحش استقرت مومياوات الفراعنة العظام أمثال سقننرع وأحمس وتحوتمس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى وغيرهم وغيرهم ، آلاف السنين ، وهذه هى المومياوات الملكية التى توجد الآن فى المتحف المصرى ، أما البرديات وغيرها من الآثار التى تعد بالآلاف فقد كانت جزءاً من محتوياته .

وبعد ذلك بسنوات قليلة أرشد محمد عبد الرسول نفسه عن مكان بكر فى داخل حدود معبد الدير البحرى وهناك عثروا على مقبرة كبيرة مملوءة بتوابيت الكهنة والكاهنات وهى المجموعة العظيمة الموجودة فى المتحف المصرى الآن ويرجع تاريخها إلى ذلك العهد . وفى عام ١٩٣٤ كشفت أعمال مصلحة الآثار عن مكان آخر فيه توابيت إحدى عائلات الكهنة من الأسرة الواحدة والعشرين أيضاً ، ومن بينها مومياوات وتوابيت « نسپاقاشوتى » وعائلته .

**اكتشاف مقابر صان الحجر :**

وكأن الحظ أبى إلا أن يحالف هذه الفترة من تاريخ مصر ، فكما إحتفظت الأيام بسر الكهنة وبقيت خبيئة الدير البحرى إلى عصرنا الحاضر حيث أمكن إنقاذ الجزء الأكبر منها ، فإن هذه الأيام كانت كريمة أيضاً وذلك بإحتفاظها بمقابر بعض ملوك الأسرة الواحدة والعشرين حتى عام ١٩٣٩ ، عندما عثر عليها أعضاء بعثة الحفرة الفرنسية التى كانت تعمل فى صان الحجر ( تانيس ) مقر ملوك هذه الأسرة .

وكان من ضمن المقابر التى وجدت سليمة لم تمسسها يد مقابر الملك بسوسينس الأول ومقبرة الملكة « موت نزمت » زوجته كما وجد إلى جانب قبر هذا الملك قبر كبير الكهنة ورئيس الرماة فى عهده واسمه « أوندباد ندد » ، وعثر كذلك على مدفن الملك « أمنمأوبت » وغيره من الأمراء .

وبالرغم من أنه معروف لنا أن هذا العصر كان وقت إنحلال وتدهور فإن الأشياء التى عثر عليها وبخاصة الحلى الذهبية قد أثبتت أن الذوق الفنى والمهارة فى صناعة الحلى لم تتدهور فى مصر . كما أن كميات الذهب والفضة التى دفنت مع هؤلاء الملوك تثبت غناهم الكبير ، ويكفى لزائر المتحف المصرى أن يدخل قاعة تانيس ويرى ما عثر عليه فى هذه المقابر ليقف على الكثير مما يذهله ويأخذ بتفكيره .

وقبل أن نترك تاريخ هذه الأسرة ونتحدث عن نشأة الأسرة الثانية والعشرين يجدر بنا أن نضع فى ذهننا أن ترتيب ملوك هذه الأسرة من الأمور التى لم يتفق عليها علماء الآثار إتفاقا كاملا حتى الآن ، وربما كان حظنا فى معرفة ترتيب كبار كهنة آمون فى طيبة خيرا من حظنا من معرفة تتابع ملوك تانيس بالرغم من حفائر صان الحجر الأخيرة ومحاولات المسيو مونتيه لترتيبهم .

وليس أمامنا من سبيل غير الاكتفاء بما لدينا من معلومات عن هذا العصر المضطرب حتى يحين الوقت لظهور وثائق جديدة تزيد من معلوماتنا عن ترتيب هؤلاء الملوك وبخاصة فى أواخر أيام الأسرة .

## الأسرة الثانية والعشرون ( ٩٥٠ - ٧٣٠ ق.م. )

### أصل ملوك الأسرة :

منذ فجر التاريخ المصرى كان غربى الدلتا هدفا لهجرات أفراد أو جماعات من سكان ليبيا ، ونعرف منذ أيام الملك « نعرمر » مؤسس الأسرة الأولى أنه حاربهم وإنتصر عليهم . وإستمرت هذه المحاولات والغزوات الصغيرة طيلة التاريخ المصرى ولكنها لم تأخذ صورة عنيفة إلا فى عهد ملوك الأسرة التاسعة عشرة عندما هدفت هجرات بعض الشعوب الهندو - أوروبية إلى محاولة الاستقرار فى الدلتا بعد غزوها ، وقد وقع عبء صد غزوات هذه الشعوب على عاتق الملكين مرنپتاح ثم رمسيس الثالث كما أسلفنا .

ولكن قبل أن يتولى الملك مرنپتاح الحكم كان بعض هؤلاء الشعوب ، الذين كانوا إستقروا فى ليبيا وفى غيرها من البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، قد أخذوا طريقهم إلى الجيش المصرى كجنود مأجورين ، ثم أخذ عدد هؤلاء الجنود المأجورين فى الإزدياد وإتخذ بعض الملوك من بينهم رجال حرسه وبعض موظفى بلاطه ، ثم مهد هؤلاء الطريق لأبناء جلدتهم وخصوصا من شعب « الماشوش » للحضور والإقامة فى مصر فى حاميات فى طول البلاد وعرضها . وهكذا حصلت هذه الشعوب التى كانت فى ليبيا بطريق السلم على ما لم تنله بطريق الحرب ، وأصبح للكثير من زعمائهم مكان مرموق .

ويعنينا من أمر هؤلاء الزعماء أو رؤساء « ما » العظام ( إختصار لكلمة ماشوش) شخص واحد إسمه « شاشانق » عرفنا إسمه من حادث إرتبط به ، فى أواخر أيام رئيس الكهنة « پينزم » . فقد كان شاشانق يعيش فى ذلك الوقت فى بلدة « إهناسيا » كزعيم لعائلة قوية هناك ، وقد مات إبن له يسمى « نمرود » فدفنه فى أبيدوس . وحدث إعتداء على قبره فذهب « شاشانق » شاكياً إلى الملك فى تانيس فإهتم بالأمر وسافر بنفسه إلى طيبة ومعه الشاكى ليستمعوا إلى حكم الإله آمون فى ذلك الأمر ، فحكم وحى الإله بإدانة الجناة وأرسل الملك ، ترضية للشاكى ، تمثالا بإسم إبنه ليوضع فى معبد أوزيريس فى أبيدوس .

وليس هناك شك فى أن هذا الحادث يوضح لنا أمرين مهمين : أولهما قوة بعض العائلات التى من أصل ليبى ومحاذرة الملك وكبير الكهنة من إغضابهم ،

والأمر الثانى أن هؤلاء الليبيين كانوا قد تمصروا تمصيرا تاما وإعتنقوا ديانة المصريين وأصبحوا كغيرهم من سكان البلاد .

ولكن يحق لنا أن نتساءل مرة أخرى عن « شاشانق » ، هذا وعن أصله والجواب يأتينا عن طريق لوحة أقامها كاهن من إهناسيا ووضعها فى السرابيوم ،[1] وفيها نسبه الذى ينتمى إلى هذه العائلة ومنها نعرف أن شاشانق والد نمرود كان من أسرة ليبية إستقرت وقتا ما فى إحدى واحات الصحراء الغربية ( على الأرجح الواحات البحرية ) ثم نزحت إلى أهناسيا وإستقرت فيها منذ ستة أجيال ، وهى تنحدر من شخص يسمى « يويوواوا » الذى كان يعاصر أواخر أيام الرعامسة . وكانت هذه العائلة قد بدأت تمصرها فى الواحات ولهذا لم يمض غير قليل حتى أصبح « موسن بين يويوواوا » أحد كهنة الإله « حرى شف » رب مدينة إهناسيا ، وقد بقى هذا المنصف الكهنوتى فى العائلة التى أخذت تثرى ويزداد نفوذها . ونجح شاشانق الذى تحدثنا عنه فى حصوله على مركز رئيس الحامية الحربية الليبية فى المنطقة ، وبذلك جمع فى يده السلطتين الدينية والحربية . ولم يطل عمر « نمرود » إبن « شاشانق » ليؤدى عملا هاما ولكن إبنه وكان يسمى « شاشانق » مثل جده ، وكان طموحا فمد سلطانه حتى الدلتا وأصبحت تل بسطة ( برياستت – الزقازيق ) مركزاً له ، وهذا هو السبب الذى حدا بمانيتون إلى القول بأن هذه الأسرة أصلها من تل بسطة . ولكن شاشانق هذا لم يقم بثورة لخلع الملك « بسوسينس » الثانى بل إنتظر حتى مات ميتة طبيعية فتقدم يعاونه غيره فإستولى على العرش فى تانيس ولم يظهر أى عداء للبيت المالك بل إنه كرم ذكرى سلفه وأتم ما لم يتم من أعماله ، وزوج ولى عهده وكان يسمى « أوسركون » من إبنة بسوسينس وكانت تسمى « ماعت – كا – رع » ليجعل مركز العائلة شرعياً من جميع الوجوه .

ومن هذا نرى أنه بالرغم من أن أجداد هذه العائلة كانوا غريبين عن البلاد إلا أنه كان قد مضى عليهم ستة أجيال بعد تمصيرهم وإعتناقهم الديانة المصرية . ولم يكن لهؤلاء الملوك وطن آخر يعرفونه ، أو يعتمدون فى حكمهم للبلاد على قوة أخرى ، أو ينقلون خيراتها أو يفرضون جزية لبلد أخر على الشعب . ولهذا فإنه من التجنى على التاريخ أن يسمى وجود أفراد هذه الأسرة على عرش البلاد أنه إستعمار ليبى أو أن مصر فقدت إستقلالها وأصبحت محكومة بغير أبنائها . ففى كثير من بلاد

الأرض فى الأزمان الغابرة وفى وقتنا الحاضر عائلات ملكية من أصل أجنبى ، ولكن لم يقل أحد أن إنجلترا محكومة بالألمان أو أن اليونان وبلجيكا وهولندا وغيرها مستعمرات ألمانية أو أنها فاقدة لإستقلالها؛ لأن ملوكها الحاليين من أصل ألمانى غير وطنى .

**الملك شاشانق الأول : ( ٩٥٠ - ٩٢٩ ق.م. )**

لم يجد شاشانق الأول صعوبة فى إستيلائه على الملك فى الشمال ولكن كهنة آمون فى طيبة لم يرحبوا بهذا التعبير الذى رأوا فيه ما يهدد مركزهم وثروتهم . ولم تكن هناك مندوحة من حدوث صدام بينهم وبين أى شخص يريد الحد من سلطانهم ، ولهذا لم يعترفوا لشاشانق فى بداية حكمه بملك مصر بل أنه كان فى نظرهم « رئيس « ما » العظيم : شاشانق ، كما كتبوه على لوحة مؤرخة فى السنة الثانية من حكمه إذ ورد إسمه كما ذكرنا دون الألقاب الملكية . ولكن لم يمض غير قليل حتى حدث التصادم وفر كثير من هؤلاء الكهنة إلى السودان وإستقروا فى مدينة نبتا ولم يطل بهم الزمن حتى أسسوا أسرة ملكية هناك ، كما نفى بعض منهم إلى الواحات الخارجة .

ولنترك شاشانق يوطد من سلطته ويصلح ما إستطاع من الإصلاح لتوحيد البلاد وتنقية إدارتها من نفوذ كهنة آمون ، ونلقى بنظرنا نحو الشرق لنعرف ماذا كان يحدث على حدود مصر ، وصلة مصر بما كان يجرى هناك من أحداث . لقد رأينا أثر هجرات الشعوب الهندو - أوروبية على غربى آسيا ، ورأينا كيف إستطاع رمسيس الثالث أن ينقذ مصر من شرورها وينقذ ممتلكاتها ، ولكن خلفاءه الضعاف لم يستطيعوا السيطرة على هذه الممتلكات فسرعان ما تفككت إلى دويلات صغيرة وأخذت بعض الشعوب الهندو - أوروبية مثل البلست ( الفلسطينيين ) يستقرون على الشاطىء ، كما بدأت شعوب أخرى تستولى على الموانىء ، وفى الوقت ذاته أخذت قبيلة إسرائيل تغير على البلاد وتوطد لها ملكا جديدا فى فلسطين . ونحن نعتمد فى دراسة هذه الفترة من تاريخ غربى آسيا على رواية التوراة وعلى القليل من الآثار ومنها نعلم أن مصر لم تقطع علاقاتها نهائياً بتلك البلاد بل أن تجارتها إستمرت مع الموانىء فى أيام الأسرة الواحدة والعشرين ، كما نعرف أيضاً أنه فى أواخر أيام هذه الأسرة لم تقف مصر بعيدة عن الأحداث التى كانت تجرى على حدودها .

ظهر الملك داوود فوحد الأسباط وكون مملكة إسرائيل ، وكان لابد له من شن الحرب على من قاوم سلطانه ، وأرسل قائده اليهودى « يوآب » ليؤدب إدوم ففر أميرها وإسمه « هدد » ملتجئاً إلى مصر ، ومعه عدد من رجاله ليفر من المذبحة ، فوجد كل

ترحاب من ملك مصر الذى كان على الأرجح پسوسينس فأنزله فى قصر خاص ورتب له المرتبات وأقطعه ورجاله أرضا ليعيشوا من خيراتها ، بل زاد ملك مصر على ذلك بأن زوجه من أميرة مصرية كانت أختا لزوجته .

وبناء على رواية التوراة أيضا نعرف أن ملك مصر لم يكن على علاقة سيئة بملوك إسرائيل فإن سليمان إبن داوود خلف أباه على العرش وكانت علاقته بالبلاط المصرى على خير حالة ، وكانت تجارته آمنة بفضل مصاهرته لملك مصر الذى أعطاه إحدى بناته زوجة له . ومن قصة التوراة أيضاً نعرف أن الملك المصرى ( على الأرجح پسوسينس ) هاجم جنوبى فلسطين ( كنعان ) وإستولى على مدينة « جزر » وأحرقها ثم أعطاه هدية أو مهراً لإبنته عند زواجها .

وحكم سليمان وقتا طويلا على عرش إسرائيل ومكنته صلته بمصر ومصاهرته لبيتها المالك من الحصول على المهندسين والفنانين الذين إشتركوا مع الفينيقيين فى بناء هيكله الشهير فى أورشليم ، وجمع سليمان ثروة عظيمة من التجارة ، وبخاصة تجارة الخيول ، وظل طيلة حياته على صلته الودية كما كانت ، ولكن هذه الصلة لم تمنع ملوك مصر من النظر إلى مصلحتهم الخاصة إذ أننا نعرف أيضا أن صلة سليمان بملك مصر لم تمنع الأخير ، وكان شاشانق الأول ، من أن يرحب بعدو سليمان وهو « يربعام » الذى كان يرى نفسه أحق بمملكة إسرائيل منه ؛ لأن يربعام كان من سبط إفرايم ، فلما مات سليمان عاد يربعام إلى فلسطين وحدث إنشقاق كبير فلم يتبع « رحبعام » بن سليمان إلا سبطان من الأسباط الإثنى عشر وتبع يربعام عشرة منها .

وليس هناك شك فى أن نجاح يربعام كان بسبب تأييد مصر ومناصرتها له ، ولهذا لا نعجب إذا ظل يربعام موالياً لها ، ولا نعجب أيضاً إذا كان رحبعام يعتقد أن مصائبه كلها أتت من مصر . وبقى رحبعام يحكم على جزء من البلاد وكانت أورشليم هى عاصمته التى كدس فيها كل ما جمعه داوود وسليمان من ذهب وفضة وذخائر أخرى . ولسنا نعرف السبب الذى جعل شاشانق يغضب على إسرائيل فإن المصادر المصرية لم تحتفظ لنا بشىء عن هذه الحملة إلا القليل المسطر على واجهة البيلون الثانى بالكرنك ، ولكنه لا يعدو أن يكون سجلا بأسماء بعض البلاد التى دانت لشاشانق بالطاعة فى فلسطين . ولكن التوراة تذكر لنا أنه « فى السنة الخامسة من حكم رحبعام حنق « شيشاق » ملك مصر على أورشليم واستولى على كنوز بيت الرب وكنوز الملك وأخذ كل شىء » . وتزيد رواية التوراة ( الملوك الأول ١٤ : ٢٥ - ٢٦ ) فتقول بإنه

أخذ كل التروس الذهب التى صنعها سليمان وكان عددها مئتى ترس من ذهب مطرق وثلاثمائة مجن من ذهب مطرق ( الملوك الأول ١٠ : ١٦ – ١٨ ) .

كان لهذه الحملة الحربية أثر عظيم فى فلسطين ولبنان ، وتوطيد مركز مصر هناك ، وأخذ ولاة فينيقيا يتسابقون للحصول على رضاء مصر فكانوا يضعون فى معابدهم تماثيل ولوحات باسم ملك مصر . وظلت هذه الصلة الطيبة وقتا طويلا بعد شاشانق ، وعادت لمصر بعض سمعتها ومكانتها فى تلك البلاد . أما الثروة العظيمة التى حصل عليها هذا الملك من غزوته الفلسطينية فقد مكنته من إقامة مبان كثيرة أهمها جميعا قاعته العظيمة فى الكرنك والپيلون الذى بناه أمام هذه القاعة وهو أعظم پيلون فى مصر على الإطلاق ، وقد مات صاحبه دون أن ينقش جدرانه فظلت حتى الآن كما تركها .

**خلفاء الملك شاشانق الأول :**

لم يهمل شاشانق الأول أمر وظيفة رئيس كهنة آمون فعين فيها إبنه ، يوأبت ، فكان كاهنا أعظم وفى الوقت ذاته كان يحمل لقب ، الرئيس العظيم لما ، أو رئيس الجيوش الكبير ، . وظل يوأبت فى هذا المنصب طيلة أيام حكم أبيه فلما مات شاشانق بعد أن حكم واحداً وعشرين عاما خلفه على العرش إبنه واساركون ، أوسركون ، ، فكان من أوائل أعماله أنه وضع إبنه وكان إسمه شاشانق فى هذا المنصف؛ لأنه خاف من أخيه لئلا يترتب على وجوده ووجود أبنائه على عرش كهنة طيبة أسرة أخرى كهنوتية تنافسه فى حكم البلاد .

كان الكاهن الأكبر شاشانق قوى الشخصية فحصل من والده على الإذن له بوضع إسمه فى خانات ملكيـــة ، كـــما نراه أيضاً قد ورث منصبه بعد وفاته إلى إبنه ، حور – سا – إيسى ، الذى إتبع تقليد أبيه فى وضع إسمه داخل خانة ملكية ، وكان معاصراً للأيام الأخيرة من حكم جده واساركون ، كما كان أيضاً فى وظيفته فى أيام الملك ، تكلوت الأول ، الذى خلف واساركـــون علـــى العرش . وعندمـــا توفى الملك ، تكلوت الأول ، خلفه على العرش الملك ، واساركون الثانى ، وقد أراد هذا الأخير أن يحصل على ثروة كهنة آمون فوضع إبنه المسمى ، نمرود ، كبيراً لكهنة طيبة وكان قبل ذلك كبيراً لكهنة إهناسيا ، وأصبح ، نمرود ، بذلك سيدا لطيبة وللصعيد ، وزوج ابنته المسماة ، كارو – معم ، إلى أخيه ، تكلوت ، الذى أصبح ملكا فى الشمال وتسمى بإسم ، تكلوت الثانى ، . ومن ثمرة هذا الزواج ولد إبن إسمه ، واساركون ، أصبح فيما بعد كبيراً لكهنة طيبة فى العام الحادى عشر من حكم والده ، تكلوت الثانى ، .

لم يكن تولى ، واساركون ، لوظيفة كبير الكهنة إلا تنفيذا لسياسة خاصة . فقد كان طفلاً صغيراً عندما أسند إليه هذا المنصب ، ولم يكن من السهل على الفرع الآخر من العائلة أن يترك السلطة والمال طواعية وإختياراً فحدثت فتن وثورات فى طيبة جعلته يفر منها ويلتجىء إلى الجنوب . ولكن حزبه تمكن بعد ذلك من إعادة طيبة إلى هدوئها وعاد واساركون فى العام الخامس والعشرين من حكم تكلوت الثانى إلى عرشه الكهنوتى . وعلى أحد جدران معبد الكرنك نرى فى أحد النقوش كيف إستقبله أهل طيبة بحماس عظيم ، وربما كان فراره من طيبة فى العام الخامس عشر من حكمه ، وإستمر بعيداً عنها عشر سنوات . ولكن لم تلبث الثورات أن قامت مرة أخرى ، ووصل إلى عرش كهانة آمون شخص آخر وهو ، حور – سا – إيسى ، ، الذى نعرف أنه كان فى هذه الوظيفة فى العام السادس من حكم شاشانق الثالث ( شاشانق الثانى أعلن أبوه تكلوت الثانى أن شريكه فى الملك ولكنه مات فى حياة أبيه ولم يحكم بمفرده ) وربما كان ، حور – سا – إيسى ، هذا هو الذى تزعم الثورة ضد واساركون .

ولكن لم يمض غير عام واحد حتى عاد واساركون مرة أخرى وظل بعد ذلك فترة طويلة فى منصبه إلى أن مات في العام ٣٩ من حكم شاشانق الثالث . وقد تخللت هذه الفترات ثورات متعددة كانت إحداها فى العام الأخير من حياته وقد سببت هذه الثورات إضطرابا كبيراً ليس فى أمور طيبة فقط بل فى مصر كلها ، وبعد موت واساركون خلفه فى عرش كهنة طيبة ، حور – سا – إيسى الثانى ، الذى كان فى هذا المنصب نفسه عند نفى واساركون .

وفى بداية تولى ، حور – سا – إيسى ، لمنصبه الكهنوتى فى طيبة بدأت الأمور تأخذ صورة جديدة نتيجة لعدم الإستقرار والتنازع ، إذ أن الآثار التى أقيمت فى الكرنك لم تعد تؤرخ بحكم شاشانق الثالث أو خلفائه بل بإسم ملك آخر إسمه ، پا – دى – باستا ، الذى يعتبره مانيتون مؤسس الأسرة الثالثة والعشرين .

## الأسرة الثالثة والعشرون : ( ٨١٧ – ٧٣٠ ق.م. )

انقسمت مصر على نفسها من أثر هذه الثورات المتتالية ، وضعفت سلطة الملوك وقويت سلطة أمراء الأقاليم إذ أخذ كل منهم يقوى نفسه خشية من سطوة جاره ، أو طمعا فى توسيع رقعة ملكه ، ولهذا لم يجد ، پا – دى – باست ، كثيراً من المقاومة عندما أراد خلق عائلة مالكة جديدة حكمت فى الشمال فى تل بسطة ، بينما كان هناك ملك آخر فى ، صان الحجر ، . ويظهر أن ، پادى باست ، حكم جزءاً كبيراً من غربى الدلتا ( صا الحجر ) وحصل على معونة كهنة طيبة بينما ظل كهنة منف

على ولائهم للبيت المالك القديم الذين ظل لهم النفوذ علــى شرقى الدلتا ومـصر الوسطى .

ومهما كان الحال فإننا نعرف تماما أن الأسرة الثانية والعشرين ظلت على العرش لمدة سبعة وأربعين عاما بعد ظهور ، يا – دى – باست ، ويظهر أن البيتين المالكين تقاتلا فى البداية ثم إصطلحا فيما بينهما ، وقبل كل منهما الأمر الواقع وصار فى مصر أسرتان ملكيتان تحكمان فى وقت واحد . ولكن لم يكن لواحد من هذين البيتين حكم كامل على البلاد التى يحكمها أمراؤها ، إذ أن هؤلا الأمراء كانوا يعيشون شبه مستقلين وكان لكل منهم جيشه الخاص وبلاطه .

وإذا رجعنا إلى عرش كهنة طيبة فإننا نرى أن الكاهن الأكبر ، حور –سا – إيسى ، أصبح له الحق هو الآخر فى كتابة إسمه داخل خانة ملكية . وقبل أن ينتهى حكم ، يا – دى – باست ش إنتهت أيام ، حور – سا – إيسى ، فى طيبة وخلفه فى العرش الكهنوتى شخص آخر يسمى ، تكلوت ، الذى أرخ بعض آثاره فى السنة السادسة من حكم الملك ، شاشانق الرابع ، الذى يلوح بأنه جاء بعد الملك ، يا – دى – إيسى ، . ثم جاء بعد ذلك ، واساركون الثالث ، وغيرهما . وفى الواقع إن توالى الحوادث فى هذه الفترة من تاريخ مصر غامض ومرتبك ، وبالرغم من حفائر صان الحجر فإنه ما زال ينقصنا الكثير من المعلومات لنستطيع تحديد تولى الملوك فى كل من الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين أو تحديد الصلة بينهما أو بين أحد هذين الفرعين وكهنة أمون [١] .

وقد ترك ملوك الأسرة الثالثة والعشرين بعض الآثار فى الصعيد الأعلى وبخاصة فى طيبة ، وإمتاز عصر واساركون الثالث بحادثين مهمين أولهما حدوث فيضان عال جداً فى الأقصر حطم الرصيف الأمامى وتدفقت المياه إلى معبد الأقصر وأتلفت كثيراً فيه فأمر الملك بترميم ما تهدم وبناء رصيف آخر . أم ثانى الحادثين الهامين فهو أن الملك واساركون الثالث لم يتبع ما أتبعه آباؤه من قبل بوضع أحد أبنائهم فى وظيفة كبير كهنة آمون بل زاد على ذلك بأن وضع إبنته ، شب – ان – أوبت ، فى هذه الدولة الكهنوتية بإسم ، زوجة آمون الإلهية ، ولم يمض غير قليل حتى زاد نفوذ الزوجات الإلهيات لأمون وغطى على نفوذ كبار

الكهنة وكانت ، شب – إن – أويت ، أولى سلسلة من السيدات استمر نفوذهن لمدة قرنين من الزمان .

**الأسرة الرابعة والعشرون : ( ٧٣٠ – ٧١٥ ق.م. )**

وصلت الحالة الداخلية فى البلاد إلى الحضيض ، ولم يقتصر الأمر على وجود بيتين مالكين فقط بل إدعى آخرون الملك فلما جاء اليوم الذى مات فيه ، شاشانق الخامس ، إدعى أكثر من أمير من الأمراء أنه أحق بالملك وأعلن إستيلاءه على العرش إلى جانب الفرع القديم فى تل بسطة ، وكان أهم هؤلاء أمير مدينة ، صا الحجر ، فى غربى الدلتا الذى أسس بيتا مالكاً جديداً وهو الأسرة الرابعة والعشرون ، وكان هذا الأمير يسمى ، تف – نخت ، الذى وجد أن هناك ملكا آخر ينافسه فى إهناسيا وآخر فى الأشمونين وثالثاً فى تل بسطة ورابعاً فى تانيس .. إلخ ولكن رغم كل هذه المصائب فى الدلتا فإن طيبة بقيت على شىء من الهدوء يحكمها كهنتها .

لم يكن ، تف – نخت ، كغيره من الأمراء بل إمتاز عليهم جميعاً بالكثير من القوة والطموح ، ولهذا أراد أن يكون لقبه الذى وضعه أمام إسمه حقيقة واقعة وصمم على إعادة وحدة البلاد إلى ما كانت عليه وأن تكون مصر بأسرها مملكة واحدة كما كانت فى جميع أدوار عظمتها .

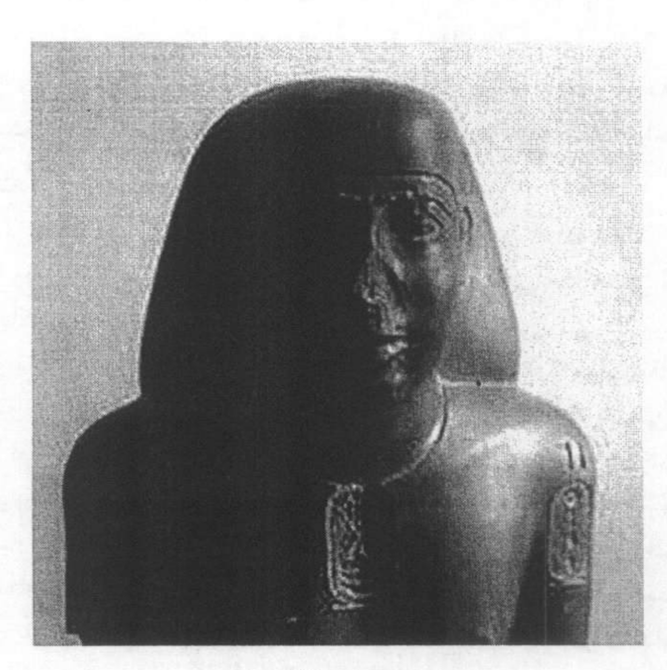
وتيسر لـ ، تف – نخت ، أن يخضع جميع أقاليم غربى الدلتا لحكمه ثم ثنى بشرقى الدلتا وترك كل من إعترف بسيادته من الأمراء فى مكانه إلى أن تم له إخضاع الدلتا بأكملها . ووجه عنايته بعد ذلك إلى مصر الوسطى ولكن الأمور كانت تسير سيراً آخر ، إذ أن هذه الحالة السيئة التى دفعت بـ ، تف – نخت ، إلى إنقاذ مصر دفعت أيضاً غيره للتقدم لإنقاذها ، ولم يكن هذا المنقذ الآخر إلا الملك ، بعنخى ، الذى أرسل من نباتا فى شمال السودان جيشاً لتخليص البلاد مما وصلت إليه من فوضى ، وهكذا قدر لجيوش بعنخى أن تصطدم بجيوش إبنه ، باك – ان – رنف ، . وإنتهى الصراع بإنتصار جيوش الجنوب وتأسيس أسرة ملكية جديدة وهى الأسرة الخامسة والعشرون وبدء عصر نهضة جديدة فى مصر ، ولكن قبل أن نسرد تفاصيل هذا الصراع يجسن بنا أن نرجع قليلا إلى الوراء لنعرف أصل مملكة نبتا والأسباب التى جعلت ملوكها يفكرون فى إرسال جيوشهم إلى الشمال .

# الفصل الثالث

## اليقظـــة

### الأسرتان الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون
### (٧١٥- ٦٥٦ ـ ٦٦٣ ـ ٥٢٥ ق.م.)

- الأسرة الخامسة والعشرون (٧٥١ ـ ٦٥٦ (؟) ق.م.)
- الأسرة السادسة والعشرون (٦٦٣ (؟) ـ ٥٢٥ ق.م.)



بسمتك الثاني

# اليقظـــة

## الأسرتان الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون

## (٧٥١ - ٦٥٦ ، ٦٦٣ - ٥٢٥ ق.م.)

### مملكة نبتا وحملة بعنخى :

لم يتأثر جنوبى وادى النيل كثيراً بأحداث الشمال إذ ظلت طيبة المسكن الأبدى لآمون وظل الكرنك مركز عرش كبير كهنته ، وكانت بلاد كوش بما فيها من مناجم للذهب ملكا لآمـون . ومنذ أن عظم نفوذ كـهنة طـيبـة فى أواخـر أيام الدولة الحـديثـة حكمـوا الجنوب حكمـا يكاد يكون مـباشـرا ، وبخـاصـة طيلة عـهـد الأسـرة الحـادية والعشرين .

فلمـا رأى كـهنتـهـا أن دولتـهم قد آذنت بزوال ، ورفـضـوا الإعتـراف بشاشـانق وحـدثت ثورات طيبـة ، أخذ أكثرهم طريقه نحو الجنوب حيث كان جبل برقل مركزاً هاماً لعبادة الإله ، آمون رع ، منذ الأسرة الثامنة عشرة ، وحيث كانت مدينة نپتا التى تقوم عند سفحه مـلأى بالمعابد المهمـة والقصور ، وأصبـحت مدينة ذات أهمية تجارية .

ولا شك أن الكهنة عند رحيلهم من طيبة أخذوا معهم شيئا غير قليل من ثروة آمون ، ولهـذا تيسـر لهم أن يعيشوا هناك فى بحبوحـة من العيش وأن يستـمـروا فى سيـادتهم ، وفى تحـويل أمـر القـضـاء بين الناس إلى ألاعـيب الوحى وأسـاليب الكـهنة الملتوية . ولم يطل بهم الأمر حتى أعلن هؤلاء الكهنة أنفسهم سادة على الجنوب بعد أن صاهروا أهل البلاد وأنشأوا بيتا مالكا جديداً إدعى منشئه أنه ليس حـاكما على كوش فحسب ، بل إنه حاكم على طيبة أيضاً كما كانت التقاليد من قبل .

ولم يقطع حكام كـوش الجـديدون صلتـهم بطيـبـة بل ظلوا يقـدسـون إسم آمـون ويتـجـهون بقلوبـهم نـحـو الشـمـال . وحـدثت فى أيام الأسرة الثـالثـة والعشرين شىء من التقارب بين طيبة وكوش من الناحية السياسية ولكن لم يستمر ذلك وقتاً طويلاً ، إذ ظل بيت نپتاً مسـتقلا فى إدارته ولكن حكامـه لم ينزلوا عن دعواهم بأنهم أصـحـاب الحق فى عرش مصر .

وأول إسم نعرفه من هذه الأسرة هو إسم ، ألارا ، ( Alara ) الذى خلفه إبنه ، كاشتا ، على العرش . وقد بدأ كاشتا يتجه بقلبه نحو الشمال ولكن تحقيق الأمل لم يأت إلا على يدى إبنه ، بعنخى ، الذى خلفه على العرش [١] .

قضى ، بعنخى ، أكثر من عشرين عاما وهو ملك فى نبتا قانعا بصلته بكهنة طيبة ، ولكنه لم يفكر فى إرسال أى جيوش إلى الشمال إلا عندما وصلته الأخبار بأن الملك ، تاف - نخت ، بدأ فى زحفه نحو الصعيد . كانت هذه التقارير تصل إليه من طيبة بانتظام ، ولهذا أرسل أمره إلى طيبة بالمقاومة وإرسال جيش ليحاصر الأشمونين التى كانت قد إستسلمت لتاف - نخت ، وأعد فى الوقت ذاته جيشا أرسله إلى مصر وزوده يوم رحيله بتعليمات لإحترام المعابد وتخليص البلاد ممن يعيثون فيها فساداً . لم يرسل بعنخى هذا الجيش غازيا يريد الفتح والنصر ، وإنما أرسله ليؤيد آمون وكهنته وينقذ طيبه ممن حدثتهم أنفسهم بالإعتداء عليها . ولهذا نرى بعنخى يذكر جنوده بأنه لا حول ولا قوة إلا بآمون ويأمرهم عندما يرون أسوار طيبة أن يلقوا بأسلحتهم ويطهروا أنفسهم ويدخلوا مدينة آمون خاشعين . وليست هذه التعبيرات ألفاظ فاتح أجنبى وإنما هى ألفاظ شخص يؤمن بأن البلد بلده وأن آمون إلهه .

ووصل جيش بعنخى إلى طيبة وتقدم بعد ذلك إلى الشمال ، فإلتقى بجيش ، تاف - نخت ، الذى كان فى طريقه إلى الجنوب فكان النصر حليف جيش الجنوب الذى إستمر جنوده فى زحفهم نحو الشمال منحدرين مع بحر يوسف ، حيث خاضوا معركة أخرى شتتوا فيها شمل جيش الشمال على مقربة من مدينة إهناسيا .

وكان نمرود ملك مدينة الأشمونين حليف ، تاف - نخت ، فى هذه المعركة قد تمكن من الفرار ليحصن مدينته وينظم الدفاع عنها ، فلما رجع جيش الجنوب إلى هذه المدينة لم يستطع التغلب على حصونها فظل محاصراً لها .

وعلم بعنخى وهو فى نبتا بأنباء هذه المعارك وساءه أن يترك جيشه مطاردة العدو ويمكنه من الفرار ، ولهذا صمم على أن يذهب إلى مصر بنفسه ليقود الجيش ، فجاء إلى طيبة فى وقت الإحتفال بعيد ، أبت ، أكبر أعياد البلاد على رأس قوة أخرى . وبعد أن إنتهت أيام ذلك العيد أقلع بجيشه حتى وصل إلى الأشمونين التى

كانت ما زالت تقاوم المحاصرين . ورأى بعنخى أنه من الصعب أن ينالها بهجوم مفاجىء فالتجأ إلى طريقة أخرى ، وشيد خارج الأسوار جسراً كبيراً بنى فوقه برجا عاليا وأخذ رماته يمطرون المدينة وابلا من سهامهم . ورأى نمرود أن المجاعة أخذت تفتك بجنوده ، وأن هذا الحصار الطويل أنهك قوى الجميع ، وأنه لا حول له ولا قوة أمام هذه الجيوش الجرارة فقرر الإستسلام وأرسل من يفاوض بعنخى لتسلم المدينة بمن فيها ، وفى الوقت ذاته أرسل زوجته لمقابلة زوجات بعنخى لتدافع عن زوجها وتبرر دفاعه عن مدينته ، فحصلت على وعد بالعفو عنه . وفتحت المدينة بعد ذلك أبوابها ودخل بعنخى إلى قصر نمرود حيث قدم إليه كل ثروته وما لديه من حلى وجواهر . وتقدم بعنخى لزيارة حظائر الخيل فهاله ما وصلت إليه من هزال ، وكان الملك السودانى محباً للخيل فثارت ثائرته وإلتفت إلى نمرود قائلا له إن جريمته فى تجويع الخيل آلمته أكثر من جميع آثامه الأخرى ، وإستولى عى أموال الملك المهزوم وقسمها بين خزينة أمون وخزينته الخاصة .

واستأنف بعنخى زحفه إلى الشمال دون أن يجد أى مقاومة جدية حتى وصل إلى منف وهناك جاءه أمير إهناسيا وغيره من أمراء البلاد لتقديم هداياهم وولائهم ، ولم يشذ عنهم غير إثنين فقط وهما أمير الفيوم وأمير أطفيح لأنهما لم يكونا فى طريق الفاتح . ولم يضيع بعنخى وقتا أو مجهوداً لمحاولة إخضاعهما بل تركهما حتى ينتهى من أمر منف . فلما وصل إليها أراد من فيها أن يقاوموا الزحف ولكنهم هزموا فارتدوا متحصنين وراء الأسوار القوية . وحاصرت جيوش بعنخى هذه المدينة ولكن الحصار لم يكن دقيقاً إذ تمكن « تاف – نخت » من الوصول إليها ومعه ثمانية آلاف رجل وأخذ ينظم الدفاع عنها ، فأوجد ذلك حماساً كبيراً بين الأهالى ، خصوصا وأنه كان يوجد فى المدينة مؤن كافية لأوقات طويلة كما أنها تقع على النيل الذى كان يجرى فى الناحية الشرقية من أسوارها . وبعد أن إطمأن « تاف – نخت » إلى حسن الدفاع غادر منف ليلا ليجمع جيشا من الدلتا ويهاجم به جيوش بعنخى ويخلص المدينة .

تضايق بعنخى من ذلك ، وأراد أن يضع حدا لهذا الموقف ، فجمع مجلسه الحربى فأشار البعض من قواده باستمرار الحصار وحبذ البعض الآخر هجوما شديدا على الأسوار ، ولكن الملك الكوشى أدرك بثاقب بصيرته وجود نقطة ضعيفة فى تحصينات المدينة تصلح لأن تكون مركزا للمهاجمة . كان النيل مرتفعا وكانت السفن الراسية فى النيل أمام الجانب الشرقى من المدينة تثبت نفسها بحبال تربط فى أقرب المنازل إلى السور نظرا لارتفاع مياه الفيضان فى ذلك المكان ، ولهذا قرر أن ينقض

على منف من هذه الناحية خصوصا وأن أهلها كانوا يتوقعون الهجوم من الناحية الغربية التى زادوا فى تحصينها .

وبمساعدة أسطوله إستطاع بعنخى أن يستولى على السفن الموجودة خارج الأسوار ، وإستطاع جنوده أن يتسلقوا بسهولة فدخلوا المدينة وفاجأوا المدافعين عنها ودارت مذبحة كبيرة ، ونهبوا البيوت ولكن المعابد والهياكل لم يصبها أذى ، وأخيرا إستسلمت منف ودخلها بعنخى وتوجه رأسا إلى معبد بتاح حيث استقبله كهنتها وإعترفوا به ملكا .

وما أن ذاع خبر سقوط منف حتى سارع أمراء الدلتا إلى تقديم ولائهم وخضوعهم ، ثم زار بعنخى مدينة إيون ( هليوبوليس ) حيث اعترف به أيضاً كهنة الإله رع ملكا على مصر . ثم تقدم بجيوشه نحو الشمال حيث جعل معسكره عند إتريب ( بنها ) فتلقاه ملكها بترحاب كبير ، ووضع كل أمواله تحت تصرفه . فلما رأى الأمراء والملوك الآخرون ذلك إستأذنوا ليعودوا بهداياهم وعادوا بها إليه ولم يشذ فى تقديم الولاء إلا مدينة واحدة فقط وهى مدينة ، مسد ، التى ربما كانت مكان قرية مسطاى الحالية على مقربة من قويسنا ، فأرسل بعنخى حملة لتأديبها وأهداها إلى أمير أتريب مكافأة له على ما أبداه من إخلاص .

ورأى ، تاف نخت ، أن الجميع قد تخلوا عنه فالتجأ إلى مستنقعات الدلتا ، وأدرك أنه لا فائدة من المقاومة فأرسل يستغفر بعنخى ويقدم ولاءه فقبل منه بعنخى ذلك ، فاستسلم وأقسم يمين الولاء وحذا حذوه كل من أميرى الفيوم وأطفيح ، وبهذا أصبح بعنخى سيد مصر والسودان دون منازع .

وترك بعنخى كل هؤلاء الأمراء ومنهم تاف - نخت يحكمون بلادهم باسمه ، وكان الواجب عليه أن يظل بجيوشه بعض الوقت فى مصر حتى يطمئن على سير الأمور ولكن حدث العكس إذ أنه بمجرد أن إنتهى من قبول خضوع الأمراء قفل عائدا إلى نبتا فكان هذا الخطأ من جانبه سببا فى تجديد المشاكل بعد سفره ، خصوصا وأنه لم يعين موظفين يمثلونه فى البلاد أو يترك فيها حاميات ، بل إطمأن إلى وعود هؤلاء الأمراء التى قطعوها على أنفسهم .

**الملك ، تاف ، - نخت مرة أخرى :**

لم يكن تاف - نخت صادقا فى تقديم ولائه ، فإنه لم يكد يطمئن إلى عودة بعنخى وجيوشه إلى نبتا حتى بدأ مرة أخرى يوطد سلطانه واستمر فى تلقيب نفسه

بأنه حاكم القطرين وسيد الدلتا والصعيد [١] . وقد استمر حكمه عشر سنوات على الأقل بعد حملة بعنخى على مصر ثم تلاه بعد موت ابنه ، باك أن رنف ، المعروف لليونانيين باسم ، بوخوريس ، والذى حكم ست سنوات ، واشتهر بين اليونانيين شهرة عظيمة بأنه أحد عظماء المشرعين الستة فى مصر .

ويظهر أن همة ، تاف نخت ، لم تقف عند حدود مصر بل وجد نفسه مسئولا عن سلامة حدودها من الشرق عندما أخذ الخطر الأشورى يدق أبواب سورية وفلسطين ، إذ نعرف من التوراة ( الملوك الثانى ١٧ ) أنه بعد فتح الملك تيجلات بلسر الثالث لبعض البلاد السورية فى عام ٧٢٥ ق.م. ورجوعه إلى بلاده ، تحالف هوشع ملك إسرائيل مع ملك مصر .

أما نجله ، باك ان رنف ، فأراد بدوره أن يحمى بلاده من قوة أشور فأخذ يثير بلاد فلسطين ووعد الثوار بالمساعدة ، ولكن جيوش فلسطين المتحالفة هزمت شر هزيمة كما هزم الجيش الذى أرسله ، باك ان رنف ، عند رفح هزيمة شديدة ، وكانت هذه الهزيمة درساً قاسياً لـ ، باك ان رنف ، جعلته لا يعاود التدخل فى شئون فلسطين وسورية . فالتفت إلى إصلاح الدلتا وأخذ فى سن القوانين وكان يجلس للقضاء بين الناس ، وكانت أحكامه تشتهر بالتعمق والحكمة [٢] . وحكم ، بوخوريس ، ستة أعوام لم تنته إلا بحضور الملك ، شاباكو ، خليفة بعنخى لاستعادة مصر ، وإذا صدقنا رواية مانيتون فإن ، بوخوريس ، لم يمت ميتة طبيعية بل أن ، شاباكو ، أسره وأمر بإحراقه عقابا له .

وهكذا تكون الأسرة الرابعة والعشرون مكونة من ملكين فقط وهما ، تاف نخت ، وابنه .

وإذا نظرنا إلى موضوع الصراع بين ، بعنخى ، و ، تاف – نخت ، نظرة محايدة فإننا نجد أن كلا من الرجلين كان جديراً بالإعجاب ، وكان بطلا وطنيا هاله ما وصل إليه أمر مصر من خراب وفوضى فتقدم لإنقاذها . كان ، تاف – نخت ، رجلا شجاعا طموحا وصاحب سياسة ، وكان ، بعنخى ، أيضا شجاعا وطموحا ولكن لم يكن له علم بفن الحكم ، ولو أنه كان يمتاز كثيراً على خصمه بقوة جيشه وموارده

المالية والتأييد الدينى . لقد دافع كل منهما عما كان يعتقد أنه حق له وفيه مصلحة للبلاد . وربما كان من سوء الطالع أن يصطدم هذان البطلان ولكن مهما كان الأمر فإن حياة كل منهما وأسلوب كفاحه يدل على وعى قومى ويقظة وطنية ، جاء أحدهما من الجنوب وجاء الآخر من الشمال ، وكان هم كل منهما أن ينقذ مصر مما حل بها من تفكك وما آلت إليه من انهيار .

وفى الواقع أن هذه الفترة ، وهى فترة الصراع ، كانت بداية لعصر جديد أخذت تستيقظ فيه مصر من سباتها الذى قضت فيه عدة قرون ، وكانت أيام الأسرة الرابعة والعشرين القصيرة ، ثم ظهور الأسرة الخامسة والعشرين وهى بدء النهضة الكبيرة التى ظهرت فيما بعد .

**خلفاء بعنخى :**

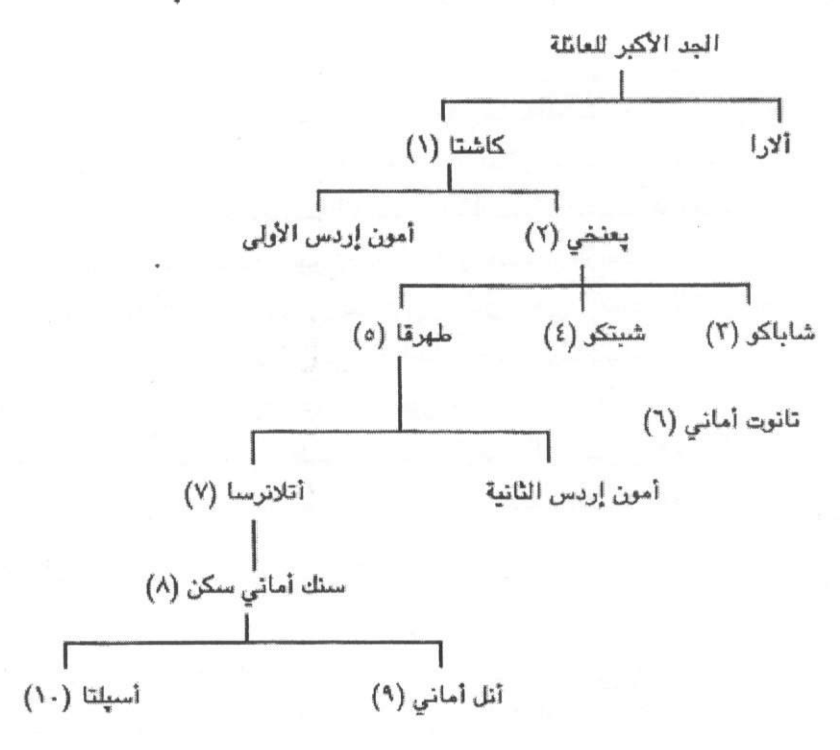
قبل أن يغادر بعنخى مدينة طيبة جعل الأميرة « شب – إن – أوبت » ابنه وساركون الثالث ، التى كانت حتى ذلك الوقت الزوجة الإلهية لأمون ، تتبنى أخته «أمنرديس» ( أو أمون إردس ) ، وبهذا ضمن لنفسه ولأسرته ثروة أمون .

ولم يظهر بعنخى بعد رحيلـه عن مصر اهتماما بأمرها ، وترك « تاف – نخت » و « باك – ان رنف » يفعلان ما يشاءان فى الدلتا دون أن يرسل من يؤدبهما ، وظل قانعا بأن طيبة ، والصعيد بوجه عام ، لم يعتد عليها معتد .

والمتتبع لحياة بعنخى تتولاه الدهشة لهذا المسلك الذى جعله يغادر مصر سريعاً إلى نبتا ولا يحرك ساكنا بعد ذلك . فقد كان كل شىء سائراً فى مجراه العادى فى نبتا على ما نعلم ، ولم تحدث هناك ثورات أو يقوم مطالب آخرى بالملك ولهذا لا يمكن أن يكون تصرفه ناتجاً إلا عن حالة نفسية خاصة لم نعرفها بعد .

وبعد موت بعنخى خلفه ابنه « شاباكو » فعز عليه أن يصل الحال فى شمال الوادى إلى ما وصل إليه . ولهذا أسرع نحو الشمال فأنهى أيام « باك – ان – رنف » كما سبق القول وأقام كثيراً من المبانى الدينية ، كما بدأ سياسة المودة نحو دولة أشور فأرسل إلى الملك سرجون الثانى بهدايا ، فلما تلقى من سرجون هدايا أخرى تأكيدا لمودته ، اعتبر شاباكو أن مدلول ذلك أنه أصبح سيد بلاد آسيا ورسمه مصوروه على الآثار وهو يمسك بناصية الأسيويين الذين أصبحوا عبيدا له .

## الملوك العشرة الأول من عائلة نپتا (١)




وحكم شاباكو نحو ستة عشر عاما ثم تلاه على عرش نپتا أخ له من أبناء بعنخى إسمه « شبتكو » . جاء إلى مصر ومعه أخ شاب فى العشرين من عمره وهو من طهرقا الذى كان منذ حداثة عمره مغرما بالحرب وكانت فيه صفات أبيه وهمته . كان أمراء الدلتا قد عادوا شيئاً ما إلى سلطتهم القديمة ، وكانت بينهم عداوات وحروب، ولكن طهرقا تمكن من تهدئة الحالة بعض الشيء خصوصاً وأن الخطر الأشورى كان قد بدأ يطل برأسه مرة أخرى .

مات سرجون الثانى فخلفه على العرش نينوى إبنه سنحريب ( Sennacherib ) الذى قرر أن يغزو فلسطين فاجتمعت مدنها فى حلف لمقابلة المهاجمين ، وأرسلت مصر تؤازرهم ووقفت إلى جانبهم . وأرسل « شبتكو » جيشاً إلى الحدود تحت قيادة أخيه طهرقا ولكن سنحريب كان يهزأ بمساعدة مصر ، وأراد رجاله أن يحذروا أهل أورشليم أثناء حصارهم من الإتكال على معونة مصر فقالوا لهم جملتهم المأثورة التى احتفظت بها التوراة موجهين الخطاب إلى حزقيا : « على من

اتكلت حتى عصيت على ؟ هوذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة ، على مصر ، التى إذا توكأ أحد عليها دخلت فى كفه وثقبتها . وهكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه ، ( الملوك الثانى – الإصحاح ١٨ : ٢٠ – ٢٢ ) . ولكن أورشليم لم تستسلم وسار سنحريب لمهاجمة جيش مصر ، وفى ذلك الوقت حدثت معجزة جعلت سنحريب يفر بفلول جيشه عائداً إلى بلاده إذ تفشى وباء الطاعون فى الجيش الأشورى . وتروى التوراة قصة إنقاذ أورشليم وتفسرها تفسيراً دينياً ، ويرويها هيرودوت ويفسر رجوع الجيش المهاجم وهزيمته تفسيراً روائياً ( Herodotus II, 141 ) وهو أن الجردان إنتشرت فى معسكر الأشوريين وقرضت القسي وكنانات السهام وجلد التروس ففر الجنود ؛ لأنهم لم يجدوا ما يحاربون به . ولم يحاول سنحريب مرة أخرى أن يغزو فلسطين ومات مقتولا بيد أبنائه فى عام ٦٨١ ق.م. وخلفه إبنه ، أسرحدون ، الذى لم يكن من بين المتآمرين فثأر لدمه واستولى على العرش . وفى العام نفسه مات ، شبتكو ، فخلفه على العرش أخوه ، طهرقا ، بن ، بعنخى ، .

**الملك طهرقا :**

وجه طهرقا كل نشاطه إلى الإصلاح الداخلى وبخاصة فى إقامة المبانى الفخمة فى جهات مصر المختلفة ، وكانت طيبة بطبيعة الحال أكثر البلاد استئثاراً باهتمامه . ولم يقم طهرقا فى طيبة بل فضل الإقامة فى صان الحجر ليكون قريبا من حدوده الشرقية ؛ لأنه بحكم تجربته الشخصية كان يعلم أنه لا أمان لمصر طالما كانت أشور مستمرة فى تطلعها نحو الغرب ، ولهذا ترك إدارة طيبة والصعيد إلى رجل من خيرة رجاله وهو ، منتومحات ، وركز جهوده لدرء الخطر الخارجى الذى كان يتهدده .

بقى طهرقا فى شمال مملكته يرقب الحوادث ويدبر المؤامرات ضد الأشوريين ليقوم الفلسطينيون والفينيقيون بثورات ربما تنتهى بإنسحاب الأشوريين من فلسطين . وكان هو المحرض على ثورة فى مدينة صور سببت تعباً كبيراً للأشوريين ، وإضطرت ، أسرحدون ، أن يأتى بنفسه على رأس جيش لمحاصرتها ولكنه لم يستطع التغلب على المدينة لمناعتها . وأراد أن يؤدب مصر فترك صور محاصرة وتقدم نحو وادى النيل عن طريق سينا يساعده بدو الصحراء الذين أمدوه بآلاف الجمال لنقل المؤن والمياه ، وكانوا أدلاءه فى السير حتى وصل إلى وادى الطميلات . ومن وادى الطميلات قصد رأساً إلى منف فقوبل بمناوشات مستمرة فى طريقه ، ولكنه رغم ذلك

وصلها بعد خمسة عشر يوما فحاصرها وإستولى عليها ووقعت فى يده ثروتها ، وكذلك عائلة طهرقا ومن بينهم زوجاته وأولاده وبناته . ويفتخر ملك أشور فيما سطره عن هذه الحملة أنه استأصل شأفة الكوشيين وقضى على سلالتهم ، ولكن هذا كان بعيداً عن الحقيقة إذ ظلت لطهرقا قوته ولم يتعد حكم الأشوريين المباشر حدود الدلتا ، ولكن جميع الحكام ومن بينهم « منتومحات » . إعترفوا بسيادة ملك أشور ودفعوا له الجزية . وفى هذه الأوقات العصيبة كان أهم اسمين من أسماء حكام البلاد الوطنيين هما « نكاو » بن « باك – ان – رنف » و « منتومحات » وكان أولهما أمير صا الحجر وكان الثانى أمير طيبة . وإعتقد « أسرحدون » أن الأمور دانت له وأنه أصبح بإنتصاره ملكا على الدلتا وعلى الصعيد وعلى كوش . وبعد سنوات قليلة عاد طهرقا مرة ثانية ليسترد ما فقده فإستولى على منف وجمع حوله الأمراء وهزم الحامية الأشورية وقام « أسرحدون » على رأس جيشه لإخضاع مصر ولكنه مات فى الطريق ، ولم يواصل الجيش سيره إلى مصر بل عاد ثانية إلى بلاده . وإذا كانت حملة « أسرحدون » لم يكتب لها النجاح ، ونجحت مصر من ويلات الحرب فإن « أشور بانيبال » ابن « أسرحدون » جمع جيشاً من السوريين والأشوريين وأرسله لمهاجمة مصر فاستولى على منف وفر طهرقا إلى طيبة . وقام بعض أمراء الدلتا بهجومهم على الأشوريين لطردهم وكادوا ينجحون فى ذلك لولا أن « أشور بانيبال» أسرع بإرسال جيش آخر أخمد الثورة ، ثم إندفع الجيش نحو طيبة . ودافع منتومحات ولكنه لم يستطع رد المهاجمين ووقعت طيبة فريسة للعدو ، ولكن يظهر أن التخريب كان محدوداً فتمكن منتومحات بعد ذلك من إصلاح ما تهدم ، وطهر المعابد والهياكل من رجس الذين دخلوها دون أن يتطهروا . وفى أثناء ذلك قبض الأشوريين على الأمراء الشماليين الذين قاموا بالثورة وعلى رأسهم « نكاو » ( نيخاو ) وأرسلوهم إلى نينوى . وقد استطاع نكاو أن يحوز على إعجاب ورضاء الملك الأشورى فأعاده إلى مدينة صا الحجر وغمره بالهدايا وزاد على ذلك بأن منح إمارة أتريب إلى إبنه بسمتك .

ومات طهرقا فى نبتا ، ولكنه رغم وجوده فى الجنوب فإن كهنة طيبة وكهنة منف كانوا يعتبرونه الحاكم الشرعى للبلاد ، كانوا يؤرخون الآثار بإسمه ومدة حكمه ، وذلك بالرغم من أن الأمور كانت قد تغيرت ، وكان هناك فى صا الحجر من إدعى الملك ، كما كانت هناك الحاميات الأشورية ومن والاها من أهل البلاد . ومما يستحق الذكر أننا نجد على إحدى لوحات السرابيوم أن أحد العجول قد نفق ، وكان ذلك فى العام العشرين من حكم بسمتك الأول ، وأرخه الكهنة فى العام السادس والعشرين من حكم طهرقا .

وخلف الملك « تانوت – أمانى » عمه طهرقا على عرش نبتا وقد ذكر لنا فى إحدى لوحاته كيف أصبح ملكا وأنه قبل موت عمه رأى حلما فسروه له بأنه سيصبح ملكا على الشمال والجنوب وأنه سيسترد مصر من الأشوريين . وما أن تم تتويجه حتى جمع جيشا وسار إلى الشمال لتحقيق هذه الرؤيا فوصل إلى طيبة ، وكان فيها « منتومحات » و « شب – ان – أوبت » الثانية ، وقوبل منهما ومن جميع الأهالى بإستقبال المنقذ ، ثم سار حتى وصل إلى منف واضطر لخوض معركة مع أمراء الدلتا الذين كانوا موالين للأشوريين فهزمهم . وظل فى منف ليتلقى هدايا وولاء بعض الأمراء الآخرين ولكنه لم يقو على الاستيلاء على أكثر من مدن الدلتا ولم تلبث الأخبار أن جاءت منذرة بوصول جيش من أشور فلم يبق فى الشمال ، وفر عائداً إلى طيبة فتبعته جيوش أشور وسقطت طيبة فى أيديهم ، وذاق أهلها مرارة الأسر والذل وذاقت معابدها الأمرين من النهب والتخريب .

وعاد جيش أشور نحو الشمال ، وحاول « منتومحات » قدر استطاعته إصلاح ما تخرب ، وظل على ولائه لنبتا . وهناك أثر مؤرخ فى العالم الثامن من حكم « تانوت – أمانى » عثر عليه فى طيبة مع أنه كانت هناك عائلة مالكة أخرى جديدة فى صان الحجر . وقنع ملك نبتا بما حدث ولم يحاول بعد ذلك استعادة طيبة أو طرد الأشوريين من البلاد بل ترك هذا الواجب لأبناء الشمال ، وبخاصة حفيد « تاف نخت » ، الذى شاءت الأقدار أن يحقق وحدة البلاد وأن ينهضها من كبوتها وهو الأمر الذى لم يتيسر لجده أن يحققه .

## الأسرة السادسة والعشرون
## ( ٦٦٣ - ٥٢٥ ق.م . )

### نظرة عامة :

كان القرن السابع قبل الميلاد من أهم الفترات فى التاريخ القديم ، ففى هذا القرن من الزمان كانت دول الشرق القديم تتصارع فيما بينها تصارعا مميتا أفنى قواها . فقد رأينا دولة أشور وقد مدت سلطانها على جيرانها ولم تقنع بذلك بل رمت بعينها إلى الغرب فضمت دويلات سورية وفلسطين إليها ، بل إنها ضمت مصر أيضاً . ولكن اليقظة التى سرت في بلاد وادى النيل جعلت الشمال والجنوب يفتحان أعينهما على الحقيقة الرهيبة وهى أن دوام تفكك البلاد سيسبب خرابها التام ، فسعى « تاف - نخت » من غرب الدلتا و« بعنخى » من دنقلة ليعيدوا للبلاد مجدها . وما كانت هذه اليقظة لتجعل مصر تصبر على الهوان الجديد . فإذا كان بيت نپتا ترك راية الجهاد يائسا ، فإن أمراء صا الحجر سلالة « تاف - نخت » حملوها وتقدموا الصفوف حتى تم لهم النصر والفوز .

ولكنا قبل أن نتحدث عن قصة هذا الصراع يجب أن نلقى نظرنا بعيداً عن وادى النيل لنعرف بعض العوامل الأخرى التى كانت تأخذ دورها فى توجيه أحداث هذا القرن الفريد فى تاريخ العالم .كانت بلاد اليونان قد اجتازت دور تكوين حضارتها وأخذت شعوبها جزرها ، ومحلاتها التى أنشأتها فى آسيا الصغرى ، أو فى شمال إفريقيا ، تنشد نصيبها من الحياة سواء فى التجارة أو فى ميدان الحروب ، وكانت فى ذلك الوقت عاملا مهما فى حوادث البحر الأبيض المتوسط ، وكان إتصال هذه الشعوب بمصر وشاطىء سورية ذا أثر كبير على الحوادث التى كانت على وشك الظهور . أما الناحية الأخرى من آسيا فقد كانت فيها حركة من نوع مختلف . ففى جبال إيران كان يعيش بعض شعوب من أصل هندو - أوروبى قضت قرونا طويلة بين الجبال تحيا حياة البداوة ولكنها بدأت فى العصر بعينه تدخل فى دور جديد ، وسرعان ما بدأت تؤثر على بلاد ما بين النهرين ، ولم تلبث أن كان لها الفوز . وإذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك نحو الشرق لرأينا أيضاً أنه فى كل من الصين والهند بدأت الحياة الإجتماعية تدخل فى دور جديد ، وفى الهند بالذات كانت الديانة الأصلية للبلاد قد بدأت تمتزج بديانة الشعوب الهندو - أوروبية التى كانت قد غزت الهند من قبل ، ونتج من صلة الهنود بحضارة كل من بلاد ما بين النهرين ومصر آراء دينية جعلت

تتطور مع الزمن حتى وصلت إلى هذا العصر ، ووجدت بين حكماء الهند القدماء من يدعو إلى فلسفة جديدة . كان هذا العصر هو فجر مولد « الجينية » التى كانت الأثر المباشر لظهور « بوذا العظيم » مؤسس البوذية التى مازالت دينا من أهم أديان العالم حتى اليوم ، والتى كانت منذ نشوئها وانتشارها معينا لكل ما ظهر من ديانات أو فلسفات فى العالم القيم . فإذا عدنا إلى مصر مرة ثانية من هذه الجولة السريعة فإننا نراها ترزخ تحت النير الأشورى وتئن من تخريب معابدها ونهب كنوزها ، ولكن هذه الضربة لم تقض على حيويتها فلم تلبث إلا قليلاً حتى أفاقت وأخذت ترسم لنفسها طريق الخلاص .

لم تكن مصر وحدها هى التى كانت فى مهب هذه التيارات المختلفة بل كان كل حوض البحر الأبيض فى حالة عدم إستقرار ، وبخاصة فى فلسطين والشاطىء الفينيقى ، وكان سبب ذلك ظهور الدويلات اليونانية وهى فى عنفوانها ووجود جيوش أشور فى غربى آسيا .

ومنذ هذا العصر أصبح لدى دارسى التاريخ مصدراً مهماً وهو ما كتبه المؤلفون اليونانيون عن بلاد الشرق . وعن بلادهم وصلتها بغيرها ، ولهذا أصبحت مؤلفاتهم إلى جانب المصـــادر المصرية من آثار البلاد هى المعين الذى نلتجىء إليه لنشفى غلتنا . وكثيراً ما تتفق كتابات اليونانيين مع ما خلفه المصريون من آثار ولكن هناك اختلافات كثيرة أيضاً ، وعلى المؤرخ أن يوازن بين المصدرين ويتخذ طريقه بينهما ، ولكن هذا الاختلاف على وجه العموم لا يغير شيئاً من الصورة الأصلية؛ لأنه اختلاف فى التفاصيل فقط .

**طرد الأشوريين من مصر :**

ليس لدينا مصدر عن طرد الأشوريين من مصر إلا ما سمعه هيرودوت ممن كانوا معاصرين له ( زار هيرودوت مصر حوالى عام ٤٤٥ ق.م. ) أو مما قرأه فى كتابات من سبقوه ، وكانت قصته عن الملك الأول صورة للخيال الإغريقى الخصب . فالمرجح أن بسمتك – حاول عن طريقة الكهنة ووحى الآلهة أن تكون له السلطة الكاملة فى البلاد وأن يدين له الأمراء ، ولكنه فشل فى ذلك وربما اضطر إلى الاختفاء وقتا من الأوقات فى مستنقعات الدلتا . وعاود بسمتك نشاطه ولكن فى هذه المرة استعان بجنود مأجورين من الإغريق أمده بهم صديقه « جيجس » ( Gyges ) ملك ليديا فكان هذا الجيش عونا له فى إخضاع الأمراء ثم طرد الأشوريين من مصر ، ففر هؤلاء إلى فلسطين وتحصنوا فى أسدود [1] . ورأى بستمك – كما رأى أحمس الأول

فى حرب الهكسوس قبل أكثر من ٩٩٠ عاما – أنه لا اطمئنان له إلا إذا اجتث الشر من جذوره ، ولهذا تبعهم إلى هناك – وانتهز الفرصة فأخذ يعيد لمصر شيئا من مركزها الممتاز فى غربى آسيا .

ولكن رواية هيرودوت ليست بهذه البساطة فإنه يقول إن الأمراء كانوا يخشون أن يسعى واحد منهم لينصب نفسه ملكا عليهم. وكان عددهم إثنى عشر فأخذوا المواثيق بينهم وبين بعضهم ألا يتعدى واحد منهم على آخر . وكانت هناك نبوءة بأن الذى سيصبح من بينهم ملكا هو الذى سيصب ماء قربانه فى هيكل بتاح من إناء من البرونز ، ولهذا إتفق هؤلاء الأمراء على ألا يذهب أحد منهم إلى معبد بتاح لتقديم القرابين بمفرده ، بل كانوا يذهبون مجتمعين . وحدث فى يوم من الأيام أنهم كانوا فى المعبد وأرادوا أن يصبوا الماء على القرابين ووقفوا صفا ، وجاء الكاهن بالكؤوس الذهبية فأعطى كل واحد منهم كأساً ليتناول فيه الماء ولكن حدث خطأ فلم يحضر إلا أحد عشر كأساً فقط ، وكان بستمك آخر الأمراء فى الصف فأنقذ الموقف بسرعة بديهته فخلع خوذته البرونزية ومسكها فى يده فصب له الكاهن الأكبر الماء دون أن يلتفت أحد إلى مغزى ذلك . واتضح لهم فيما بعد أن النبوءة تحققت وصار من المحتم أن يصبح بستمك ملكا ، ولكنهم لم يقتلوه لثقتهم فى حسن نيته واكتفوا بنفيه إلى مستنقعات الدلتا فى نفس المكان الذى اختبأ فيه جده فرارا من بعنخى . وذهب بستمك يوما من الأيام إلى معبد ، بوتو ، ليسأل الوحى عما يخبئه له القدر فجاء الوحى بأن الانتقام سيأتى من البحر عندما يصل رجال من البرونز ، ولم يمر إلا وقت قصير حتى نزل إلى شاطىء الدلتا على مقربة من المكان الذى كان يعيش فيه ، بستمك ، قراصنة من اليونانيين والكاريين يلبسون دروعاً وخوذات من البرونز فعرف فيهم الرجال الذين تحدثت عنهم النبوءة ، فأغراهم بالوعد والمال ، وحالفوه وكانوا عونه فى التغلب على الأمراء الآخرين .

هذه هى رواية هيرودوت ، ولكن الذى نعلمه من المصادر أن القائد المسمى ،جيجس، كان صديقاً لبستمك وكان جيجس هذا قد اغتصب عرش مملكة ليديا فأرسل له جنوداً مرتزقة من المدربين على القتال بكامل عدتهم لمعاونته . وبعد أن أصبح بستمك سيدا لمصر كلها طرد الأشوريين أيضاً بمعونة هؤلاء الجند؛ لأن جيجس وبستمك كان كل منهما مهدداً بالأشوريين ولهذا تحالفا على تحطيم جيوشهم فى مصر وفى غرب آسيا .

وما أن تم الأمر لبستمك ودانت له الدلتا كلها وتخلص من جنود أشور حتى بدأ

يفكر فى الصعيد وثروة أمون فى طيبة . وبالرغم من ولاء منتومحات للبيت المالك فى نبتا ووجود الأميرة ، شب – إن – أوبت ، الثانية إبنة بعنخى كزوجة إلهية لأمون وإلى جوارها الأميرة ( أمون إردس ) الثانية إبنة طهرقا كإبنتها بالتبنى ، فإن كهنة طيبة ومنتومحات لم يجدوا أمامهم مفراً من الإذعان لبستمك وقبول سيادته ، وقبلت ، شب – إن – أوبت ، الثانية أن تعترف بتبنى إبنة بستمك وكانت تسمى ، نت إقرت ، ( نيتوكريس ) لتكون بعدها زوجة إلهية لأمون ، وبذلك يضمن لنفسه هذه الثروة الضخمة . ومن النص الذى يروى لنا احتفالات التبنى نعرف بيان الممتلكات التى آلت إلى نيتوكريس ، وكانت كثيرة وفى أقاليم عدة فى الجنوب والشمال . ولم يذهب بستمك إلى طيبة ليحضر هذه الإحتفالات بل أناب عنه أحد خلصائه المسمى (سماتاوى تاف نخت ) الذى كان حاكما لإقليم إهناسيا وفى هذا الحفل سميت نيتوكريس ( شب – إن – أويت ) وأصبحت ثالث زوجة إلهية لأمون تحمل هذا الاسم .

ولم يطمئن بستمك إلى ولاء كهنة طيبة وخاف من إتصالهم بنپتا ولهذا عين أحد الرجال المخلصين له وهو ( نس ناو ياو ) فى وظيفة حاكم الجنوب وكان مقره فى إدفو ، وكان الغرض من هذا الإجراء بطبيعة الحال الحد من سلطة منتومحات ؛ لأنه كان من سلطات حاكم الجنوب الجديد أن يكون له الإشراف على الحامية الى كانت فى إلفنتين لتعزيز حراسة الجنوب .

وقام بستمك بإصالحات عديدة ، وأنشأ جيشاً وأسطوالا كان قوامهما الجنود المرتزقة من الأجانب وعدد كبير من المصريين ، وقام بإصلاحات كثيرة فى المعابد . وقد طال حكم هذا الملك حتى زاد على الخمسين عام ( ٦٦٣ – ٦٠٩ ق.م.) ولم يمت إلا بعد أن رأى الإستقرار قد شمل البلاد بدأت تجارتها فى الإزدهار بفضل تشجيعه المستمر للتجار الإغريق الذين كثر توافدهم على مصر لإستيطانها . وإذا كنا نحمد لبستمك الأول جهاده لتحرير البلاد من الأشوريين ونحمد له همته وكفاءته فى القبض على ناصية الأمور ، فإننا لا نحمد له فى إستمراره فى استقدام الجنود اليونانيين إلى مصر وتشجيعه بكل الوسائل للتجار اليونانيين ، إذ أن نتيجة ذلك كانت إبعاد المصريين الوطنيين عن حياة الجندية الصحيحة واعتماد ملوكها على الأجانب لحفظ الأمن ، وفى ذلك دون شك إضعاف للروح القومية ، كما أخذت الثروة تتكدس فى أيدى التجار اليونانيين الذين انتشروا فى طول البلاد وعرضها يحميهم نفوذ الحاميات من أبناء جلدتهم ، فلم يستطع التجار الوطنيون مجاراتهم في ذلك الوقت . أما فى الفنون فإننا نعرف أن التقاليد الفنية لم تنتشر فى أى وقت من الأوقات ويكفينا أن نزور

مقبرة منتومحات فى طيبة وأن نرى تماثيله أو تماثيل غيره من ملوك أو كهنة الأُسرة الخامسة والعشرين لندرك أن المدرسة الفنية ، وبخاصة فى طيبة ، لم يصبها الوهن ولم تعدم الإبتكار والتجديد مع الوصول إلى المستوى الرفيع ، ولكننا نرى فى الوقت نفسه إتجاها جديداً فى الفن والأدب وهو الرجوع لمحاكاة القديم وبخاصة ما كان من الدولة وأحياناً من الأسرة الثانية عشرة . وما هذا التقليد أو المحاكاة إلا صدى للشعور الذى أخذ يحس به الكهنة والفنانون المصريون عندما رأوا اليونانيين يقيمون بين ظهرانيهم فخشوا على تراثهم القديم من الضياع إذا هم تركوا للداعين إلى التجديد ثغرة ينفذون منها . ولهذا جاءت هذه المبالغة التى نحسها فى العودة إلى القديم فى كل شيء. ولكن هذه العودة فى ذاتها دليل على أن الحيوية الكامنة قد بدأت فى الذبول ، إذ أنه ما من شعب فى الأرض ينظر دائماً إلى الوراء ويحاول تقليد آبائه وأجداده ويعيش فى جو كالذى عاشوا فيها رغم مرور الأجيال ، إلا وكان ذلك إيذانا بتدهوره لأنه مخالف لسنة الحياة .

## نكاو الثانى : (   ق . م . )

احتفظت مصر أثناء حكم بستمك الأول الذى زاد على الخمسين عاما باستقلالها واستتب أمورها ، ولكن الأمور فى غرب آسيا كانت قد وصلت إلى درجة الغليان فإن النزاع بين مملكتى بابل وأشور كان يشتد تارة ويضعف تارة أخرى ، حتى تمكنت بابل بعد جهاد طويل من تخليص نفسها من سيادة أشور . أما مملكة الميديين فى إيران فإنها كانت بدورها قد أخذت تظهر على مسرح السياسة فى العالم القديم ، وأخذوا يكيدون بدورهم لمملكة أشور فتحالفوا مع بابل ودمر الحليفان عاصمة الأشوريين « نينوى » وقضوا على مملكتهم ، ثم اقتسم الحليفان الجديدان الميراث بينهما فكان للميديين جزء كبير من وادى دجلة فى شرقه وفى غربه ، أما بابل فقد آلت إليها سورية .

وأراد « نكاو » أن يستفيد من الظروف وأن يجعل لمصر صوتا مسموعاً فى سياسة هذا الجزء من العالم فقرر معاونة أشور التى أخذت تحاول الثأر لنفسها ، وجهز جيشا تقدم به نحو العراق ولكن « يوشيا » ملك يهوذا الذى كان حليفاً لبابل تصدى لجيش مصر ، وجهز بمعونة بابل جيشا وتقابل الجيشان المصرى واليهودى عند مجدو فكان النصر حليف المصريين وقتل « يوشيا » وخلفه إبنه ، ولكن لم تمض ثلاثة شهور أخرى حتى تمكن جنود « نكاو » من أسره وبعثوا به إلى مصر، وعين « نكاو » فى مكانه آخا آخر له وكان إسمه « اليقيم » ، وغير إسمه إلى « يهويقيم » الذى قبل الخضوع لمصر كما قبل فع تعويض كبير لها ، وتقديم الجزية .

وأتم نكاو إخضاع باقى المدن السورية ووصل إلى الفرات ولكن « نبو ختنصر » ( Nabuchodonosor ) ملك بابل جمع جيشاً واعترض المصريين فدارت بين الجيشين معركة كبيرة فى قرقميش ، وكان ذلك حسب رواية التوراة فى العام الرابع من حكم « يهويقيم » ( الملوك الثانى : ٢٣ ، ٢٤ وأرميا ٤٦ ) فدارت الدائرة على جيش « نكاو » وعاد مهزوما إلى الدلتا .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق شعور « نكاو » بعد هذه الهزيمة فهل صرف نظره عن محاولاته التدخل فى شئون فلسطين وسورية ، والتفت لتشجيع التجارة فأنشأ أسطوله الكبير ، أم أنه أراد أن ينشىء أسطولا قويا ليكون دعامة فى هجومه على سورية كما فعل فراعنة الأسرة الثامنة والتاسعة عشرة من قبل !!

وأنشا « نكاو » أسطولا فى البحر الأبيض المتوسط ، كما نعرف أيضاً من رواية لهيرودوت ( Herodotus, II & 159-9 ) أنه أنشأ أيضاً أسطولاً صغيراً فى البحر الأحمر ، وأراد أن يكتشف ساحل إفريقيا فأرسل بعض السفن وفيها ملاحون فينيقيون قضوا ثلاث سنوات فى رحلتهم حول الشاطىء الإفريقى حتى عادوا من بوغاز جبل طارق إلى مصر محملين بجميع خيرات إفريقيا مما حصلوا عليه فى الموانئ التى مروا بها . وكان مما ذكره هؤلاء الملاحون أنهم ساروا دائماً وكانت الشمس تشرق عن يسارهم ولكنهم وصلوا إلى نقطة فإذا بهم يرون أن الشمس تحولت وأخذت تشرق عن يمينهم . ورفض هيرودوت تصديق ذلك بينما أن هذه النقطة بالذات تدل على صدق أنباء الرحلة ؛ لأن ذلك حدث عندما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح .

وكان من أهم الأعمال الإنشائية التى فكر فيها « نكاو » أن يحيى من جديد مشروع توصيل البحرين الأبيض والأحمر وذلك بعمل قناة تبدأ من مكان على مقربة من الزقازيق حتى تصل إلى البحيرات فى نقطة قريبة من مكان مدينة الإسماعيلية الحالية ، وهى قناة قديمة أنشئت فى أيام الدولة الحديثة على الأرجح ولكنها كانت تهمل من آن لآخر حتى عفت آثارها . فأراد « نكاو » أن يعيد هذا المشروع لتتمكن السفن التى فى البحر الأبيض من الملاحة فى النيل حتى منف ثم تأخذ طريقها فى الفرع البوبسطى ومنها تخرج إلى هذه الترعة فتصل إلى مياه البحر الأحمر . ويقص علينا هيرودوت أن « نكاو » تحمس لمشروعه ونفذ الجزء الأكبر منه وهلك فيه مائة وعشرون ألفا من المصريين ، ولكن نكاو أمر فجأة بترك العمل لأن نبوءة « بوتو » جاءت بأن الآلهة تأمره بترك العمل ؛ لأن هذه القناة ليست فى صالح مصر ، وأنه لن

يستفيد منها إلا الأجانب [١] . وهذا المشروع هو بعينه الذى أتمه دار الفارسى لمصلحة بلاده ، وهو أيضاً مشروع قناة السويس الذى سبب أكبر النكبات لمصر فى تاريخها الحديث قبل أن تؤمم وتعود أمورها إلى أيدى أبناء البلاد .

**خلفاء نكاو الثانى :**

تولى عرش مصر بعد نكاو الثانى إبنه پسمتك الثانى ولم تزد مدة حكمه على سبع سنوات . وإن كان هذا الملك لم يترك وراءه آثاراً كثيرة إلا أننا نعرف أنه ذهب إلى سورية – وربما كانت زيارة فقط وليست حملة حربية – كما نعرف أيضاً أنه ذهب مع جيشه إلى جنوبى مملكته ووصل إلى وادى حلفا . وكان هذا الجيش مؤلفا من يونانيين ومن مصريين ومن سوريين ومن بعض اليهود ، وقد ترك الجنود الكاريون نقشا يذكرون فيه رحلتهم هذه على ساق أحد تماثيل رمسيس الثانى أمام معبد أبو سمبل . ونعرف من أخبار هذا العهد أيضاً أن تجارة اليونانيين وبخاصة المقيمين فى مدينة « نوكراتيس » ازدهرت إلى أبعد الحدود كما كثر الجنود الإغريق وأصبحت هناك ثلاث حاميات رئيسية كبيرة واحدة منها ماريا فى غربى مصر على شاطىء البحيرة المعروفة بإسم مريوط ، وجيش ثان فى شرقى مصر فى « دفنة » ، والحامية الثالثة ، أو الجيش الثالث ، كان فى إلفنتين . ونعرف أيضاً أن هذه المدينة الأخيرة أصبحت مزدهرة وكانت تقيم فيها جالية يونانية تعتمد على التجارة . وكان حكم بستمك الثانى بين عامى ٩٥٤ ، ٥٧٨ ق.م وتلاه على العرش الملك « واح – إب – رع » المعروف للمؤرخين بإسمه فى الصيغة اليونانية ( إبريس ) .

**« واح – إب – رع » ( ٥٨٨ – ٢٦٨ ) :**

ونحن نعرف تفاصيل حكم هذا الفرعون – كما عرفنا التفاصيل القليلة من حكم سلفه – من هيرودوت ، ومن التوراة ، ومن الآثار القليلة التى أمدتنا بالشىء القليل عن تاريخه .

لم تكن الحالة قد هدأت فى غربى آسيا بل ازدادت سوءاً ، وكان ذلك ناشئا عن تطاحن الدويلات السورية والفلسطينية فيما بينها والمتاعب التى سببتها أطماع مملكة بابل فى تلك البلاد . وكانت مملكة أورشليم موالية لمصر فقاومت أطماع « نبو ختنصر » فاستولت عليها جيوشه ودمرت أورشليم تدميراً كبيراً وأخذت الآلاف من

رجالها القادرين أسرى إلى بابل ( الملوك الثانى ٢٥ ) كما فر كثير من اليهود إلى مصر خوفا من مذابح البابليين فرحب بهم أبريس وسهل لهم العيش فى ربوعها ، وانتشرت جالياتهم فى الأماكن المختلفة ، حتى إلفنتين فى أقصى الجنوب كانت فيها أيضا جالية كبيرة منهم .

وإذا كانت فلسطين الداخلية أصبحت تحت رحمة بابل ، فإن مدن الشاطىء كانت تحت رحمة الأسطول المصرى . وقد ذكرت لنا المصادر اليونانية أن إبريس قاد جيشا إلى فلسطين كما هزم أسطول الصيداويين فى البحر . وكان « واح – إب – رع » ( إبريس ) ميالا إلى اليونانيين مثل من سبقه من ملوك هذه الأسرة ، ولكن حدث فى أيامه رد فعل لهذا الإيثار للأجانب ، وبدأ المصريون يحسون أنه قد آن الأوان لوضع حد لذلك . وجاءت الفرصة عندما إستنجد الليبيون بفرعون مصر ليحميهم من تدفق اليونانيين على بلادهم بعد أن وضعوا أقدامهم هناك بعد إنشاء مدينة قورينة [١] ، وإقتسموا فيما بينهم دون وجه حق مساحات واسعة من أملاك الأهالى ، اغتصبوها ضد إرادتهم .

وكان « واح – إب – رع » مضطرا لإرسال جيش لمعاونة الليبيين ولكنه لم يرسل أحداً من اليونانيين؛ لأنه خشى ألا يحاربوا بنى جلدتهم فأرسل جيشا من المصريين ، فوقع الجيش فى كمين بسبب خيانة اليونانيين وكاد يبيده يونانيو ليبيا . وعند ذلك قامت ثورة مصر كما أعلن من نجوا من الجيش عصيانهم فأرسل « واح – إب – رع » أحد قواده المصريين لتهدئة الحالة ولكن هذا القائد وكان اسمه « أحمس » انتهز الفرصة وقبل مبايعة الجنود له بالملك ، وتقدم نحو مصر التى كانت تلتهب بالحماس ضد « واح – إب – رع » فلم يجد حوله غير اليونانيين الذين لم يستطيعوا الثبات أمام الجنود المصريين فدارت الدائرة عليهم ، وأخذوا « واح – إب – رع » نفسه أسيراً ، فأحسن « أحمس » معاملته ، وقبل أن يظل إسمه كملك للبلاد وأن يكون أحمس شريكا له فى الملك . وظل الحال على ذلك نحو ثلاث سنوات إلى أن خان « واح – إب – رع » العهد الذى قطعه على نفسه وإستعان بفلول اليونانيين فى البلاد ، وقامت حرب بين الملكين فكانت هذه المحاولة سببا فى ازدياد النقمة على اليونانيين خصوصا وأننا نعلم من النص الوارد على إحدى اللوحات الموجودة فى المتحف المصرى [٢] أن

أحمس أخذ يذكر المصريين بما أصاب مصر من كوارث بسببهم . وقد مات « واح - إب - رع » فى هذه المعركة ، وأكرم أحمس رفاته وإعتنى بدفنها العناية اللازمة .

**أحمس الثانى :**

وهكذا أصبح أحمس ( أماريس ) ملكا على مصر وحده ، ويبدأ حكمه فى عام ٥٦٨ وينتهى فى عام ٥٢٥ وكانت أول صعوبة صادفته هى تهدئة ثورة المصريين ضد اليونانيين . فقد كان يدرك تمام الإدراك أنه لا يمكن أن يطمئن على سلامة البلاد إلا بوجود الجنود اليونانيين؛ لأن الحالة فى غربى آسيا كانت وصلت إلى أبعد حد من السوء ضد مصر ، كما أن قوة اليونانيين بوجه عام إزدادت فى البحر الأبيض المتوسط ولم يكن من حسن السياسة إضعاف الجيش وجلب عداوة جميع الدويلات اليونانية وشل إقتصاديات مصر إذا تعرض للتجار الأجانب وطردهم من البلاد .

واستطاع أحمس أن يخرج بلباقة من كل هذه المآزق فأرضى شعور الوطنيين من رجال الجيش باستدعاء اليونانيين من الحاميات التى على الحدود وأرسل المصريين ليحلوا محلهم ، ولكنه لم يسرح اليونانيين بل تركهم يعيشون فى منف وأرضى شعور التجار المصريين الذين كانوا يغيرون من ثراء اليونانيين ومنافستهم بجمعه التجار اليونانيين فى مكان واحد فى مدينة « نوكراتيس » فى غربى الدلتا ، وأرضى اليونانيين بأن سمح لهم أن يحيلوها إلى مدينة يونانية بالمعنى الكامل ، وأن يقيموا فيها معابدهم وأسواقهم ، وسرعان ما ازدهرت هذه المدينة وأصبحت مركزا رئيسياً للتجارة بين مصر وبلاد اليونان وغيرها .

وكان أحمس رجلا لبقا يحسن مقابلة الناس ، وكان ينصرف إلى عمله أثناء النهار فإذا ما انتهى من ذلك ترك لنفسه العنان بين أصدقائه المختارين فى مجالس الشراب . وقد أطال هيرودوت فى وصف هذه الناحية من أخلاقه ، فهو سياسى داهية ولكنه عربيد لطيف جميل المعاشرة ، وبخاصة مع أصدقائه من كبار القواد أو التجار اليونانيين الذين كانوا يأتون إلى مصر .

وعرف أحمس أن الخطر كان كامنا عن يمينه وعن يساره ، فأما عن خطر الغرب فقد حصن أحمس حدوده وأنشأ حاميات كثيرة على الشاطىء . وفى الواحات ، وشجع إقامة الناس فيها ، وبنى المعابد فى سيوة وفى البحرية وفى الخارجة [1] ليجعل

من الواحات الحصون الأمامية إذا جد خطر وحدثت مهاجمة لمصر من يونانيي ليبيا . أما فى الشرق فكان الأمر مختلفا إذ كانت الدولة البابلية تمد بصرها نحو مصر نفسها ، واضطر أحمس لأن يخوض معركة فى أوائل سنى حكمه فى فلسطين وهزم العدو جنوده الأغريق . ولكن جيوش بابل لم تستمر فى هجومها على مصر . ومع ذلك فقد ظل الخطر كامنا وإستعد أحمس له باحتلال أسطوله لجزيرة قبرص ، كما عقد محالفة مع « كرويسوس » ملك ليديا ، وأنهى نزاعه مع قورينة فصالحهم وتزوج أميرة منها .

نجحت سياسة أحمس كل النجاح ، وقضت مصر عهداً مزدهراً فى كل ناحية ، وأثرت البلاد إثراء كبيراً من التجارة ، وإستقرت فيها الأمور ، ولكن فى العام الأخير من حياته أخذت السحب تتجمع ، وكانت العاصفة على وشك الانقضاض على مصر ولكنه مات قبل أن تتعرض مصر لهذا الخطر فكان نصيبه خليفته « يسمتك الثالث » التعرض لهذه الكارثة .

## يسمتك الثالث :

قضى أحمس الثانى ثلاثة وأربعين عاما على العرش ، وكان الخطر فى أوائل أيام حكمه آتيا من ناحية مملكة بابل ، ولكن قبل أن يموت أحمس بثلاثين عاما كانت الأمور فى غربى آسيا قد بدأت تأخذ طريقا آخر وذلك راجع إلى ظهور ملك جديد للميديين فى إيران إسمه « قورش » ( Cyrus ) استطاع فى عام ٥٥٥ أن يصبح الحاكم المطلق للميديين فى بلاد الفرس ثم انقض كالصاعقة يزيل كل من اعترض طريقه فاستولى على ليديا وأسر « كرويسوس » كما استولى على مدينة بابل فى عام ٥٣٩ وأصبح سيد غربى آسيا دون منازع ، ولكنه ظل حيث كان ولم يرم ببصره نحو مصر إلى أن مات حوالى عام ٥٣٠ أى قبل موت أحمس بنحو خمس سنوات .

وأخذ خليفته وابنه قمبيز يعد العدة لإتمام ما بدأه أبوه . فأخضع باقى دويلات آسيا الصغرى والجزر اليونانية . وجمع جيشا كبيرا فى آسيا لمهاجمة مصر ، وكان أحد القواد اليونانيين من جيش أحمس قد فر إلى قمبيز وأخذ يغريه بمهاجمة مصر ويرسم له الخطة ويدله على مواطن الضعف فى استحكامات البلاد . ولم تطل حياة أحمس ليرى هذا الهوان إذ مات فى العام الذى قرر فيه قمبيز مهاجمة مصر فسار الجيش تحت قيادة الإغريقى الخائن فكانت أول معركة تقابل فيها جيش الفرس مع جيش مصر عند پلزيوم ( تل الفرما ) . وبالرغم من جيوش استبسال المصريين ومأجورى اليونانيين وحسن دفاعهم تغلبت عليهم جيوش الفرس فارتدوا إلى منف وتحصنوا فيها فتبعتهم جيوش الفرس إلى هناك وأخيراً اضطر المصريون إلى التسليم .

وكان قمبيز مع جيشه فى مصر فأكرم بسمتك الثالث وأحسن معاملته وأطلق سراحه ، ولكن بسمتك حاول مرة أخرى أن يثير الشعور ضد قمبيز فقبض عليه فانتحر. وبعد ذلك سار قمبيز واستولى على طيبة وبعد أن استتب له الأمر أعد جيشين أرسل أحدهما إلى الواحات لكى يحطم معبد آمون فى واحات سيوة أما الآخر قاده بنفسه ليستولى على بلاد كوش ( أثيوبيا ) . وهكذا انتهت أيام الأسرتين الخامسة والسادسة والعشرين وصارت مصر فى عام ٥٢٥ قبل الميلاد محكومة بجيش أجنبى وهو جيش الفرس ، كما رأت أن هذا العدو الجديد أخذ يمد ببصره نحو الجنوب ليقضى على مملكة نبتا ويضم السودان إلى إمبراطوريته الواسعة .

# الفصل الرابع

# مـــد و جـــزر

## الفترة بين قمبيز والإسكندر الأكبر
## (٥٢٥ ـ ٣٣٢ ق.م.)

## الأسرات السابعة والعشرون حتى الثلاثين
## (٥٢٥ ـ ٣٤١ ق.م.)

- الأسرة السابعة والعشرون (٥٢٥ ـ ٤١٥ ق.م.)
- الأسرة الثامنة والعشرون (٤٠٤ ـ ٣٩٨ ق.م.)
- الأسرة التاسعة والعشرون (٣٩٨ ـ ٣٧٨ ق.م.)
- الأسرة الثلاثون (٣٧٨ ـ ٣٤١ ق.م.)



قمبيز

# مـــــد وجـــزر

## الفترة بين قمبيز والإسكندر الأكبر

## (٥٢٥ - ٣٣٢ ق.م.)

## الأسرات السابعة والعشرون حتى الثلاثين

## الأسرة السابعة والعشرون ( ٥٢٥ - ٤١٥ ق.م.)

**قمبيز فى مصر :**

لسنا نعرف عن أخبار الفتح الفارسى لمصر من المصادر المصرية إلا قليل ، وبخاصة ما أشار إليه ، وچا - حر - رسنت ، على تمثاله المحفوظ الآن فى متحف الفاتيكان [١] من أمر كان مرعى الجانب فى بلاط قمبيز وأنه كان أميراً على الأسطول المصرى وأنه إستطاع أن يجعل قمبيز ذا عواطف طيبة نحو مصر وآلهتها وبخاصة صان الحجر التى قامت فيها ثورة ( وهو يشير بذلك طبعاً إلى مقاومة المدينة للأجانب عند دخولهم إليها ) لم يكن لها شبيه . ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص ممن إنضموا إلى قمبيز ، وتعاون مع الفرس الفاتحين وكان عوناً لهم فى حكم البلاد . أما هيرودوت فيروى رواية أخرى مختلفة فيقول إن الفاتحين عاثوا فى الأرض فساداً وأن قمبيز أساء معاملة الكهنة والآلهة ، بل يعزو إليه أنه قتل العجل أبيس . ولكننا لا نستطيع أن نوفق بين الروايتين فى أن ما ذكره هيرودوت فى إساءة معاملة المصريين وتخريب المعابد كان صحيحاً فى البداية . كما أن رواية ، وچا - حر - رسنت ، صحيحة أيضاً بعد أن هدأت الحالة ؛ لأنه يذكر أن قمبيز أمر بطرد المعتدين من المعابد وإخراجهم منها بعد أن إستقروا فيها ، كما أمر بإصلاحها مما يثبت أن جنوده عسكروا فى هذه المعابد بعد نهبها ، كما أنه يجب ألا يغيب عن ذهننا أن العداء كان مستحكما بين الفرس واليونان ، ولسنا نتوقع من يونانى أن يكيل المدح لعدوه أو يغمض العين عن مساوئه .

أما عن الجيشين اللذين خرجا من طيبة إلى إثيوبيا وإلى الصحراء الغربية فإن قمبيز نفسه كان على رأس أولهما وقد بالغ هيرودوت فى قص قصة هذا الجيش وما لقبه من مخاوف ثم جاء استرابون فزاد فى الرواية وتفنن فيها . وعلى أى حال فإن هذا الجيش قد ذهب حقيقة إلى الجنوب ووصل إلى مروى (١) ، ولكنه أصيب بهزيمة كبيرة على يدى ملوك نبتا الذين إلتقوا بهذا الجيش بعد أن خارت قواه وأصابه الجوع والخوف والتعب .

أما الجيش الآخر فكان نصيبه أسوأ من نصيب الأول إذ أنه خرج من طيبة فوصل إلى الواحات الخارجة بعد سبعة أيام ومكث هناك بعض الوقت وأخذ معه ما يلزمه من مؤونة وأدلاء ، وذهب فى طريقه إلى واحة سيوة . ولكن هذا الجيش بأكمله هلك فى الصحراء ولم يعد شخص واحد منه إلى الخارجة أو يصل جندى واحد إلى سيوة ، ومازال هذا الجيش مطموراً تحت رمال الصحراء الغربية حتى الآن . والسبب الذى دعا إلى غزو أثيوبيا كان دون شك الطمع فى ثروتها وذهبها وحب الغزو والفتح ، أما سبب إرسال جيش على سيوة فكان له دافع آخر . كان العالم القديم إبتداء من القرن السابع قبل الميلاد يؤمن إيماناً كبيراً بنبوءات الوحى التى تأتى من بعض المعابد واشتهرت فى بلاد اليونان وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط بعض مراكز للنبوءات كان يؤمن بها الناس إيماناً أعمى واشتهرت من بينها شهرة كبيرى نبوءة آمون فى سيوة ، التى كان يحج إليها حكام وقواد بلاد اليونان يسألونها عن المستقبل فتحققت نبوءتها . وسئل كهنة آمون فى سيوة عن قمبيز وغزو الفرس لمصر فجاء الجواب بأن الفرس سيرحلون وأن قمبيز سيلاقى سوء المصير فى القريب العاجل .

وكان التنافس شديدا بين الفرس واليونان ، ولهذا كان رد نبوءة آمون مشدداً للعزائم وداعياً إلى اتحاد الإغريق ، فأراد قمبيز أن يثبت تفاهة هؤلاء الكهنة فأرسل عليهم الجيش لهدم المعبد وقتل كهنته . ويؤكد لنا هيرودوت – الذى كتب تاريخه وزار مصر بعد خمسة وسبعين عاما من هذه الحوادث – أن كهنة آمون فى سيوة سئلوا عن مصير هذا الجيش فقالوا بأنه حدث فى اليوم الرابع بعد أن تركوا واحة الخارجة ، عندما استراحوا فى منتصف النهار ليتناولوا طعامهم ، أرسل عليهم آمون غضبه وانتقامه فقامت زوبعة رملية شديدة ردمتهم تحتها .

وسواء أصح ما ذكره هيرودوت بأن قمبيز أصابه الجنون عندما رأى فشله

واقترف فظائع كثيرة ، أو أنه لم يجن ، فإنا نعرف أنه لم يبق فى مصر كثيراً بعد فشله فى السودان ومات فى سورية وهو فى طريقه إلى بلاده .

**دارا بن قمبيز ( ٥٢٢ – ٤٨٥ ق.م. ) :**

ترك قمبيز والياً فارسياً على مصر فجعل مركز حكومته فى منف . وما أن جاءت الأخبار بموته حتى قامت ثورة فى ليبيا فأرسل الوالى الفارسى وإسمه « أرياندس » حملة لتأديب العصاة فكان الفشل نصيبها ، وقتل قائدها عند عودته إلى مصر عقاباً له . ورأى داريوس ( وهذا هو النطق اليونانى لإسمه ) أن سياسة أبيه فى الإسراف فى الشدة كانت قاسية وأراد أن يستأنس برأى « وچا – حر – رسنت » فاستدعاه إلى فارس فأشار إليه بعدة أشياء أمر بتنفيذها ، ومنها إعادة النظر فى القوانين وإلغاء ما أصدره قمبيز من قانون يقضى بمصادرة إيرادات أكثر معابد مصر ، كما أمر أيضا بجمع كل القوانين التى وضعت فى مصر حتى نهاية حكم أحمس الثانى؛ لأنه أراد أن تحكم مصر بقوانينها ، وأمر أيضاً بإصلاح ما تهدم من المعابد بقدر الإمكان .. وأتت هذه السياسة الجديدة ببعض النتائج وهدأت الأمور فجاء داريوس إلى مصر عام ٥١٨ وأمر بالاستمرار فى الإصلاحات وإتمام معبد الخارجة الكبير الذى كان أحمس الثانى بدأ فى تشييده ، كما أصدر أوامره إلى الحكام الفرس بمراعاة شعور الناس وتقديم القرابين للآلهة المصرية وبخاصة العجل أبيس الذى كانت لعبادته فى ذلك الوقت الأهمية الكبرى فى عاصمة مصر ، وكان لهذا التسامح أثره بين الفرس فبدأ كثيرون منهم يعتنقون الديانة المصرية ويتسمون بأسماء مصرية .

وأراد « دارا » أن يضمن للفرس ميادين اقتصادية للتجارة ليخرجها شيئاً فشيئاً من أيدى اليونانيين ، فأمر بإتمام القناة التى لم يتمها « نكاو الثانى » فكان لهذا العمل أثر كبير فى تجارة العالم القديم .

ولم يكن من السهل أن تطأطىء مصر رأسها لهذا العدو الجديد ، ولم تخدع نفسها بالرضوخ للغاصب مقابل بعض إصلاحات أو إقامة بعض المعابد ، ولهذا ظلت شعلة الوطنية ملتهبة فى القلوب وكانت مصر تؤيد من قلبها الإغريق الذين بدأت الحروب بينهم وبين الفرس تأخذ شكلاً خطيراً ؛ لأنهم لم يكونوا مهددين بالقضاء على ثروتهم فى التجارة فقط ، بل كانوا مهددين أيضاً بغزو بلادهم ، لأن دارا أخذ يعد نفسه لهذه المهمة الكبيرة بإنشاء أسطول ضخم . وجاء عام ٤٩٠ الذى شهد هزيمة الفرس فى موقعة ( ماراثون ) وبدأ داريوس يعد عدته للإنتقام . ومن المحتمل أن يكون قد سحب من مصر بعض جيوشه لاستخدامها فى المعركة القادمة وكان ذلك

فى العام الرابع بعد ماراثون أى فى عام ٤٨٦ ، وعند ذلك هبت ثورة عاتية فى الدلتا ضد الفرس سببت لهم خسائرا كثيرة وجعلت اليونانيين يظهرون فرحهم الشديد ، فصمم داريوس على سحق المصريين والإغريق معا ولكنه مات فى السنة التالية قبل أن ينفذ وعيده .

**خلفاء دارا وجهاد المصريين ضد الفرس :**

ونفذ كسركسيس رغبة أبيه وسار فى السنة الثانية من حكمه إلى مصر وقضى عى الثورة ونشر الإرهاب فى كل مكان . وظلت قبضة الفرس قوية على عنق مصر طيلة حكمه ، ولم يكن يعزى المصريين إلا سماعهم بأخبار هزائمه فى حربه ضد اليونانيين . وكان اليهود فى إلفنتين وغيرها من المدن المصرية أعوانا للفرس ضد المصريين فى نضالهم . وأخيرا مات كسركسيس غيلة وتولى الملك بعده ابنه ( ارتا كسركسيس ) Atraxerxes ( ارتا خشاشا ) الأول فى عام ٤٦٤ ق.م. وبعد أربعة أعوام من حكمه قامت فى مصر ثورة شديدة فى عام ٤٦٠ كان على رأسها أميران مصريان استطاعا بما قدماه من مال أن يحصلا على معونة أثينا ، فأرسلت إليهما أسطولا من السفن ذات الثلاث طبقات وصلت من البحر الأبيض المتوسط حتى منف . وكان لهذه المعونة أثرها فى انتصار المصريين على الجيش الكبير الذى أرسله ارتا كسركسيس وكان مكونا من ٤٠٠,٠٠٠ جندى ، ففرت بقية هذا الجيش إلى منف حيث تحصنوا فى جزء منها ، وحاصرهم المصريون مدى ثمانية عشر شهرا حتى وصلت إليهم نجدات أخرى . ولم يتمكن المصريون وحلفاؤهم من الإستمرار فى القتال فتركوا الحصار وعاد الأسطول من مصر فى طريقه إلى بلاده . ولكن الثورة ظلت مستمرة ومات أثناء ذلك أحد الأميرين فظل الآخر وكان اسمه ( أمون – حر ) على رأس رجاله ينازل الفرس ويجالدهم ويثير الشعور القومى . وكثيراً ما كان يعتمد على أثينا ، فتارة كانت تلبى نداءه ، وتارة أخرى تخيب ظنه وتتركه وحده .

وأخيراً جاء عام ٤٤٩ الذى عقد فيه الصلح بين أثينا وفارس ورأى الفرس أن الفرصة سانحة أيضاً لإنهاء الأثر السيء الذى أحدثته قسوتهم فى مصر وأرادوا إرضاء الشعور المصرى بتعيين ابنى زعيمى الثورة فى مكانى أبيهما ولكن الثورات استمرت ، وحتى بعد موت ارتا كسركسيس فى عام ٤٢٤ واجتهاد ابنه داريوس الثانى فى مراضاة المصريين فإن الحالة لم تهدأ . وأخيرا تحرجت الأمور وأصبحت الثورة عامة فى عام ٤١٠ وهى الثورة الكبرى التى اتخذت شكل حرب مستمرة انتهت بتحرير

## الأسرة الثامنة والعشرون

## ( ٤٠٤ – ٣٩٨ ق.م. )

**استقلال مصر :**

ولسنا نعرف شيئاً كثيراً لسوء الحظ عن الثورة العامة التى إجتاحت مصر وأخذت تتسع حتى أصبحت نضالا سافراً عنيفاً بين مصر وبين عدوها . وكل ما نعرفه أنه فى عام ٤١٠ وهو عام بدء الثورة أحس المصريون أن موقف اليهود منهم أصبح لا يطاق ، ولهذا كانت الشرارة الأولى موجهة ضد يهود إلفنتين فهدموا معبدهم هناك ، وتفرق كثير منهم ، وانتشرت الحرب بعد ذلك فإستمرت ست سنوات حتى تحررت مصر فى عام ٤٠٤ ، وفى عام ٤٠٧ ق.م. كان يهود إلفنتين قد أخذوا يبذلون مساعيهم لإعادة بناء معبدهم الذى هدم وحرق ونهبت محتوياته إنتقاما منهم ومن مظاهرتهم للفرس ، وأخذوا يكتبون الرسائل إلى جميع زعماء اليهود فى الشرق يطلبون مساعدتهم فى ذلك ليبذلوا نفوذهم لدى حماتهم الفرس ليسمحوا لهم بإعادة تشييده ، متعهدين ألا يحرقوا فيه أي مأكولات إرضاء لديانة الفرس التى كانت تحرم تنجيس النار إذا وضعت فيها أو لامستها جثث حيوانات ميتة .

وعثر فى خرائب إلفنتين ، حيث كانت تقيم تلك الجالية ، على كمية من أوراقها وفيها صور من تلك المراسلات التى تذكر أن حرق معبدهم كان فى العام الرابع عشر من حكم داريوس ، وأن الذى أصدر الأمر بحرقه شخص يسمى « ڤيدارانج » ، وكان زعيم الجالية اليهودية يسمى « يدونياه بن جمارياه » وكان يكتب بأسم الجالية كلها . ومن بين رسائله واحدة ربما كانت موجهة إلى الحاكم الفارسى يعرض فيها بإسمه وإسم جميع الزعماء اليهود أن يدفع له فى منزله كمية من المال ( فقد الرقم لسوء الحظ ) وألف أردب من الشعير كرشوة له إذا سمح لهم بإقامة ذلك المعبد فى مكانه (١) .

**الملك أمون حر : ٤٠٤ – ٣٩٨**

كان قائد الثورة هو « آمون – حر » الذى أصبح ملكا على البلاد كلها بعد طرد الفرس وأصبح المؤسس والملك الوحيد للأسرة الثامنة والعشرين التى كان مقرها فى مدينة سا ( سايس – صا الحجر ) .

اعترفت مصر كلها له بالسيادة وإعتبرته منقذها من الطغاة ، وذكره كتاب اليونان ، ولكنا لسوء الحظ لم تصلنا آثاراً مهمة من عهده ، والأثر الوحيد المؤرخ هو إحدى البرديات الآرامية من إلفنتين ، كانت بين أوراق الجالية اليهودية التى عاشت هناك ، وهى مؤرخة فى السنة الخامسة من حكمه .

ورفق المصريون بمن بقى من اليهود وتركوهم يعيشون حيث كانوا . ولكن بعد حكم ، آمون – حر ، إنتقل الملك إلى بيت آخر ، وملوكه هم الذين أسماهم مانيتون ملوك الأسرة التاسعة والعشرين .

## الأسرة التاسعة والعشرون : ( ٣٩٨ – ٣٧٨ ق.م. )

كانت الأسرة الجديدة من مدينة مندس ( تل الربع وتمى الأمديد ) ويظهر أنه لم تكن هناك حروب عند انتقال الملك من بيت إلى بيت ، وربما كان ، نايف – عاو – رود ، ويسميه اليونانيون ، نفريتس ، ( Nepherites ) من زملاء ، آمون – حر ، فى الجهاد فى حرب التحرير ، وقد حكم نفريتس ست سنوات أيضاً ( من ٣٩٨ – ٣٩٢ ) وكان أهم أعماله التى أراد القيام بها هو تحالفه مع الإسپرطيين ضد الفرس إذ أرسل إليهم قمحا ، وكل ما يكفى لإنشاء ١٠٠ سفينة من السفن ذات الثلاث طبقات ، ولكن التنافس المرير بين أثينا وأسپرطة كان سببا فى تحطيم هذا الأسطول ، وكان هذا سبباً فى اقتصار نفريتس على إصلاح داخلية بلاده وترك فارس وأثينا وإسپرطة تتنازع دون أن يحاول التدخل فى شئونها .

## الملك هكر ( أكوريس ) ٣٩٢ – ٣٨٠ ق.م.

ولكن خليفته ، هكر ، (١) خرج على هذه القاعدة وزج بنفسه فى مخالفات ضد الفرس ووقف إلى جانب أثينا فى نضالها . ولم يدخر وسعا فى تقديم المال والمؤونة لمعاونتها . ولم يهمل هكر إصلاح الحالة الداخلية وأنشأ آثارا عدة وأبقى الزمن على إسمه وبخاصة فى محاجر طرة والمعصرة كما عثر على بقايا هياكل له فى الكرنك وفى مدينة هابو وفى الكاب وغيرها .

ولم تكن الأعوام الأخيرة من حياته هادئة بل ربما مات مقتولا أو أسيراً إذ تلاه الملك ، پى – سا – موت ، ( Pasamouthis ) لمدة عام واحد . ثم خلفه ملك إسمه نفريتس الثانى لمدة أربعة شهور فقط وأخيراً استولى على الملك أمير قوى لعب دوراً كبيراً فى أواخر أيام هكر ، ولم يكن غريبا عن الإرتباك الذى حدث ، وهذا الحاكم الجديد هو ، نخت – نيف ، الأول مؤسس الأسرة الثلاثين .

## الأســـرة الثلاثـــون

## ( ٣٧٨ - ٣٤١ )

كـان إستـيلاء ، نخت نبف ، ( نخـتنبـو Necktanebo ) على العرش إيذانا بانتصار الحزب المصرى الذى أخذ يضيق ذرعا باليونانيين الذين أظهروا كثيرا من التلون أثناء نزاع مصر مع الفرس ، وأثبتوا أيام هكر أنهم غير جديرين بالإعتماد عليهم . ومن المحتمل جدا أن يكون ، نخت نبف ، وصل إلى الملك بمعونة الكهنة وبخاصة كهنة صا الحجر الذين كانوا أغنى وأهم كهنة مصر فى ذلك العهد ، ولهذا كـان أول عمل قام به أنه خصص لهم عشرات الضرائب المحصلة على تجارة نوكراتيس ( نيوت – كارت ) وصناعتها . وظهرت نتيجة مؤامرة اليونانيين على مصر عندما وجدت نفسها وجها لوجه أمام غزو فارسى جديد كان قوامه جيش جمعه الوالى الفارسى فى سورية وكان عدد رجاله ٢٠٠,٠٠٠ ومعهم فرقة مكونة من ٢٠,٠٠٠ من مرتزقة الإغريق ، وقد تمكن هذا الجيش من الوصول إلى مصر وتوغل فى الدلتا ولم ينقذ مصر من هذا الخطر إلا فيضان النيل فوقع الجيش فى حيرة ، ولم يعرف كيف يتقدم فاضطر للتقهقر ثانية إلى آسيا .

وتمتع ، نخت نبف ، بعد ذلك بشىء من الهدوء وكان نشاطه المعمارى كبيراً فخلف آثارا كثيرة فى أكثر بلاد مصر فى الدلتا والصعيد .

وفى أواخر سنى حكمه أشرك إبنه ، چد حر ، ( Teos ) معه فى الحكم وكان على غير رأى أبيه فى الإغريق ، فعاود صلته بهم ولم يكد ينفرد بالحكم فى عام ٣٦١ حتى نراه قد أصبح حليفاً لإسبرطة ، وساعده ذلك على تأليف جيش وأسطول من الإغريق المرتزقة فتكلف مبالغا طائلة حصل عليها من فرض الضرائب وإلغاء إمتيازات كهنة صا الحجر . وأخيراً إستولى على جميع ما فى المعابد من معادن نفيسة ليسك منها عملة يدفع منها مرتبات المرتزقة من جنوده . وكان غرض ، چد حر ، من ذلك جمع جيش كبير ليسير به إلى أسيا ليسحق الفرس وقد نجح فى جمع جيش كان فيه ٨٠,٠٠٠ جندى مصرى ، ١٠,٠٠٠ من المرتزقة الأثينين ، ١٠٠٠ من جنود إسبرطة وكان معه أيضا أسطول يزيد عدد سفنه على مائتى سفينة من ذات الثلاث طبقات ، وتقدم ، چد حر ، على رأس جيشه العظيم واثقا من النصر بعد أن ترك أخاه نائبا عنه فى الحكم .

وسار الجيش ، وارتعدت فرائص الفرس هناك ، وكانت مصر على وشك أن تعيد ممتلكاتها فى فلسطين وسورية لولا خيانة أخيه إذ تآمر عليه فى غيابه وأرسل سرا

إلى إبن « چد حر » وهو نختنبو الثانى ، وكان مع الجيش فى سورية ، يبايعه بالملك ويطلب منه العودة . عاد الأمير الشاب ومعه الجنود الإسبرطيون وجزء كبير من المصريين فلما رأى الأثينيون ذلك عادوا بدورهم إلى بلادهم فيئس « چد حر » بعد أن رأى خيانة إبنه وأخيه وجنوده له ، فإتخذ قرارا غريبا والتجأ إلى ملك الفرس .

## نختنبو الثانى ( ٣٥٩ - ٣٤١ ق.م. )

لم يكد نختنبو الثانى يعود إلى مصر حتى واجهته فتنة كبرى إذ أراد أحد سلالة الأسرة التاسعة والعشرين من مندس أن ينتهز فرصة هذا الشقاق وينتزع الملك ليعيده إلى بيته . وكاد ينجح فيما أراده ولكن نختنبو الثانى إستطاع بمساعدة أصدقائه الإسبرطيين من القضاء على الفتنة . وجلس نختنبو الثانى على عرش أبيه . وبدأت مصر فى عهده فترة زاهرة فى حياتها ، وبنى هذا الملك كثيرا من المعابد فى جميع أرجاء البلاد وأظهر المهندس والفنان المصريان أن الجذوة لم تزل متقدة فى النفوس فعاد للفن كثير من جماله وأخرج المثالون قطعا فنية تثير الإعجاب .

ونعمت مصر بالهدوء والطمأنينة ستة عشر عاما على الأقل ولكن حوالى عام ٣٤٣ أخذت السحب السوداء تتجمع فى سمائها مرة أخرى عندما صمم الملك الفارسى ارتاكسركسيس الثالث الملقب « أوخوس » على استرداد مصر . وقد حاول الهجوم على الدلتا عام ٣٥١ ولكنه آب بالفشل ثم عبأ بعد ذلك بعدة سنوات جميع قواه فكان جيشه يزيد عددا على ٣٠٠,٠٠٠ جندى ولديه أسطول من ٣٠٠ سفينة كبرى ، هاجموا مصر من البر والبحر . وكان الجيش الذى استطاع « نختنبو » جمعه لا يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ من المصريين والإغريق والليبيين فدارت الدائرة على مصر ، واحتل العدو منف وهرب نختنبو الثانى إلى الصعيد حيث استطاع أن يظل هناك كملك مصر عامين آخرين ، إلى أن كان عام ٣٤١ فأرسل الفرس حملة جديدة أتمت فتح مصر ودخلت البلاد مرة أخرى فى فترة قاسية من الخضوع للحكم الأجنبى .

## الفرس للمرة الثانية فى مصر ( ٣٤١ - ٣٣٢ ق.م. )

لم تطأطىء مصر هامتها فى هذه المحنة الجديدة بل تجددت فيها الثورات . ومن المؤكد أن أحد أمراء الدلتا واسمه « خباشا » قاد حركة المقاومة الوطنية وأعلن نفسه ملكا على البلاد ، وقد اعترف كهنة منف به وعثر فى السرابيوم على تابوت مؤرخ فى العام الثانى من حكمه .

ونعرف من مصدر آخر ، وهو تمثال من بداية عهد البطالمة معروف بإسم

تمثال الستراپ [١] ، بأن المصريين كانوا دائمى الثورة طيلة الأعوام الثمانية التى قضاها الفرس فى إحتلالهم الثانى لمصر .

وكان نجم الإسكندر الأكبر قد بدأ يظهر فى ذلك الوقت وسار فى حملاته الموفقة على آسيا فذهب إليه مصرى من مدينة إهناسيا يسمى « تاف نخت » وكان معه فى معركة إسوس التى هزم فيها دارا الثالث ملك الفرس ، وكان « تاف نخت » [٢] هذا قد استنجد بالإسكندر لينقذ مصر مما تعانيه من ويلات . وفى نفس العام الذى إنتهت فيه معركة الإسوس سار الإسكندر فى مصر فلم يلاق عناء فى فتحها ورحب به المصريون وإعتبروه منقذا لهم مما كانوا فيه من عناء .

كان الإسكندر قائدا حربيا ممتاز ، وكان فى الوقت عينه تلميذا لأرسطو الذى ثقفه وأعده للمهمة العظيمة التى كان من نصيبه القيام بها .

وكان الإسكندر يعرف دون ريب الكثير عن أسباب تذمر المصريين من الفرس ، وكان يعرف أيضاً أنه ليس من حسن السياسة إساءة معاملة المصريين ، ولهذا نراه منذ اللحظة التى وضع فيها قدمه على أرض مصر يظهر الإحترام الكامل لعادات البلاد وديانتها ، ويقدم القرابين للآلهة المصرية . وحرص الحرص كله على أن يتم تتويجه ملكا على مصر وفق التقاليد القديمة ، وأغدق على المعابد وأمر بإصلاحها فزادت محبة المصريين له . ولم يمض عليه غير قليل حتى فكر فى إنشاء ميناء جديد على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى مكان كانت تشغله مدينة صغيرة إسمها « راقودة » فأنشأ فيها مدينته الجديدة التى سميت بإسمه ، وأصبحت ، وما زالت إلى الآن ، من أهم المدن على شاطىء البحر الأبيض المتوسط إن لم تكن أهمها . ولم يكتف الإسكندر بتتويجه فى منف وهليوبوليس بل زار معبد آمون فى سيوة حيث إستقبله كبير كهنتها ورحب به كإبن آمون وهى الزيارة التاريخية التى تركت أثراً كبيرا فى نفس الإسكندر إلى يوم موته .

دخلت مصر منذ ذلك العهد فى دور جديد من أدوار تاريخها خصوصاً بعد تأسيس أسرة البطالمة . ونترك ذلك كله الآن ونقف عند هذا الحد من تاريخ مصر بعد أن رأينا كيف تمتعت مصر بإمبراطوريتها العظيمة فى بعض الفترات ورأينا ما أصابها

من ويلات فى فترات أخرى ، لكنا رأينا أيضاً كيف كانت مصر تخرج من هذه المحن، وقد أسخنتها الجراح ولكنها كانت لا تلبث حتى تسترد عافيتها وتقوم من كبوتها وتستأنف نشاطها القديم .

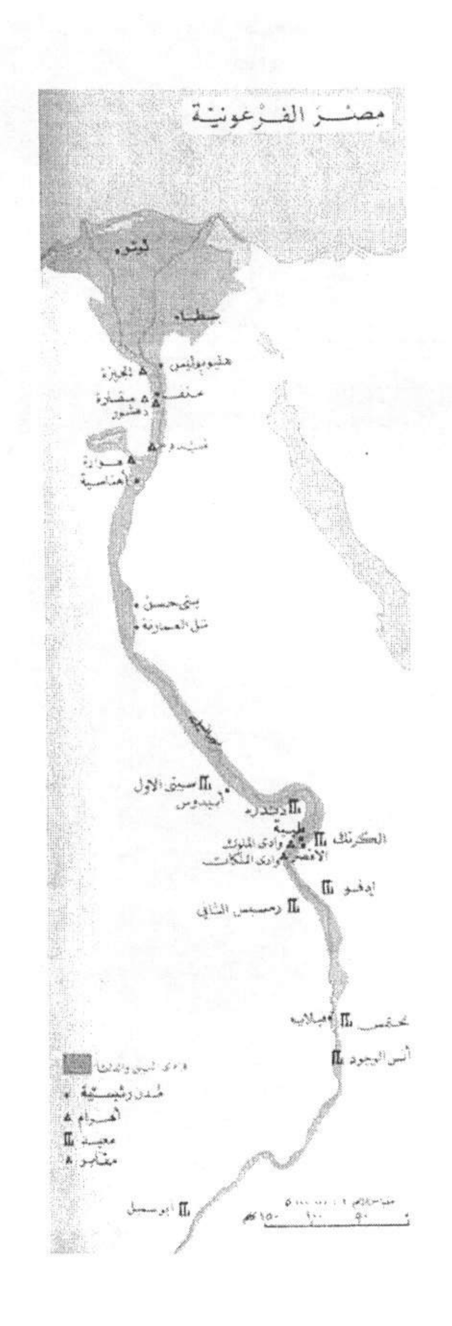
وقفت فى سرد قصة ، مصر الفرعونية ، عند زيارة الإسكندر لمصر وتأسيس أسرة البطالمة ، فهل معنى ذلك أن مصر الفرعونية قد إنتهت عند ذلك التاريخ ؟ الجواب بالنفى ، فإن مصر الفرعونية لم تنته بإنتهاء الأسرة الثلاثين ، وإنما يرجع ذلك إلى تقسيم تاريخ مصر الطويل إلى فترات محددة . وإذا كان ملوك البطالمة قد انحدروا من جد كان أصله أجنبيا عن مصر ، فإنا نعلم أنهم تمصروا مع مرور الزمن ، ولم يعرفوا لهم وطناً غير وادى النيل ولم يكن لهم ديانة غير ديانة المصريين ، ونعرف أيضاً أن آخر من حكم من هذه الأسرة وهى الملكة كليوباترة الشهيرة التى وضعت حدا لحياتها فى عام ٣٠ ق.م. ، أى عند دخول الرومان إلى مصر ، كانت مصرية صميمة فى سياستها وفى أهدافها ، وفى محاولتها القضاء على نفوذ روما وسلطانها .

وإذا كانت مصر قد آمنت بعد ذلك بالمسيحية ونبذت عنها ديانتها القديمة ، ثم فتحت ذراعيها بعد ذلك لدين الإسلام ولغة العرب فإن ذلك لا يعنى أنها تخلصت من تاريخها أو تقاليدها أو أن روح مصر الفرعونية قد عفا عليها الزمن .

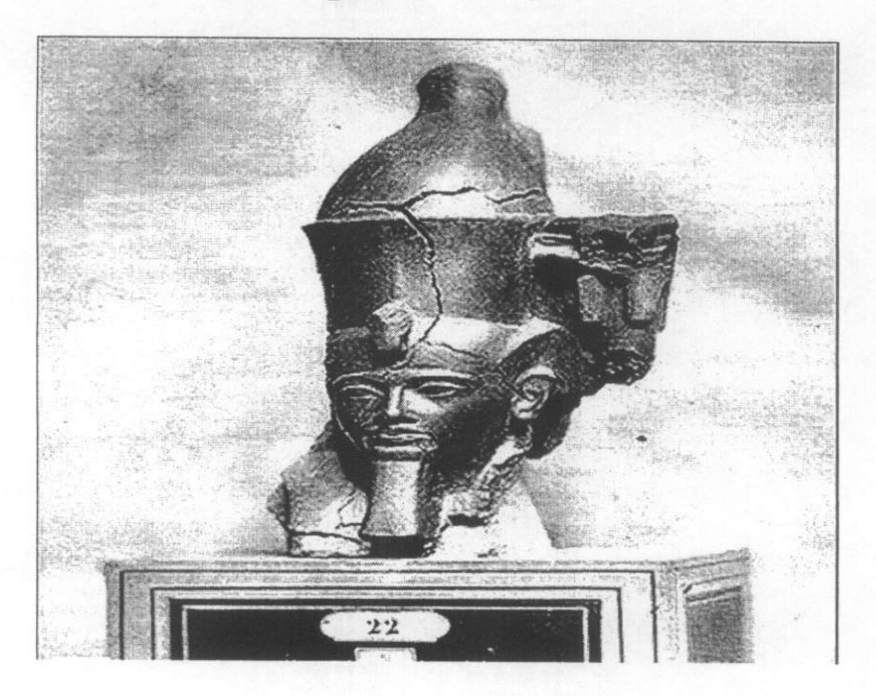
إن تاريخ مصر باق وخالد ؛ لأنه مرتبط بأرضها المباركة ، وسيحافظ عليه المصريون ويقبلون دائماً على دراسته وسيذكرون فى كل لحظة أولئك الأجداد الذين عاشوا قبلهم فوق أرض هذا الوطن العزيز ، وسيعتزون بتاريخهم ومجدهم وما ساهموا به فى تقدم الجنس البشرى .

# ملحق (٢)

# صور ملوك الأسرات المصرية

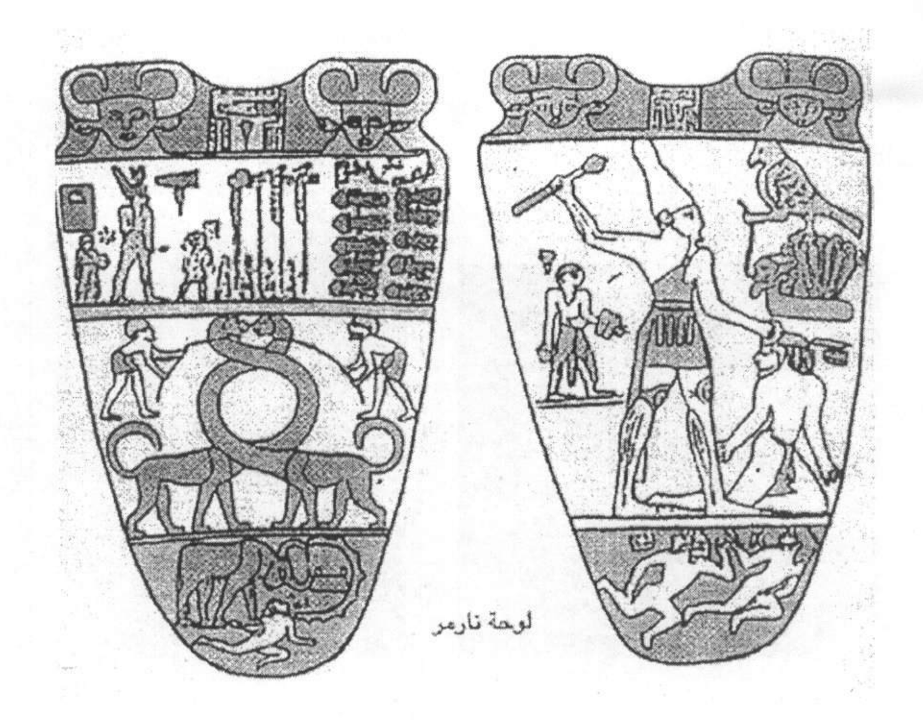


# أولا العصر العتيق



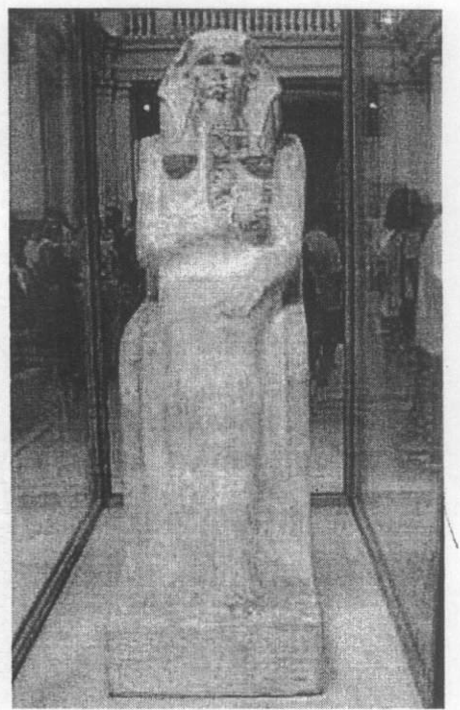



**الملك مينا موحد القطرين**
**الأسرة الأولى**



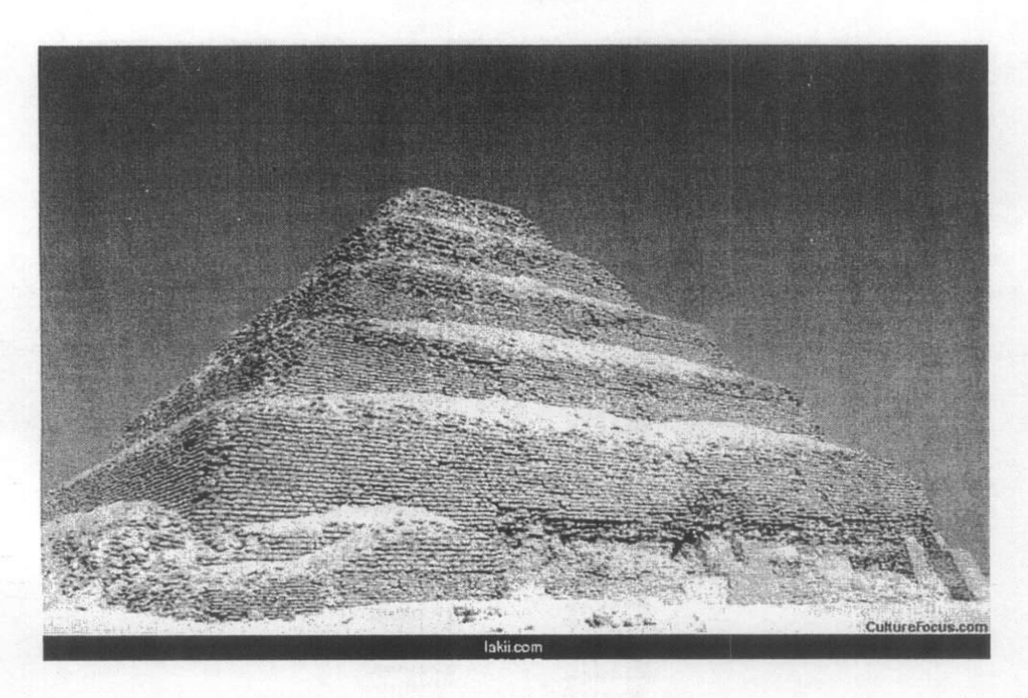



لوحة نارمر

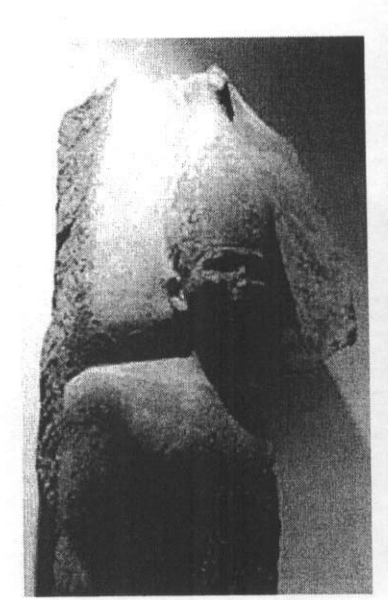
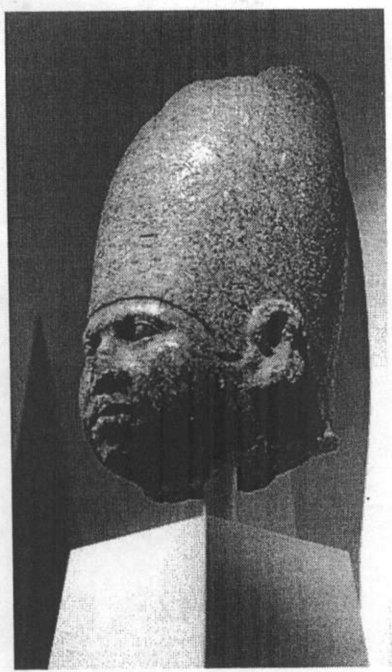




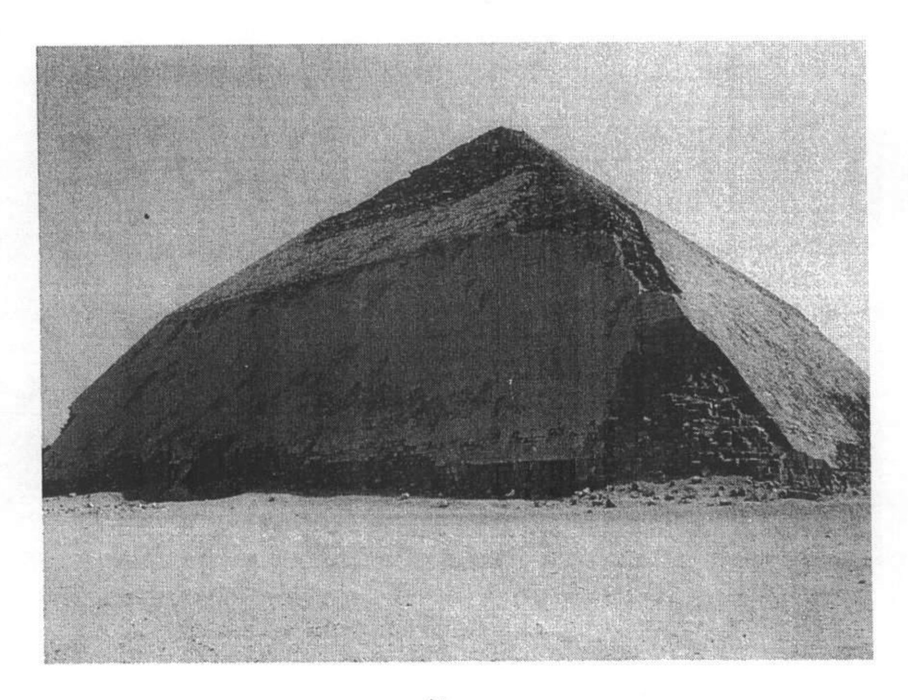
**الملك زوسر الأول**
**الأسرة الثالثة**



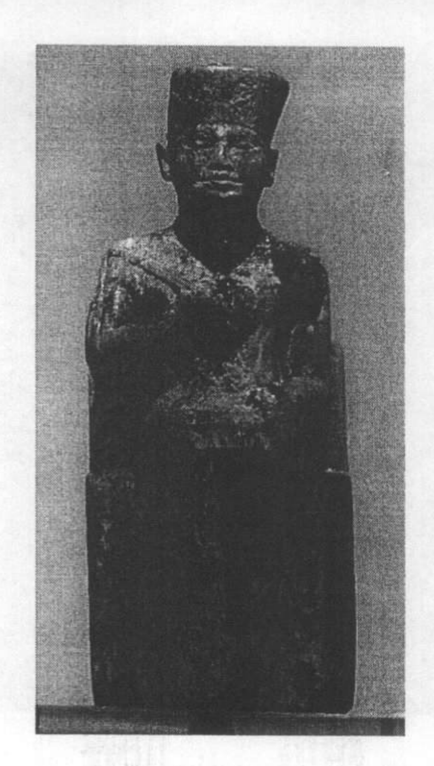

**هرم زوسر**

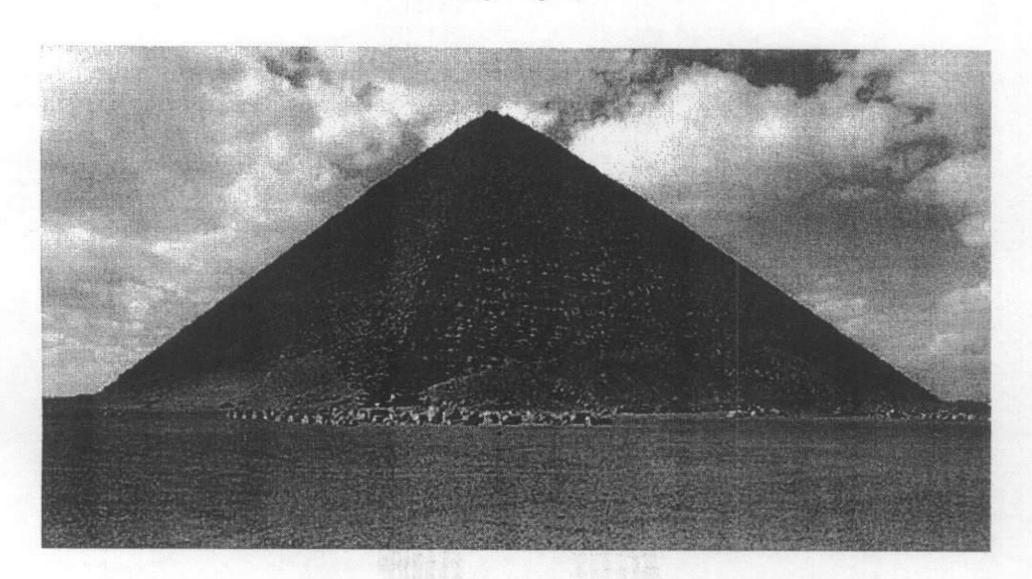
الملك سنفرو
الأسرة الرابعة



هرم سنفرو



الملك خوفو
الأسرة الرابعة



هرم خوفو

## مقطع طولي في هرم خوفو

الكسوة الخارجية من الغرانيت والحجر الكلسي

المدفن الملكي من الغرانيت الأسواني وتشاهد الحجرات الصغيرة الأربع

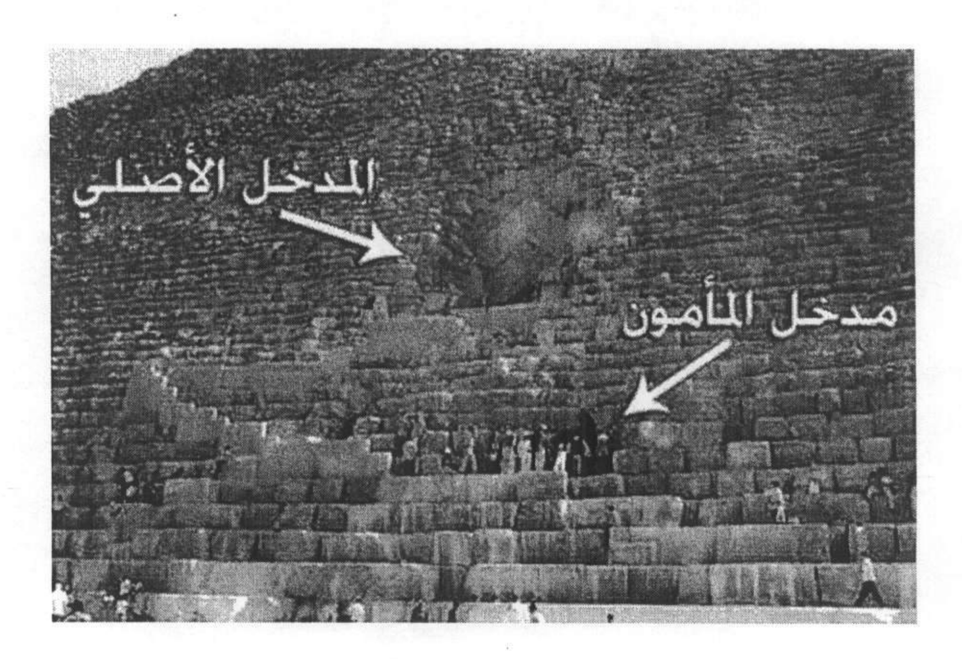
بئر للتهوية

غرفة فارغة للتمويه

رواق مزين بالرسومات

المدخل

غرفة تحت الأرض





تمثال الأمير رع حتب وزوجته الأميرة نفرت
أحد أمراء الأسرة الرابعة (عهد الملك خوفو)

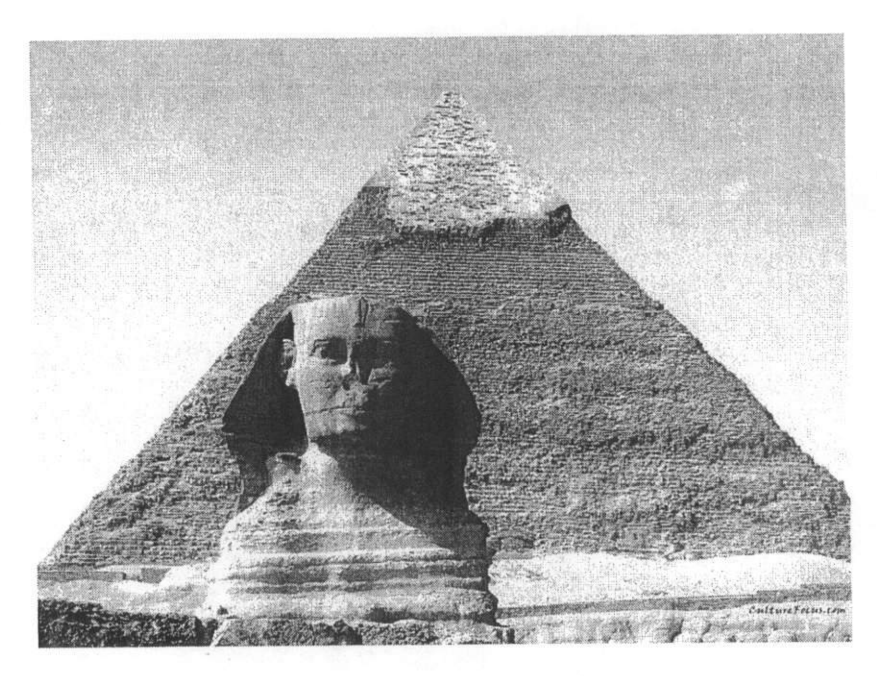


الملك جدف رع
الأسرة الرابعة
متحف اللوفر - باريس





**تمثال الملك خفرع**
**الأسرة الرابعة**
**١٦٨سم ديوريت موجود بالمتحف المصري التمثال الأشهر للملك خفرع وأحد روائع فن النحت فى العالم القديم يمثل خفرع جالساً على كرسي العرش فى مهابة**



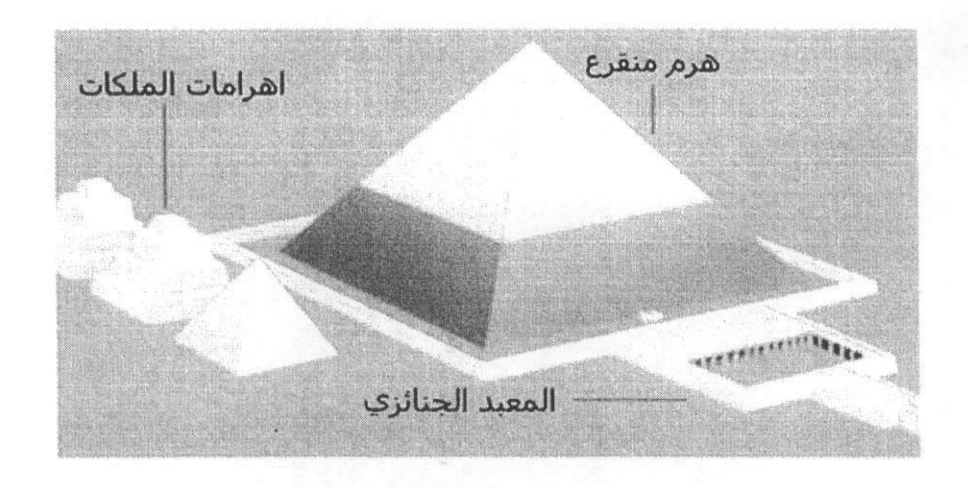

**هرم خفرع بجوار تمثال أبي الهول**



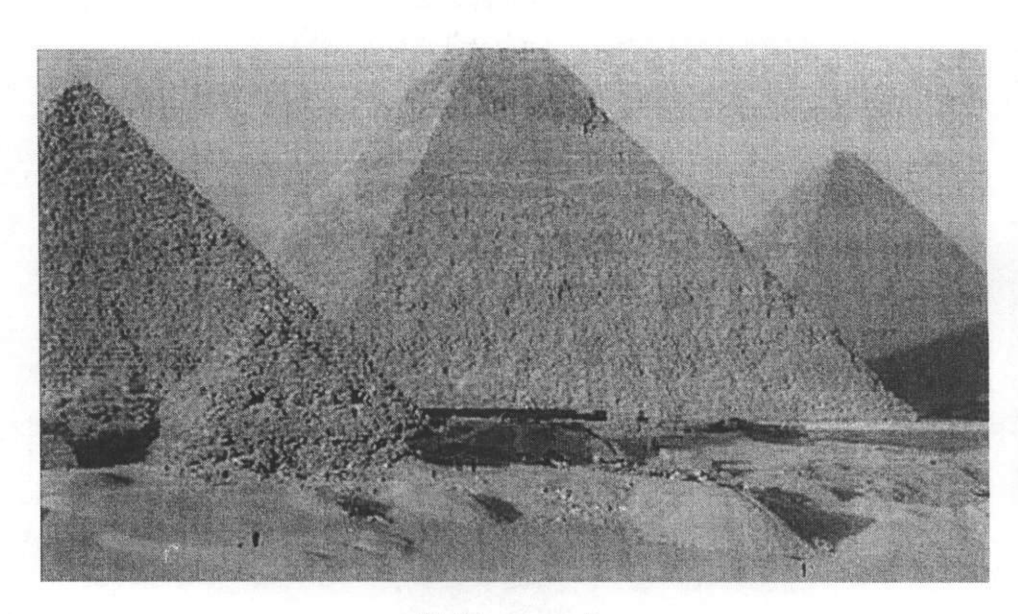
تمثال منكاورع
الأسرة الرابعة
متحف بوسطن للفنون الجميلة



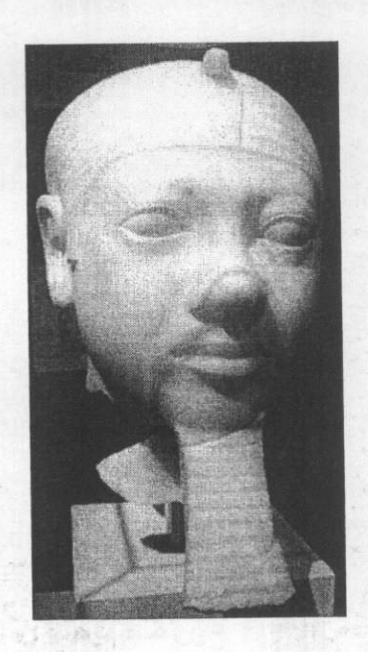
تمثال منكاورع وزوجته




هرم منكاورع



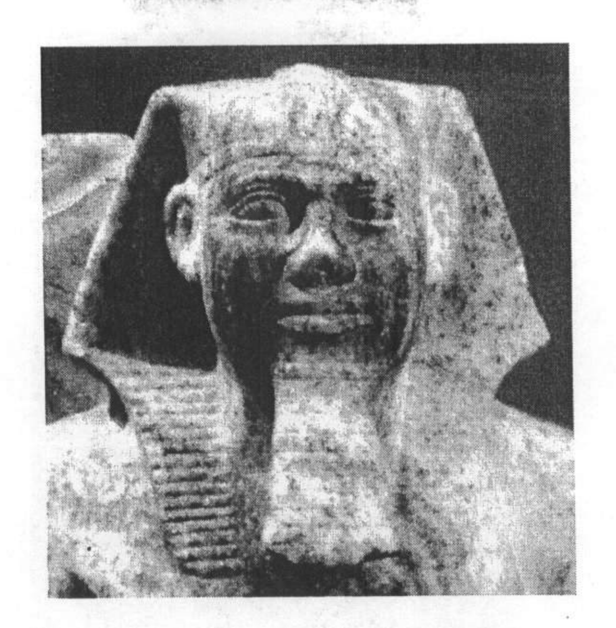
الأهرامات الثلاثة



**شبسس كاف**
**الأسرة الرابعة**
**متحف الفنون الجميلة ـ بوسطن**



**أوسر كاف**
**الأسرة الخامسة**



الملك ساحو رع
الأسرة الخامسة
متحف متروبوليتان بنيويورك



الملك ني وسر رع
الأسرة الخامسة



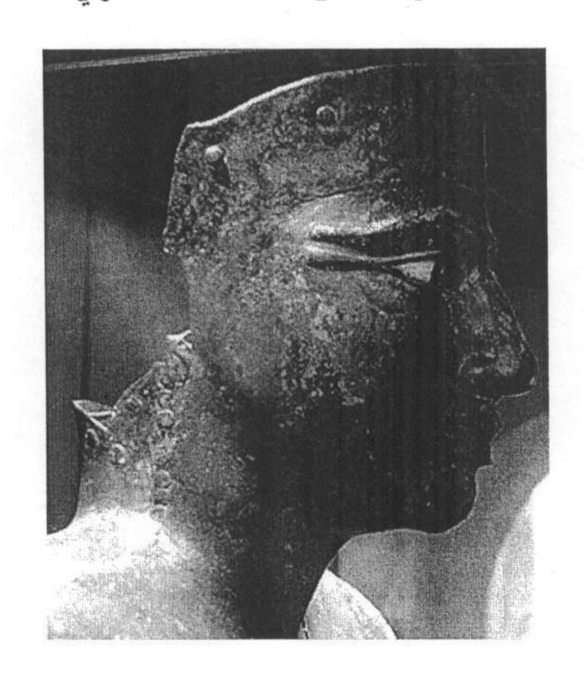
الملك منكاو حور
الأسرة الخامسة



الملك تتي
الأسرة السادسة



الملك بيبي الأول
الأسرة السادسة
تمثال من النحاس – المتحف المصري





**عنخ إسن مري رع الثانية وابنها پپي الثاني**
**الأسرة السادسة**
**تمثال من الألباستر – متحف بروكلين**

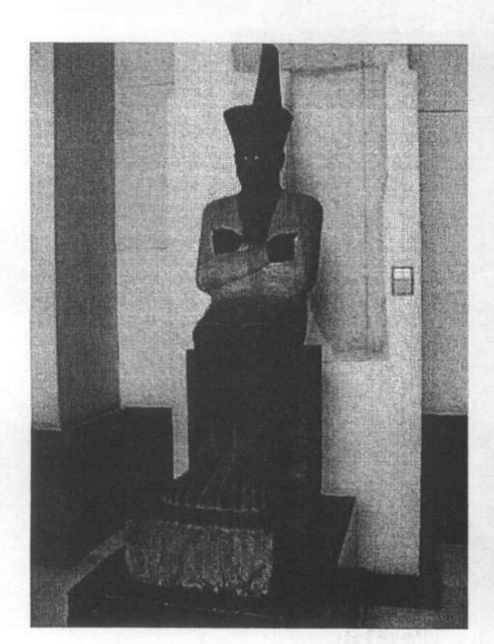
# ثانياً الدولة الوسطى



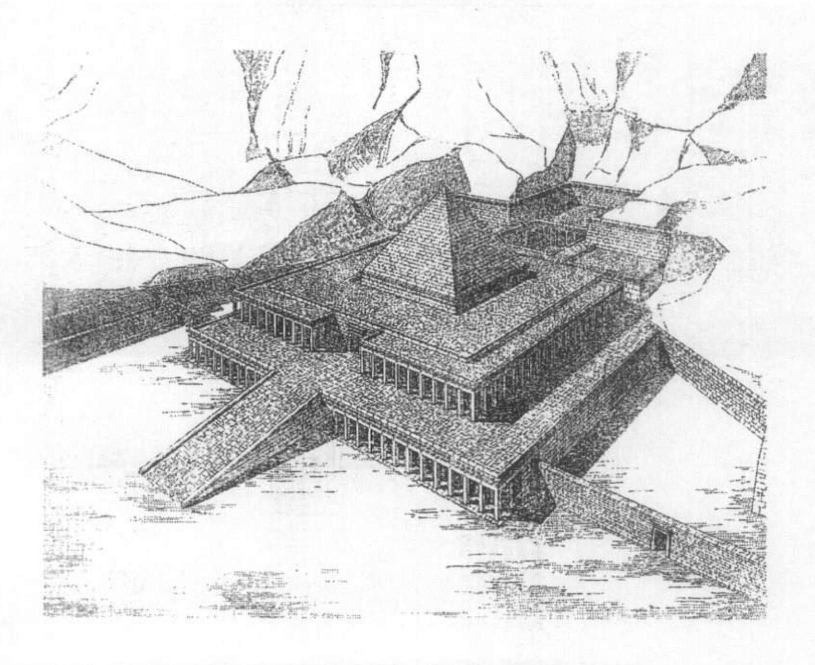
الملك إنتف الثاني
الأسرة الحادية عشر
لوحة جنائزية - متحف متروبوليتان – نيويورك



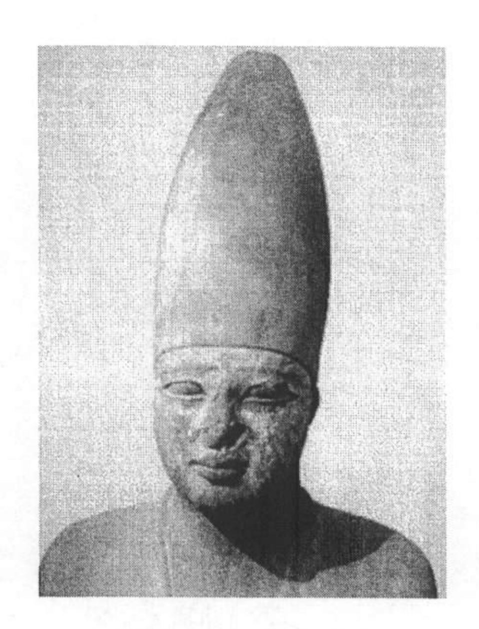
الملك منتوحوتب الثاتي
نقش بارز من معبده الجنائزي في دير البحري



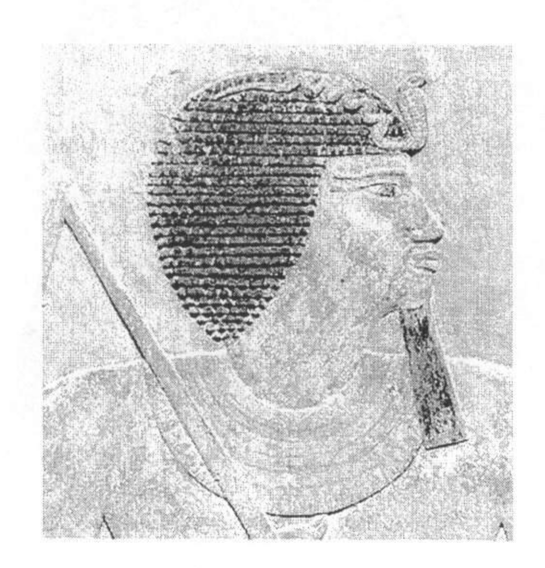

الملك منتوحوتب الثاني
تمثال من الحجر الرملي الملون
الأسرة الحادية عشر



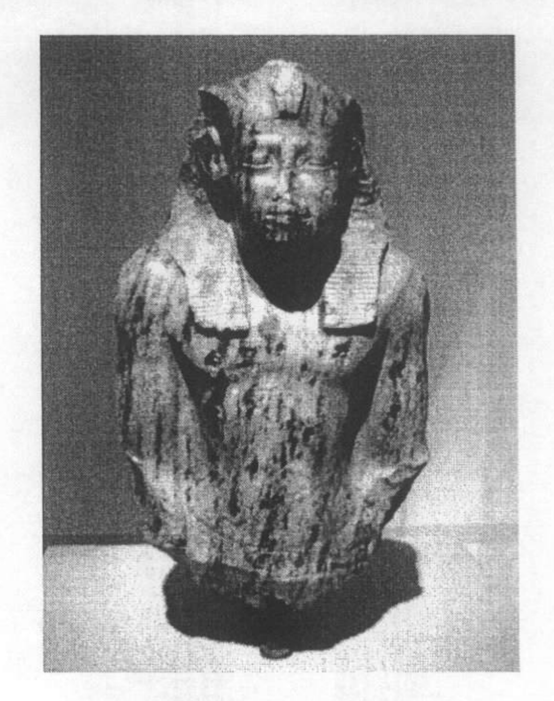
مقبرة الملك (منتوحتب) بالدير البحري



**الملك منتوحوتب الثالث**
**الأسرة الحادية عشر**
**في متحف الفنون الجميلة في بوسطن**



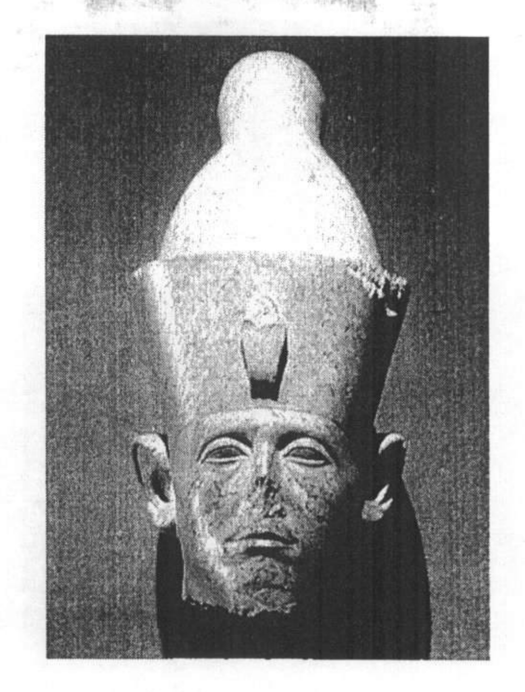
**الملك امنمحات الأول**
**الأسرة الثانية عشر**



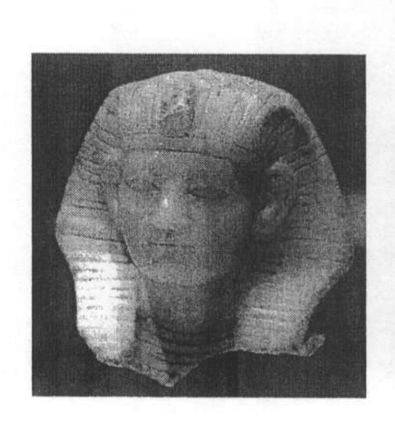
الملك سنوسرت الأول
الأسرة الثانية عشر
المتحف العلوي، برلين



الملك امنمحات الثاني
الأسرة الثانية عشر
متحف اللوفر – باريس

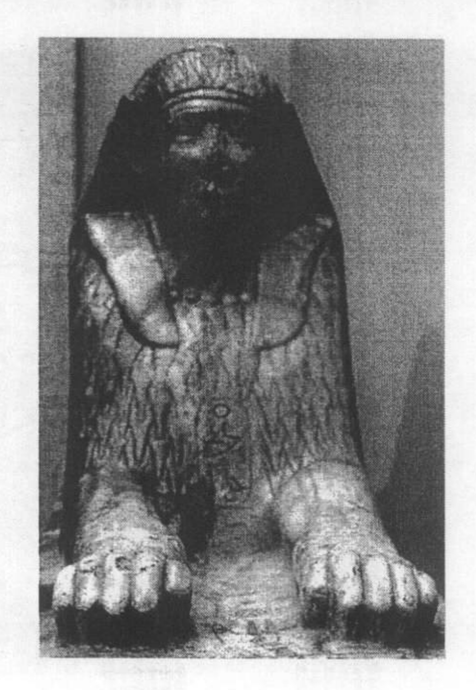


الملك سنوسرت الثالث
الأسرة الثانية عشر
متحف الأقصر





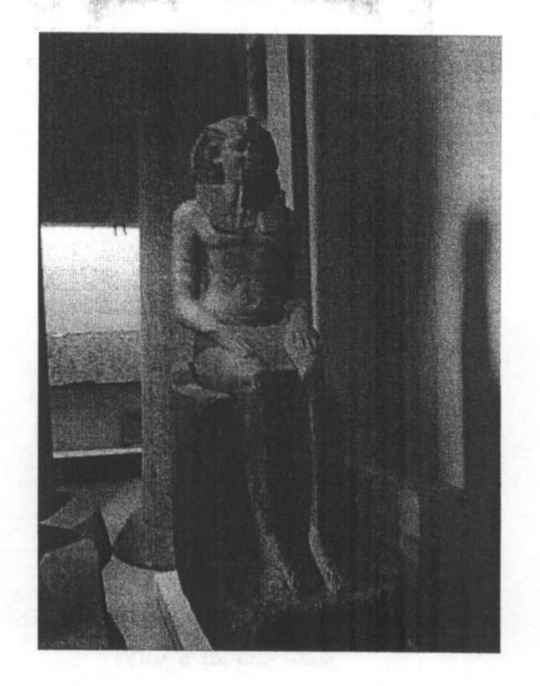
الملك امنمحات الثالث
الأسرة الثانية عشر



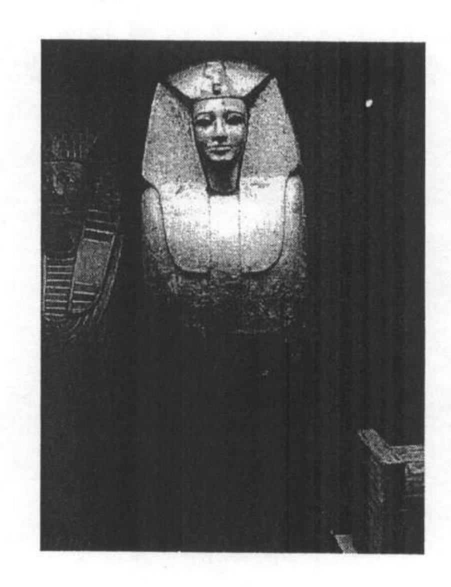
الملك امنمحات الرابع
الأسرة الثانية عشر
المتحف البريطاني



الملك سوبك حوتب الأول
الأسرة الثالثة عشر
متحف اللوفر - باريس



الملك سوبك حوتب الرابع
الأسرة الثالثة عشر
متحف اللوفر – باريس



الملك إنتف السادس
الأسرة السابعة عشر
متحف اللوفر

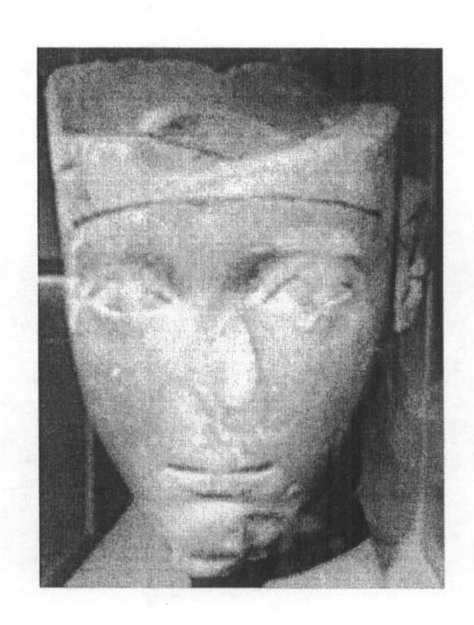
## ثالثا الدولة الحديثة



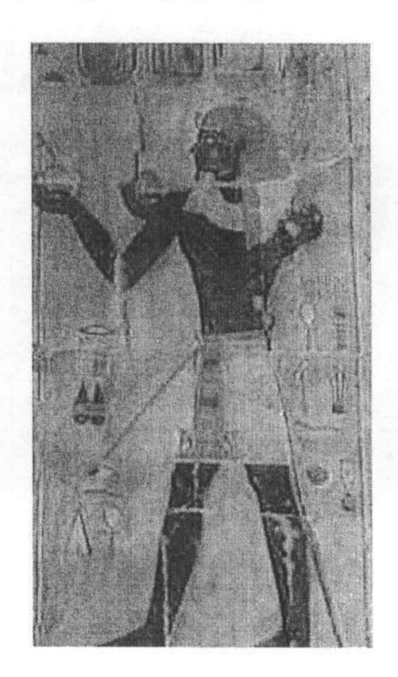
الملك أحمس الأول
الأسرة الثامنة عشر



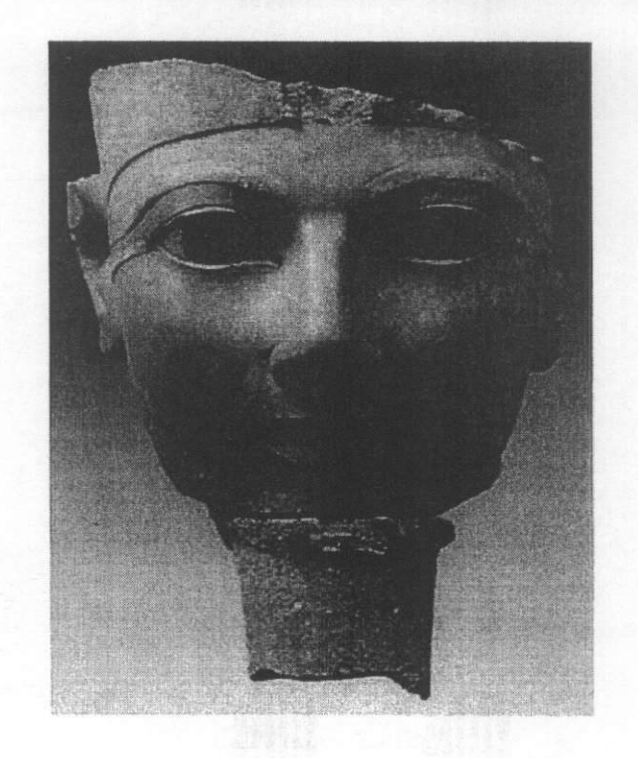
تمثال أحمس الأول
الأسرة الثامنة عشر
متحف متروپوليتان للفن.

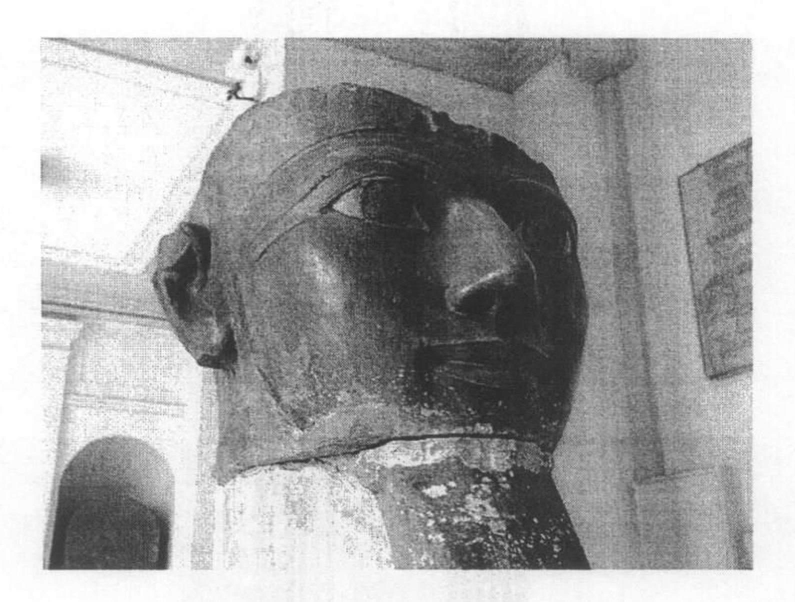


الملك امنحوتب الأول
الأسرة الثامنة عشر
متحف الفنون الجميلة ـ بوسطن

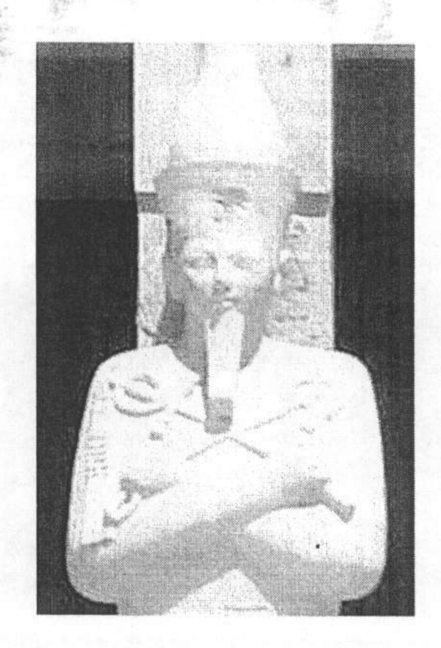


الملك تحتمس الأول
الأسرة الثامنة عشر

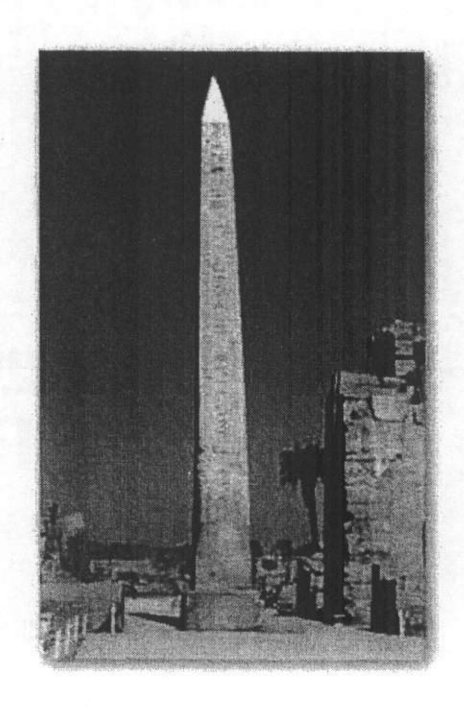




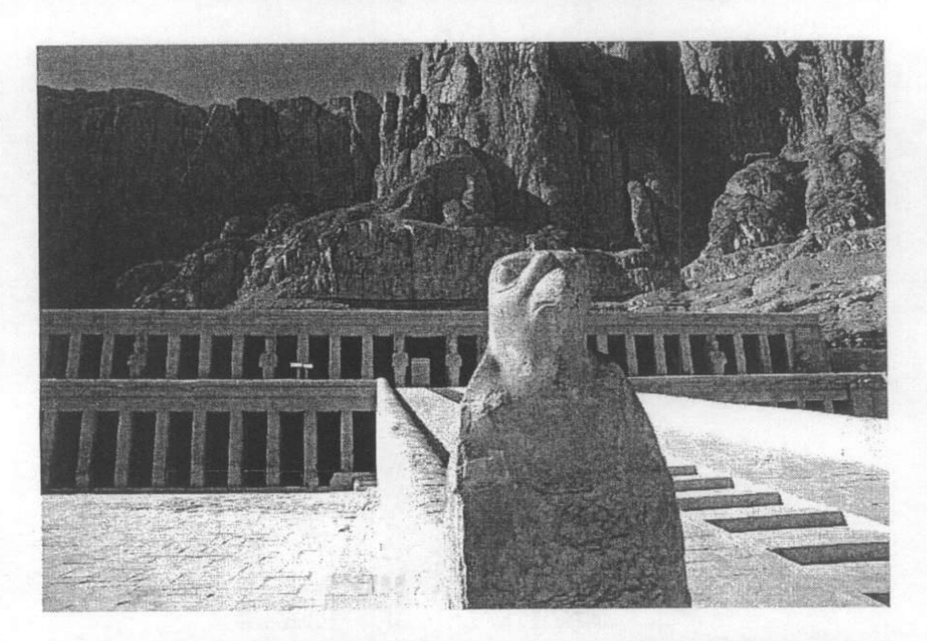
الملكة حتشبسوت
الأسرة الثامنة عشر

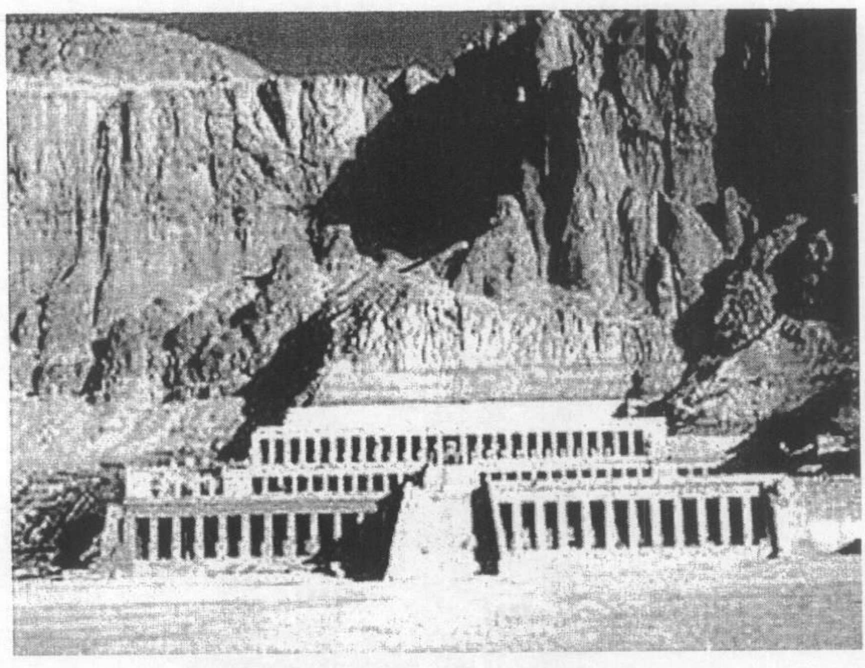


الملكة حتشبسوت



مسلة حتشبسوت بمعبد الكرنك بالأقصر





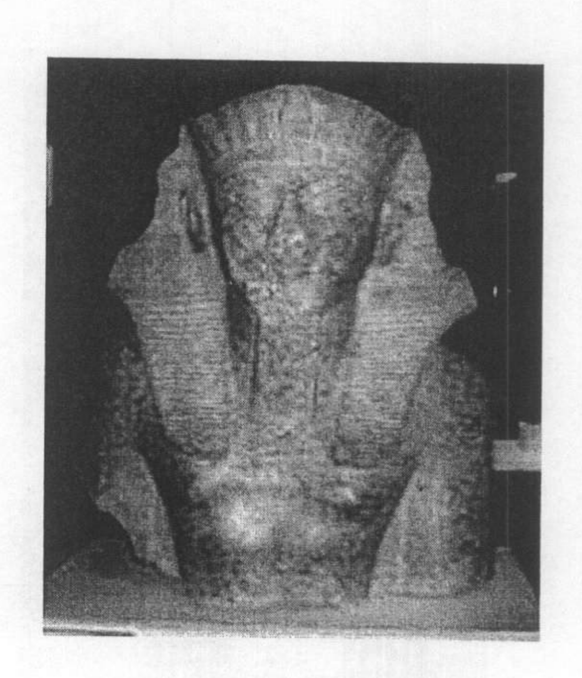
معبد الملكة حتشبسوت - الدير البحري



**الملك تحتمس الثالث**
**الأسرة الثامنة عشر**



**الملك امنحوتب الثاني**
**الأسرة الثامنة عشر**

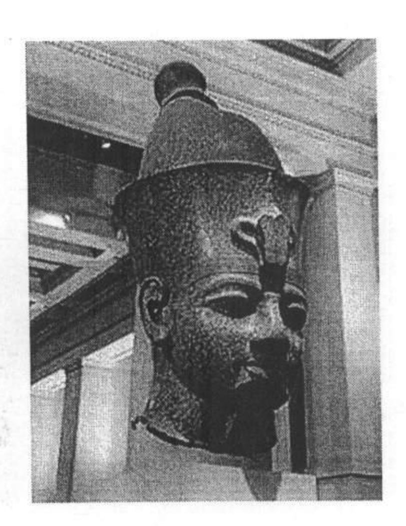


الملك تحتمس الرابع
الأسرة الثامنة عشر

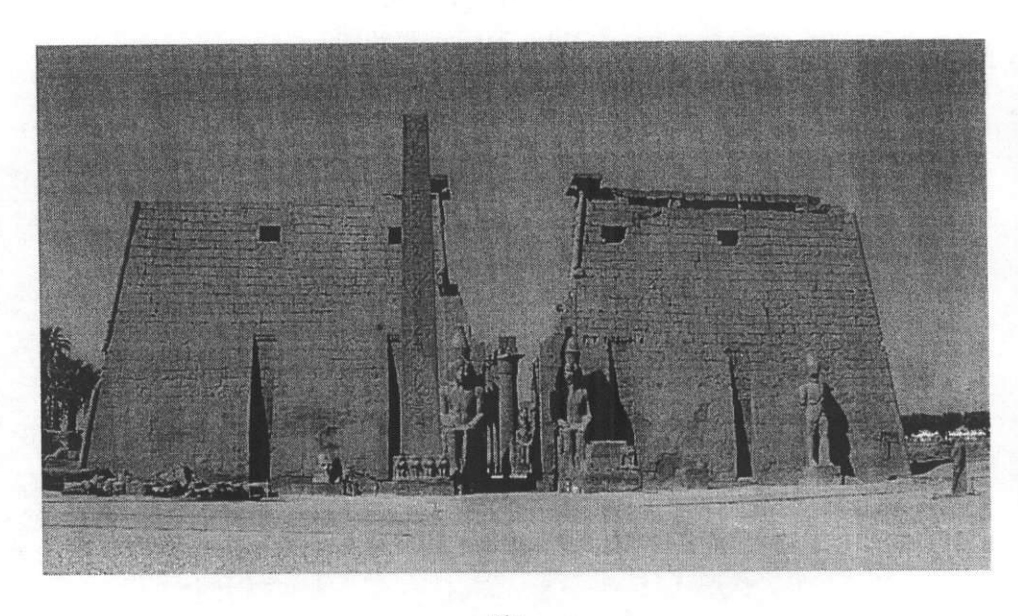


الملك امنحوتب الثالث
الأسرة الثامنة عشر





الملك امنحوتب الثالث
الأسرة الثامنة عشر

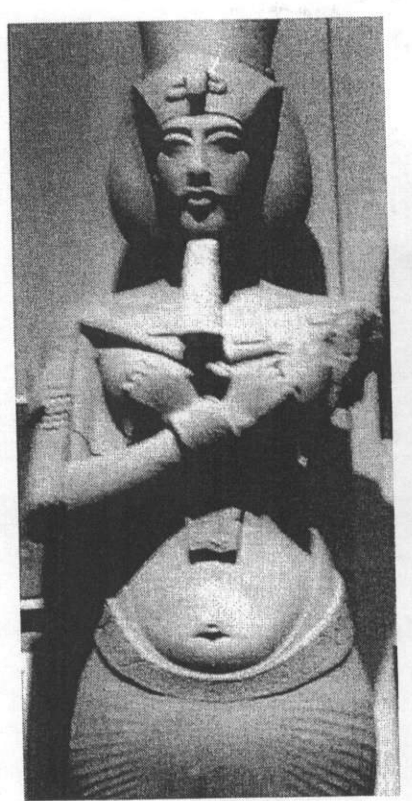
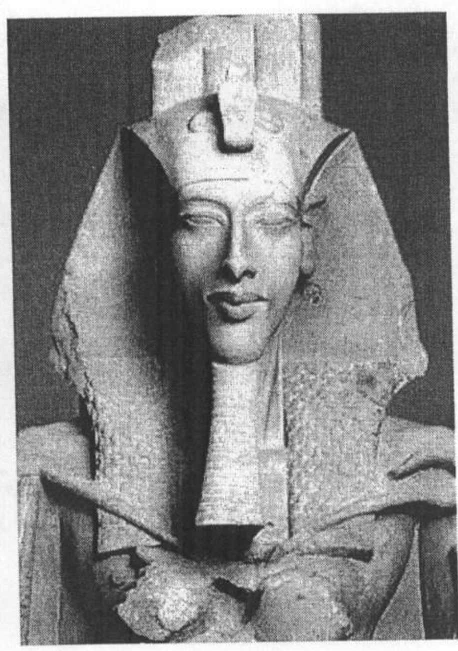
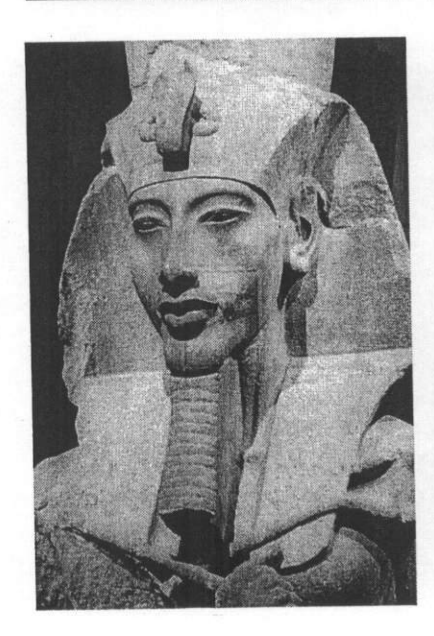


معبد الأقصر

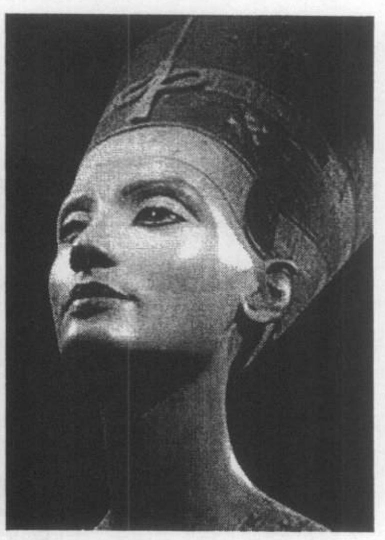
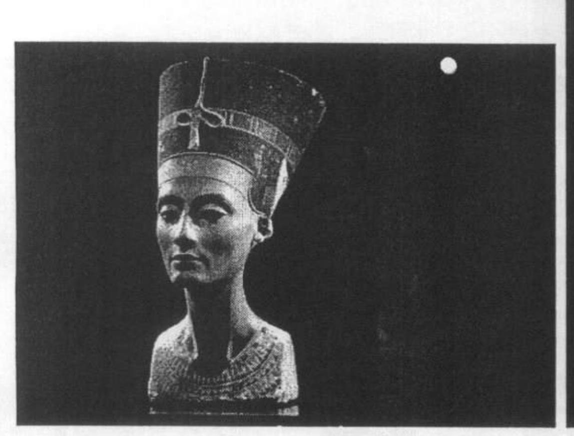


طريق الكباش يصل بين معبد الأقصر والكرنك
بناه الملك أمنحوتب الثالث

تمثالا ممنون (أمنحتب الثالث)


الملك أمنحوتب الرابع (اخناتون)
الأسرة الثامنة عشر

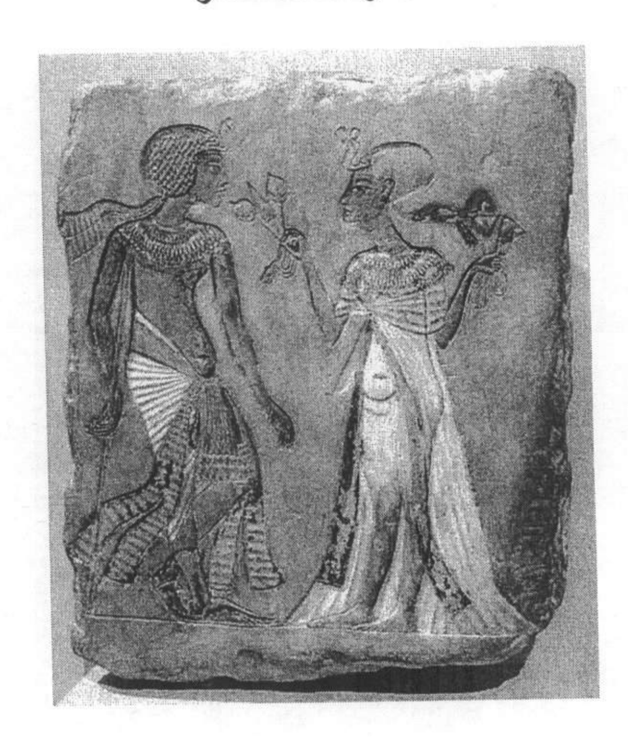
الملكة نفرتيتي زوجة اخناتون
متحف دالم – برلين



الملكة نفرتيتي



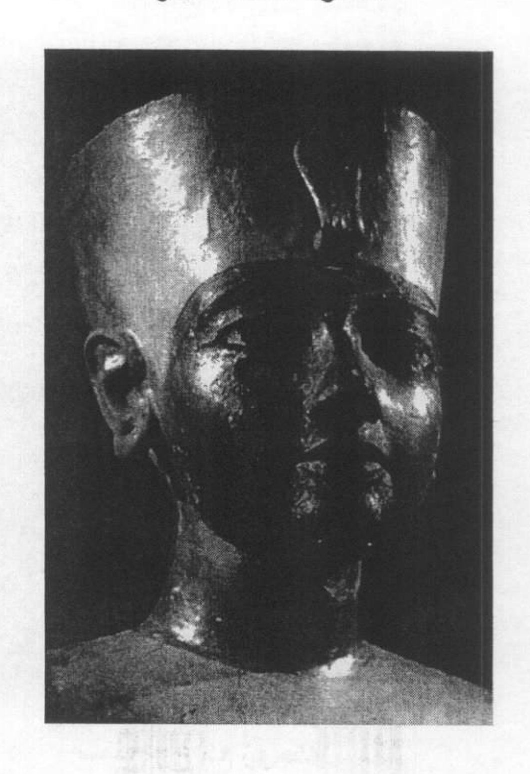
الملك سمنخ كارع
الأسرة الثامنة عشر



سمنخ رع مع زوجته

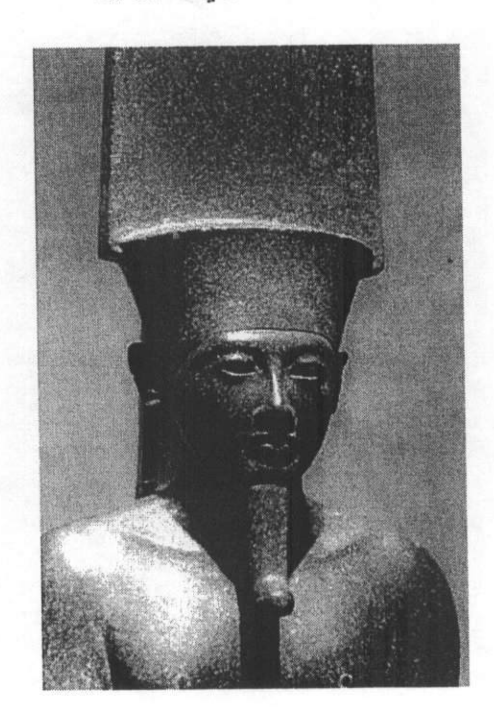


الملك توت عنخ آمون
الأسرة الثامنة عشر





**الملك آي**
**الأسرة الثامنة عشر**
**المتحف المصري – برلين**



**الملك حور محب**
**الأسرة الثامنة عشر**



الملك رمسيس الأول
الأسرة التاسعة عشر
متحف الفنون الجميلة - بوسطن

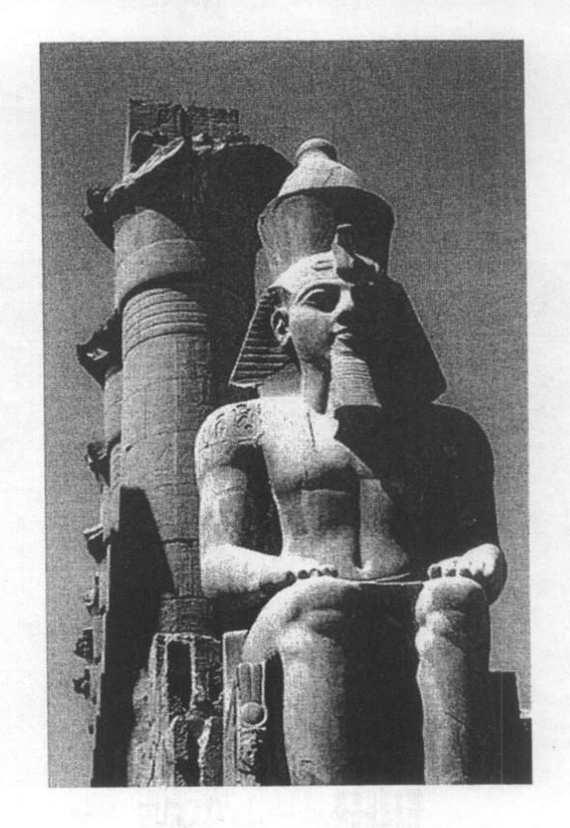


الملك سيتي الأول
الأسرة التاسعة عشر

معبد سيتي الأول – أبيدوس

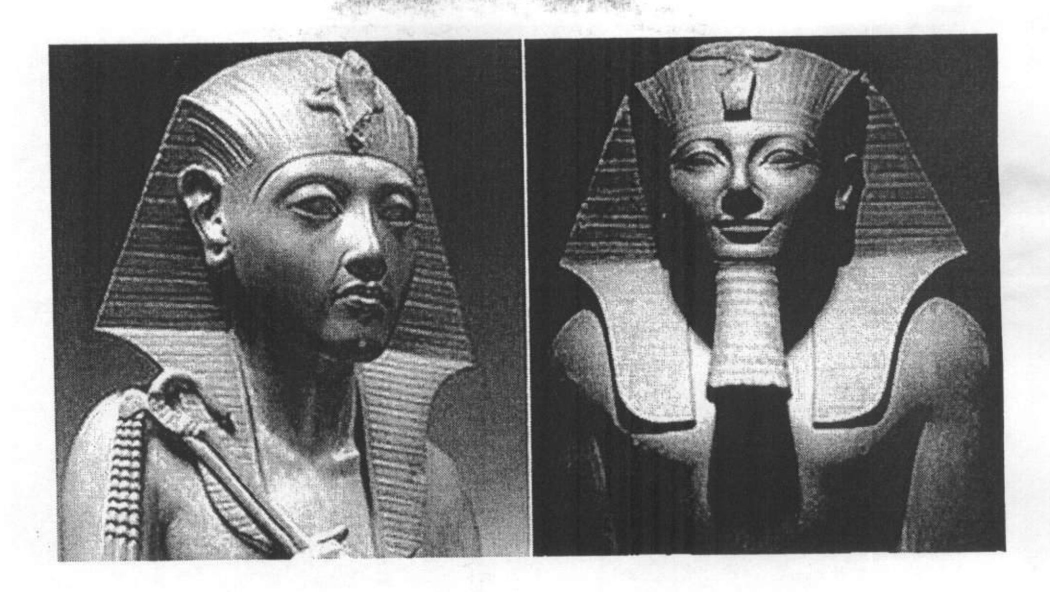


بهو الأعمدة
شيده سيتي الأول ورمسيس الثاني



الملك رمسيس الثاني
الأسرة التاسعة عشر

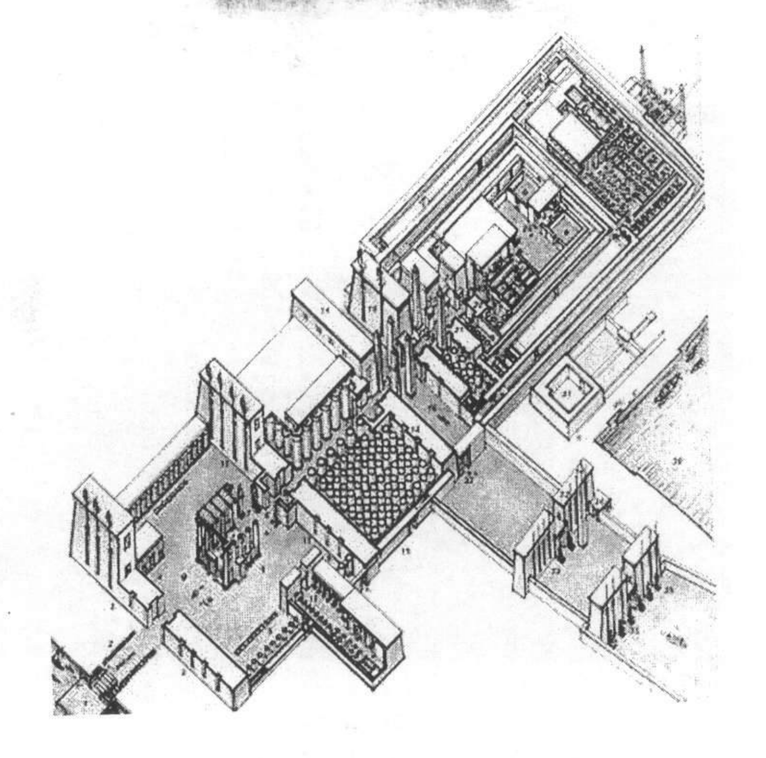




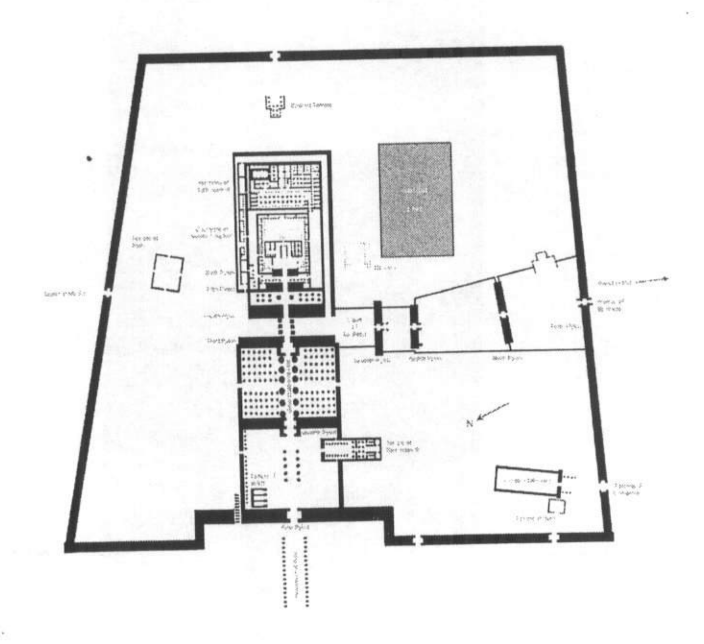
الملك رمسيس الثاني

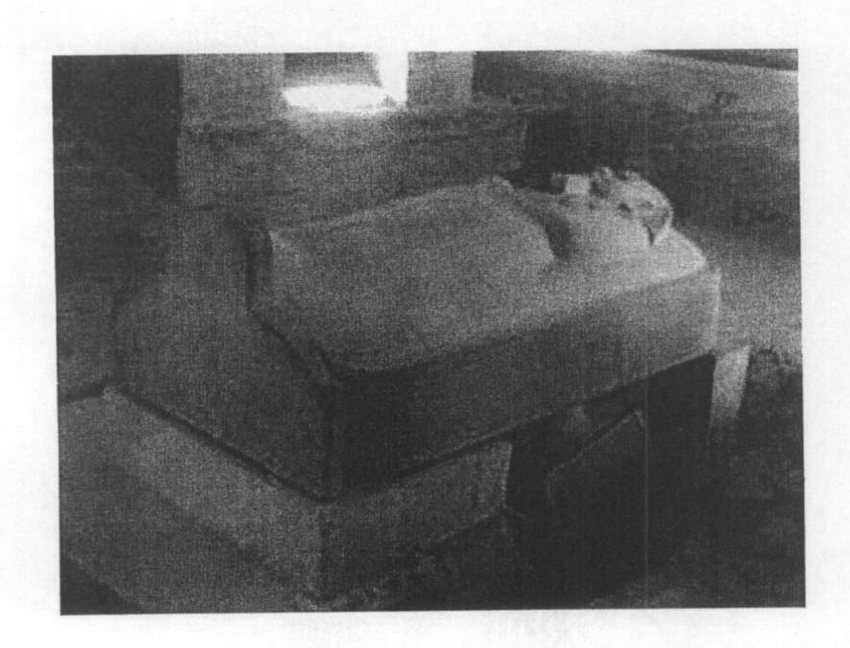
معبد أبو سبل

معبد الكرنك

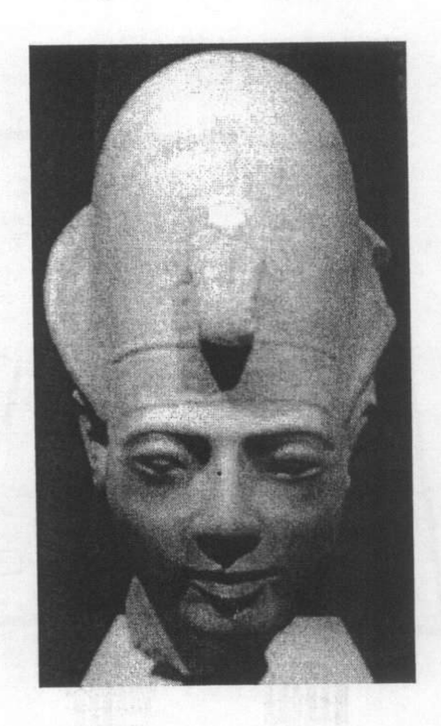


## معبد الكرنك



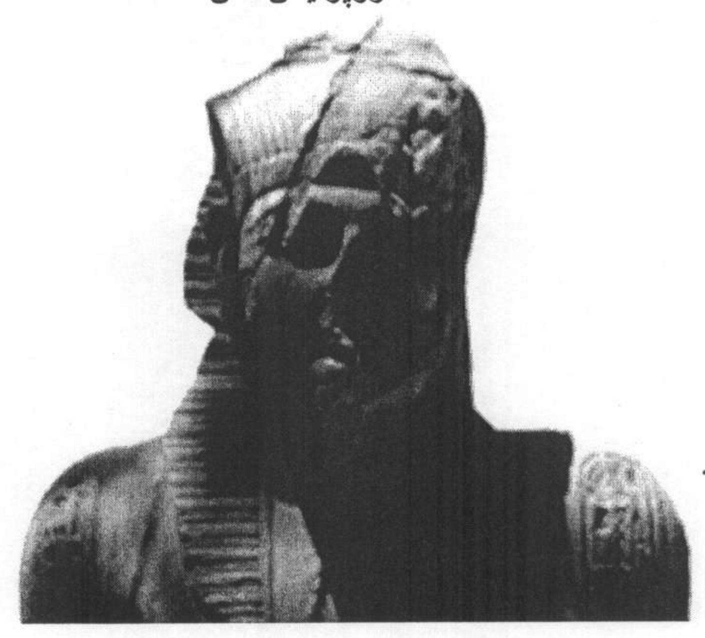


الملك مرنبتاح
الأسرة التاسعة عشر

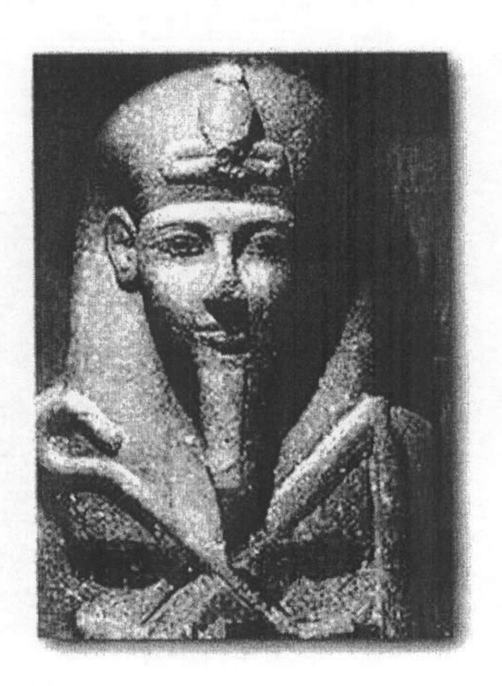


امون مس سي
الأسرة التاسعة عشر

متحف متروپوليتان للفن



الملك سيتي الثاني
الأسرة التاسعة عشر

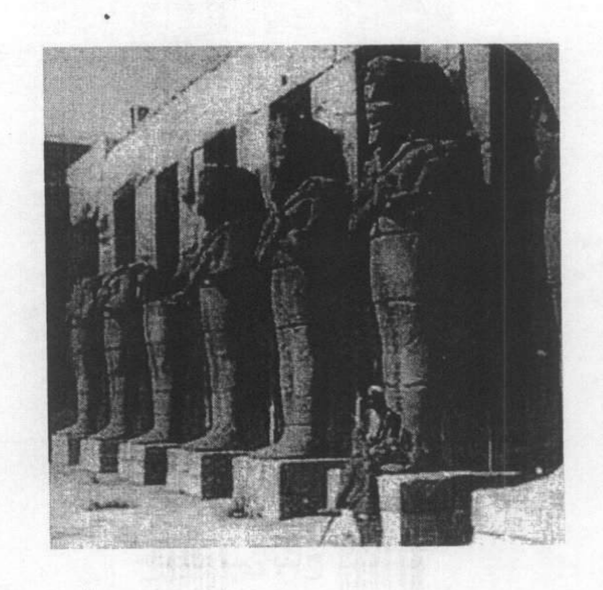


الملك سي بتاح

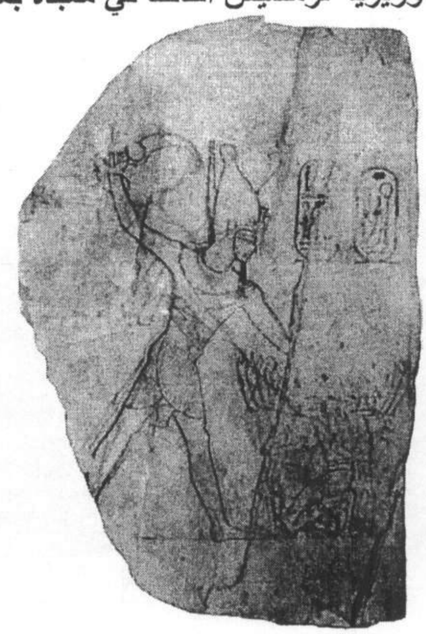
الأسرة التاسعة عشر



الملك رمسيس الثالث
الأسرة العشرون



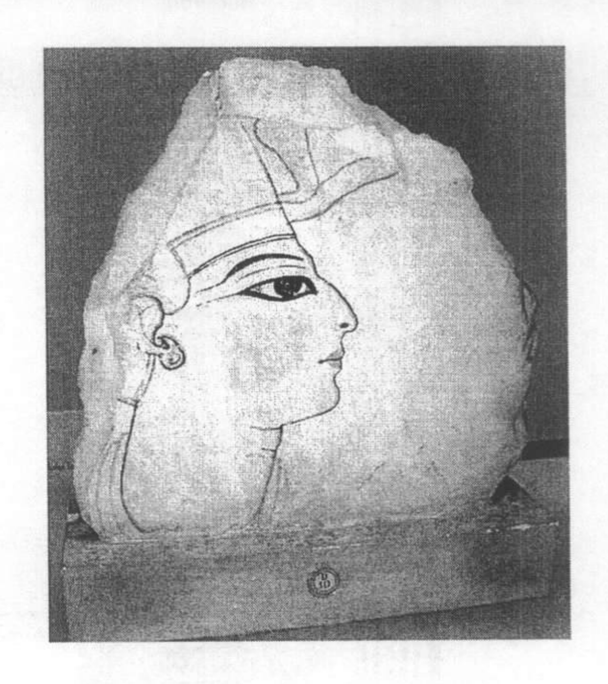
التماثيل الأوزيرية لرمسيس الثالث في معبده بمدينة هابو



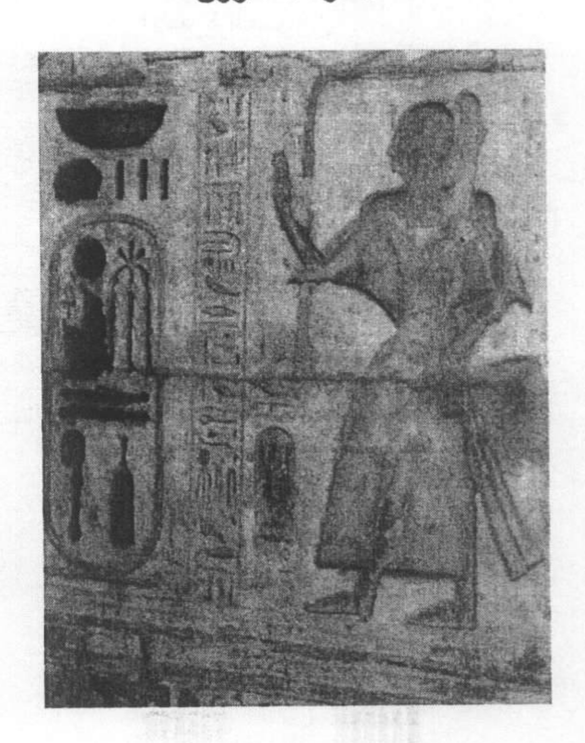
الملك رمسيس الرابع
الأسرة العشرون



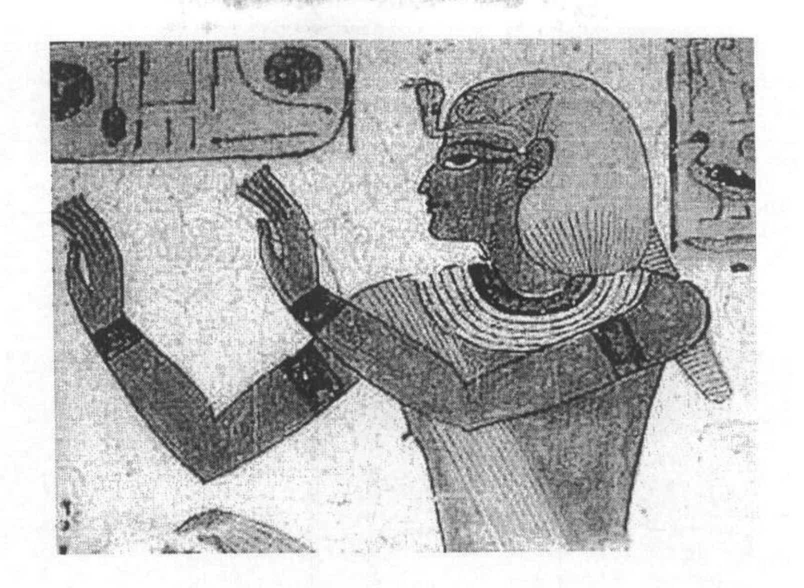
الملك رمسيس الخامس
الأسرة العشرون



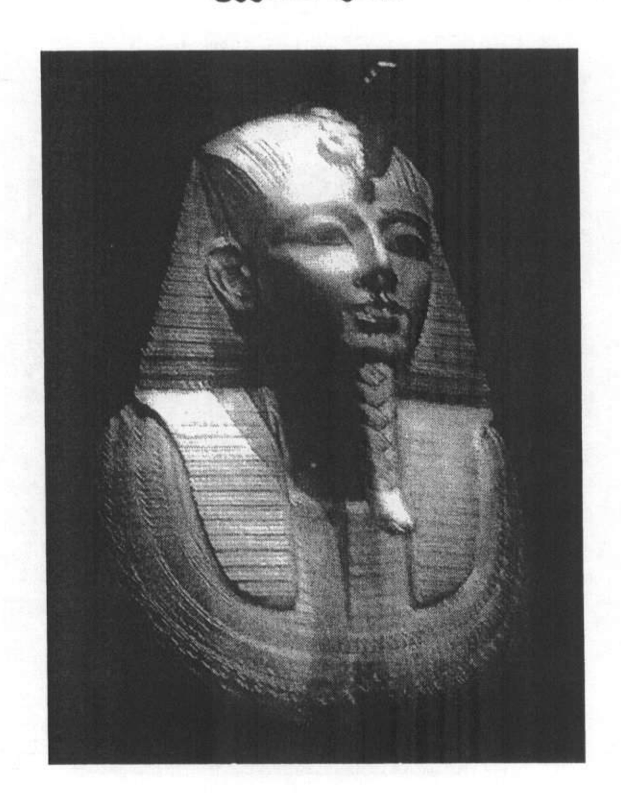
الملك رمسيس السادس
الأسرة العشرون



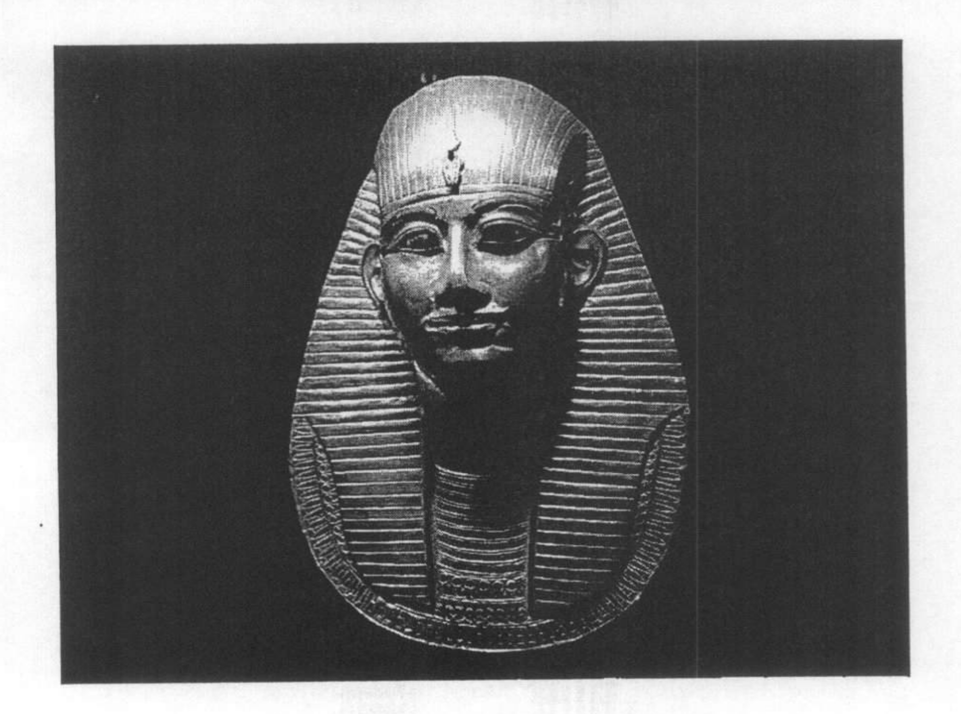
الملك رمسيس الثامن
الأسرة العشرون



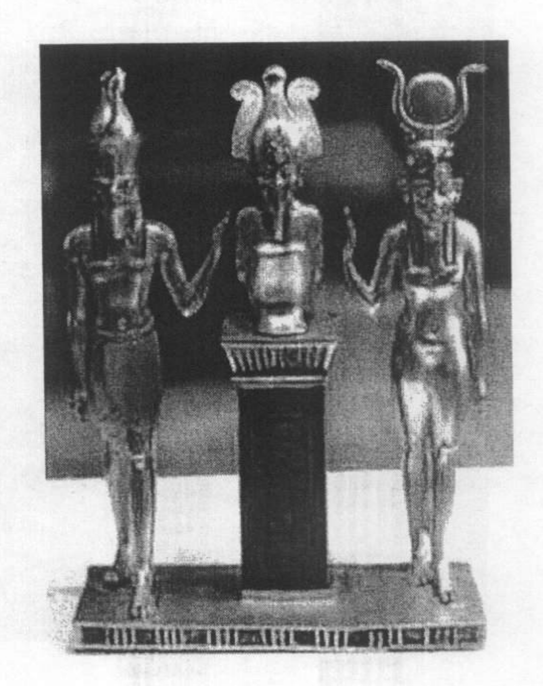
الملك رمسيس التاسع
الأسرة العشرون



الملك بسوسينيس
الأسرة الواحد والعشرون



الملك أمنمأويت
الأسرة الواحد والعشرون



قلادة تحمل خرطوش اوسركون الثاني
الأسرة الثانية والعشرون

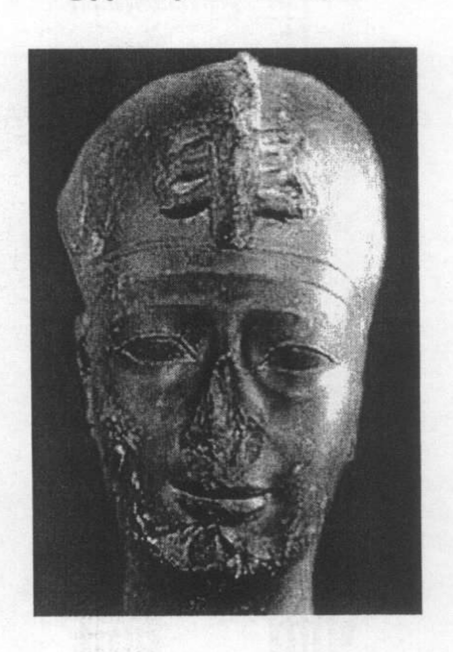


طهرقا
الأسرة الخامسة والعشرون

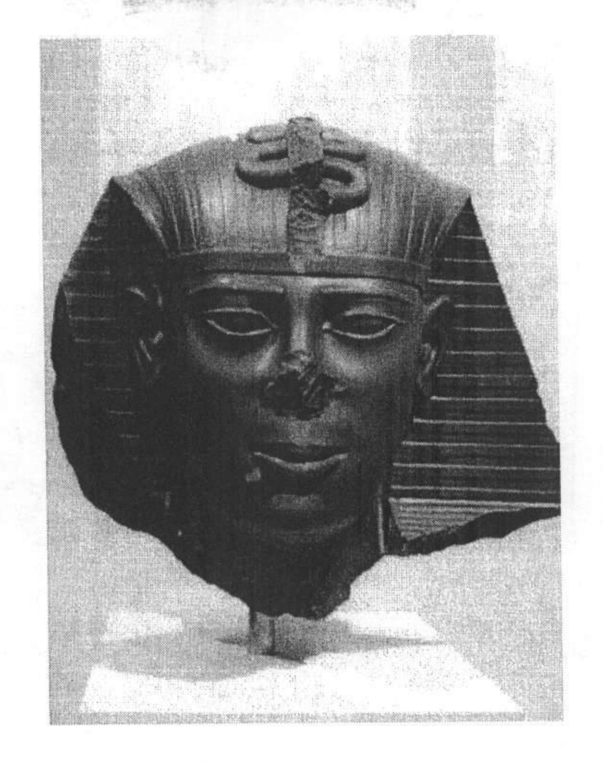


تمثال برونزي صغير راكع، غالباً لنخاو الثاني
الأسرة السادسة والعشرون
متحف بروكلين

تمثال أبو الهول يحمل وجه پسماتيك الثاني
الأسرة السادسة والعشرون



الملك بوريس
الأسرة السادسة والعشرون



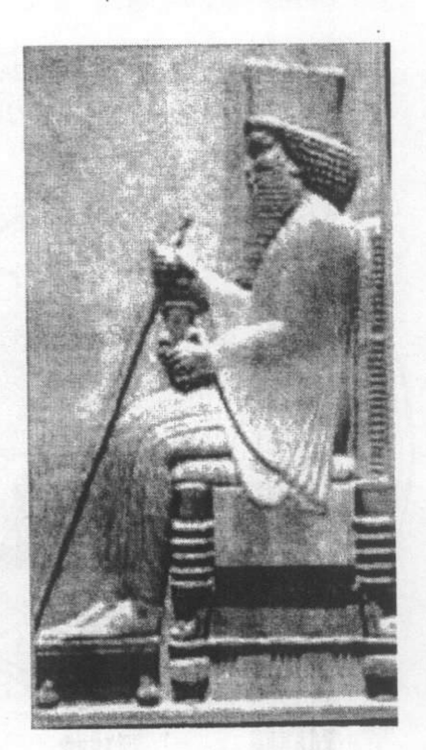
الملك أحمس الثاني (أمازيس)
الأسرة السادسة والعشرون



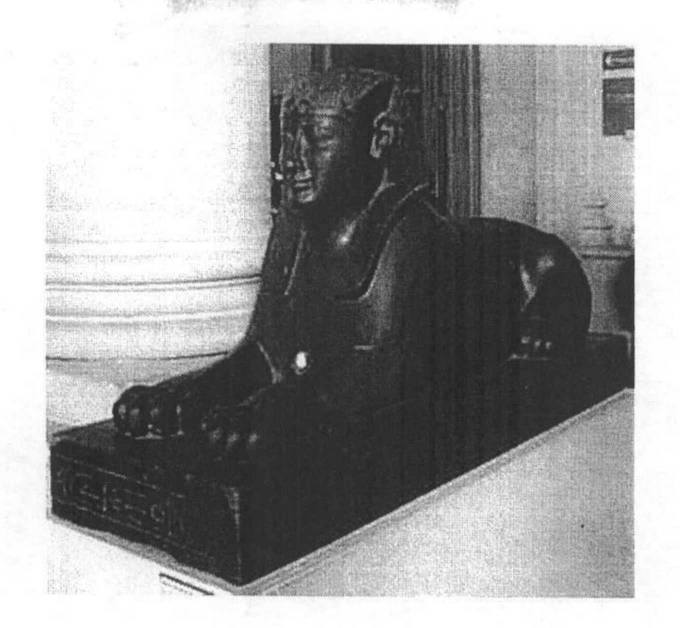

الملك قمبيز الثاني
الأسرة السابعة والعشرون



قمبيز الثاني من فارس ممسكاً بالفرعون پسماتيك الثالث من "ختم فارسي، من القرن السادس ق.م"



الملك دارا الأول (داريوس)
الأسرة السابعة والعشرون



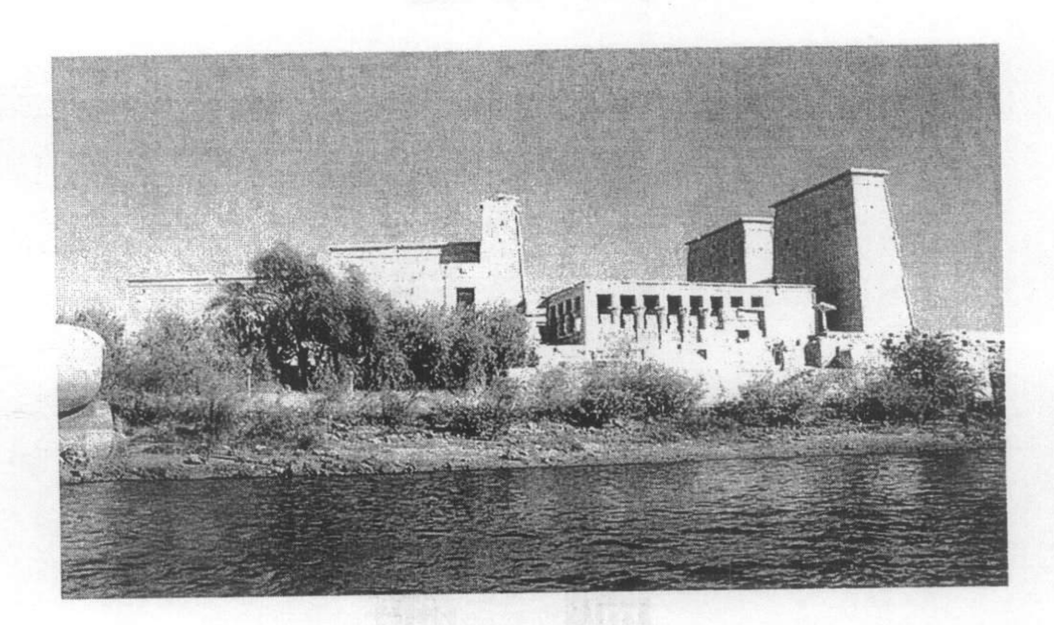
نفريتس الأول
الأسرة التاسعة والعشرون
متحف اللوفر



الملك نختنبو الثاني
الأسرة الثلاثون



معبد أدفو – بطليموس الثالث والرابع



معبد فيله

# الخاتمة

في نهاية هذا الكتاب بجزئيه الاثنين أتمنى أن أكون قد قدمت صورة متكاملة عن حضارة وادي النيل والتي استمرت مايقرب من ثلاثة آلاف عام ، بلغت ذورتها في الدولة الحديثة وقد فاقت مثيلتها من الحضارات الأخرى ، ومازالت حتى يومنا هذا مصدراً لذهول العالم أجمع بما تخفيه من غموض لم يتم فك شفرته ، ولم يتمكن العقل البشري الحديث من الوصول إلى حلول لتلك الطلاسم حتى يومنا هذا بالرغم من التقدم العلمي وكلما تعمقنا بالبحث في تلك الحضارة العظيمة ازدادت علامات الاستفهام حولها .

وارجو أن أكون قد وفقت من خلال هذا الطرح في وضع بعض الاجابات لتلك التساؤلات التي امتلأ بها ذهن كل باحث ، راجياً من الله عز وجل أن تكون تلك الدراسة المستفيضة عملاً منتفع به وتحقق الغرض الذي وضعت من أجله .



# المراجع

## ● أولا : المراجع العربية :


١ ـ العمارة فى مصر القديمة — تأليف : د . محمد أنور شكرى

٢ ـ حضارة مصر والشرق القديم — تأليف : الدكاترة : ابراهيم رزقانه محمد أنور شكرى ، عبد المنعم أبو بكر حسن محمود ، عبد النعيم حسنين .

٣ ـ الحضارة المصرية — تأليف : جون ولسون . — ترجمة : د أحمد فخرى .

٤ ـ الماضى الحى — تأليف : إيفار ليسنر — ترجمة : شاكر ابراهيم سعيد

٥ ـ الرمز والأسطورة فى مصر القديمة — تأليف : رندل كلارك . — ترجمة : أحمد صليحة .

٦ ـ تاريخ مصر القديمة [ جزءان ] — تأليف : د . رمضان السيد

٧ ـ فن الرسم عند قدماء المصريين — تأليف : وليم بيك . — ترجمة : مختار السويفى .

٨ ـ تاريخ العمارة المصرية القديمة — تأليف د . اسكندر بدوى

٩ ـ هردوت يتحدث عن مصر — تأليف : هرودت — ترجمة : د . محمد صقر خفاجة .

١٠ ـ نمو الحضارة — تأليف : و . ج . برى — ترجمة : لويس اسكندر .

١١ ـ علماء الآثار — تأليف : تشارلز مايكل دورتى . — ترجمة : محمد عبد الفتاح ابراهيم

١٢ ـ فن التصوير المصرى القديم — تأليف : نينا ديفز — ترجمة : د . حسن صبحى بكرى ، وعبد الغنى الشال .

١٣ ـ أهرام مصر — تأليف : إ . إ . س . إدواردز . — ترجمة : مصطفى عثمان

١٤ ـ أسرار الهرم الأكبر — تأليف : محمد العرب موسى .

١٥ ـ المواد والصناعات عند قدماء المصريين — تأليف : ألفريد لوكاس — ترجمة : د . زكى اسكندر و محمد زكريا غنيم .

١٦ ـ فى رحاب المعبود توت — تأليف : د سامى جبره . — ترجمة : عبد العاطى جلال

١٧ ـ مصر الفراعنة — تأليف : سير ألن جاردنر . — ترجمة : د . نجيب ميخائيل ابراهيم

١٨ ـ عندما حكمت مصر الشرق — تأليف : جورج شتايندورف ، وكيث سيل — ترجمة : محمد العرب موسى .

١٩ ـ آثار الأقصر — تأليف : د . محمد عبد القادر محمد .

٢٠ ـ الآثار المصرية فى وادى النيل — تأليف : جيمس بايكى . — ترجمة : لبيب حبشى ، وشفيق فريد .

| | | |
|---|---|---|
| ٢١ ـ وادى الملوك | تأليف : عزيز مرقص منصور | |
| ٢٢ ـ الفن المصرى [ جزءان ] | تأليف : د . ثروت عكاشة . | |
| ٢٣ ـ مصر فى عيون الغرباء [ جزءان ] | تأليف : د . ثروت عكاشة . | |
| ٢٤ ـ مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية | تأليف : مختار السويفى . | |
| ٢٥ ـ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية | تأليف : د أحمد قدرى [ بالانجليزية ] | ترجمة : مختار السويفى . ومحمد العزب موسى . |
| ٢٦ ـ نفرتيتى الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد | تأليف : جوليا سامسون | ترجمة : مختار السويفى . |
| ٢٧ ـ سرقة ملك مصر | تأليف : محسن محمد . | |
| ٢٨ ـ مجوهرات الفراعنة | تأليف : سيريل ألدريد . | ترجمة مختار السويفى . |
| ٢٩ ـ المجمل فى تاريخ مصر | تأليف : د . ناصر الأنصارى . | |
| ٣٠ ـ على هامش التاريخ المصرى القديم | تأليف : عبد القادر حمزة . | |
| ٣١ ـ الموسوعة الأثرية العالمية | تأليف : مجموعة من علماء الآثار الأجانب | ترجمة : د . محمد عبد القادر محمد و د . زكى اسكندر . |
| ٣٢ ـ تاريخ الحضارة المصرية [ العصر الفرعونى ] | تأليف : نخبة من المؤرخين وعلماء الآثار المصريين . | |
| ٣٣ ـ تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى | تأليف : جيمس هنرى برستيد . | ترجمة : د . حسن كمال . |
| ٣٤ ـ فى موكب الشمس [ جزءان ] | تأليف : د . أحمد بدوى | |
| ٣٥ ـ موسوعة الفراعنة | تأليف : باسكال فيرنوى ، وجان يويوت . | ترجمة : د . محمود ماهر طه . |
| ٣٦ ـ الأدب الثورى عبر التاريخ | تأليف : محمد مفيد الشوباشى . | |
| ٣٧ ـ مصر القديمة [ ١٦ جزءاً ] | تأليف : د . سليم حسن . | |
| ٣٨ ـ الأدب المصرى القديم [ جزءان ] | تأليف : د . سليم حسن . | |
| ٣٩ ـ معجم الحضارة المصرية القديمة | تأليف : مجموعة من المؤرخين وعلماء الآثار الأجانب . | ترجمة : أمين سلامة . |
| ٤٠ ـ الحضارة المصرية | تأليف سيريل ألدريد . | ترجمة : مختار السويفى . |

● ثانيا : المراجع الأجنبية :


41 - GREAT PYRAMID
BY :PETER TOMPKINS.

42 - THE EGYPTIANS.
BY : CYRIL ALDRED .

43 - EGYPT TO THE END OF THE OLD KINGDOM
BY : CYRIL ALDRED .

44 - THE EGYPT OF THE PHARAOHS - AT THE CAIRO MUSEUM.
BY : JEAN - FRANCOIS GOUT.
PREFACE BY JEAN LECLANT. TRANSLATED BY ANTHONY ROBERTS.

45 - IN THE SHADOW OF THE PYRAMIDS.
BY : JAROMIR MALEK.

46 - ANCIENT EGYPT.
BY : GEORGE HART.

47 - SUNRISE OF POWER.
BY : JOYCE MILTON.

48 - EGYPT DRAWINGS.
BY: DAVID ROBERTS (1839).

49 - VALLEY OF THE KINGS.
BY : JOHN ROMER.

50 - ATLAS OF ANCIENT EGYPT.
BY : JOHN BAINES & JAROMIR MALEK.

51 - THE TOMBS OF THE NOBLES AT LUXOR.
BY : LISE MANNICHE.

52 - WARRIOR PHARAOHS.
BY : P. H. NEWBY.

53 - DEATH IN ANCIENT EGYPT.
BY : A. J. SPENCER.

54 - ARCHAIC EGYPT.
BY : W. B. EMERY.

55 - THE ANCIENT EGYPTIANS.
BY : JILL KAMIL.

● ثالثا : من مصادر الصور والأشكال الداخلية :

٥٦ ـ متحف الأقصر للفن المصرى القديم [ كتالوج ] ـ أصدار : مركزالبحوث الأمريكى بمصر ، والمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . ترجمة : عبد العزيز صادق .

٥٧ ـ الماضى يبعث حيا ـ تأليف : إدنا مجوير . ترجمة : ابراهيم زكى خورشيد .

٥٨ ـ مجلة « شل » [ ١١ عددا ] .

٥٩ ـ المتحف المصرى ـ موجز فى وصف الآثار الهامة ـ إصدار ١٩٥٤ .

60 - EGYPT - 1900 : SHELL COMPANIES IN EGYPT

61 - ART THROUGH THE AGES

62 - EGYPT REVEALED - SCENES FROM NAPOLEON'S DESCRIPTION DE L'EGYPT

BY : ROBERT ANDERSON AND IBRAHIM FAWZY.

63 - THE SPLENDERS OF EGYPT.

BY : MICHAEL DAVISON.

64 - WONDERS OF TUTANKHAMUN

By : DAVID P. SILVERMAN.

65 - UPPER EGYPT.

BY : DINO SASSI.

66 - DAS ALTE REICH - ÄGYPTEN IM ZEITALTER DER PYRAMIDEN. [KATALOG].

67 - VALLEY OF THE KINGS [CATALOGUE].

68 - DENDERAH - KARNAK - LUXOR [CATALOGUE].

69 - EGYPT [CATALOGUE].

BY : ABBAS CHALABY.

# الفهـــــرس

